

مكتبة الدراسات التاريخية

سيف الدولة

وعصر الحمدانيين

بقلم
سامي الكيالي



دار المغارف بمط

سَيْفُ الدَّوْلَةِ

وعُصْرُ الْحَمْدَانِيَّيْنِ

مكتبة الدراسات التاريخية

سَيْفُ الدَّوْلَةِ

وعصر الحمدانيين

بقلم

سامي الكيال



دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ه شارع ماسبيرو - القاهرة

الإهداء

كانت سورية . قبل ألف عام . أى بعد انقراط
عقد الإمبراطورية الكبرى بتصدع ملك العباسيين في
بغداد — مطمعا للزحفات البيزنطية، ولكن بطولة الحلبيين
الأشاوس الذين بذلوا دماءهم بسخاء في الدفاع عن ذرى
الوطن هي التي حالت دون تحقيق ذلك الحلم البيزنطى القديم .
فإلى روح ذلك « الجندى المجهول » الذى أنبتته تربة
هذا الوطن المقدس — إلى ذلك الحلبي المغوار الذى كان
أول من حمل رايات سيف الدولة، أهدى هذه الصفحات.

لئنُ خُلِقَ الأَنامُ لحَسو كَأَسٍ ومزمارٍ وِطنبُورٍ وعودٍ
فلم يَخْلُقْ بَنُو حَمْدانَ إلاَّ لمجدٍ أو لبأسٍ أو لجودٍ

أبوفراس

ليس إلّاكَ يا عَلى هَمامٌ سيفهُ دونَ عِرضِهِ مسلُولٌ
كيفَ لا تَأْمَنُ العِراقُ ومِصرُ وسراياكَ دونَها والخِـيولُ
لو تَحَرَّفتَ عن طَريقِ الأَعادِ رِبطَ السِّدرِ خيلَهم والنخيلُ
ودرى منْ أَعزّه الدَفْعُ عنهُ فيهما أَنه الحَقيرُ الذَّلِيلُ
أنتَ طَولَ الحِياةِ للرومِ غارُ ففى الوعدِ أن يَكُونَ القُفولُ
وسوى الرومِ خَلْفَ ظَهركَ رومٌ فعلى أَى جَانِبيكَ تَميلُ
قعدَ النَّاسُ كُلُّهم عن مِساغِ لكَ وقامتَ بها القِنا والنُّصُولُ
ما الذى عنده تَدَارُ المَنابِيا كالذى عنده تَدَارُ الشُّمُولُ

المتنبى

اجتمع لسيف الدولة بن حمدان ما لم يجتمع لغيره من الملوك ، كان خطيبه
ابن نباته الفارقي ، ومعلمه ابن خالويه ، ومطربه الفارابي ، وطباخه كشاجم ،
وخزان كتبه الخالديان والصنوبري ، ومداحه المتنبى والسلامي والأواء الدمشقي
والرفاء والنامي وابن نباتة السعدي والصنوبري وغير ذلك .

العالبي

مقدمة

بقلم

الدكتور إسماعيل أحمد أدهم

في نفوس الناس اليوم صورة جديدة عن التاريخ ، وهى صورة على الرغم مما فيها من الغموض والإبهام ، فإنها صادقة الدلالة على التطور الذى حدث فى نفوس الناس فجعلهم لا يطمثون إلى اعتبار التاريخ مجرد الرواية للماضى وتدوين حوادثه كما كان يفعل القدماء من مؤرخى العرب : وكما هو الحال فى الآثار التى تمت إلى التاريخ بصلة ، والتى انتهت إلينا من مؤرخى العصور الوسطى من كتاب الإسلام . على أن هذه الصورة الجديدة ، تعود بأصل من جهة . لتغير مفهوم التاريخ فى الغرب . ماشتها من جهة أخرى أسباب فى الشرق الأدنى فجعلتها تأخذ من هذا التغير بطرف . وأهم هذه الأسباب : التحول الحادث فى الشرق الأدنى ، ونقطة التحول يقظة العالم الناطق بالعربية بعد فترة خمسة قرون ذهب يغط فيها نوماً . وكان تحركه نتيجة تفاعل حضارته التى خرج بها من ماضيه والتى تحجرت مع الزمن فى صورة جامدة — مع الحضارة الأوروبية التى كانت تغزو الشرق بقوة . ومن هنا كانت التيارات المتباينة التى أخذت تجتاح جو الشرق الأدنى . والتى كانت تسمح بإقامة بيئات ثقافية مختلفة ، وهكذا كان هذا العصر فى تاريخ الشرق الأدنى فترة من الزمن تسمح للعقريات أن تظهر ، وللأذهان الألمعية أن تبدو وقد أخذ الصدا الذى تراكم على أهل المشرق ينجلي تحت تأثير مدنية الغرب الجارفة .

وكان يقابل أسباب الانتفاض الخارجية ، أسباب ماشتها من الداخل ، قامت على أساس إحياء تراث الماضى وبعثه للحياة بقوة من جديد . فحدث أن

حمل الفكر العربي الحديث صوراً من الماضي ، ولكن معروضة في قالب جديد يتكافأ والحياة الثقافية التي أخذ بها المحيط الشرقي . غير أن هذا القالب كان شكلياً في العلوم ، لأن العقلية التي خلص بها رجال الشرق الأدنى من أسباب محيطهم الشرقي أيام طفولتهم كانت تفعل فعلها فيهم ، ولم تكن لتجعل أذهانهم لتستقيم لها أسباب عقليتها من الذهنية الغربية الحديثة .

ولما كانت الذهنية العربية الخالصة غير تاريخية في تجليها الزمني من حيث تأخذ الأشياء جنباً إلى جنب دون أن تعنى بالتفاصيل ، ودون أن تعمل للنفوذ إلى ما وراء أشكال الأشياء لترى رابطة الاتصال الداخلي بينها ، وحدّ التطور الزمني فيها . فإن غزو الأساليب الغربية للعالم العربي نجحت في أن تغلف الذهنية العربية بطرائقها الشكلية تغليفاً انتهى إلى حدّ أخذ الذهنية العربية الحديثة بالطريقة الوصفية في كتابة التاريخ ، لأنها تمثل مرحلة من مراحل تطور الذهنية التاريخية من الحالة التدوينية للحالة الفلسفية التي هي مقدمة لتناول التاريخ تناولاً علمياً تحليلياً .

١

لا يخرج التاريخ عن حد العرض للماضي ، ماضي الكل الاجتماعي المتدرج في الزمن ، ومنحى العرض هو الذي يقوم التاريخ بتلك الطرائق المختلفة والمذاهب المتباينة ، فالوقوف عند حدّ تدوين حوادث الماضي بعد نقدها وتمحيصها يقف بالتاريخ عند الحالة التدوينية الانتقادية ، كما أن الرجوع بصفحات من الماضي إلى الحياة ، وإبرازها في إطار فني يقفان بالتاريخ عند الحالة الوصفية ، فإذا ما تعارضت بعض التأملات الفلسفية في خيوط الشبكة التاريخية التي تحاك من حوادث تروى ، ووقائع تقصّ ، وأمور تدوّن ، ونجح المؤرخ في أن يقع على البواعث والقواسر والأسباب التي يستطيع بها أن يعلل حوادث التاريخ التي يعرض لها ، بحيث يخرج منها بصورة فيها ألفة واتساق ، مستمداً تعليقاته من طبيعة الحالات في العصر الذي يؤرخ له ، فإن التاريخ يرتقى إلى الحالة الفلسفية . وتلك خطوة أولى ينتهجها المؤرخ لينتهي بها عن طريق من

طرائق التحليل والتحقيق العلمى إلى الحالة العلمية .

والمرحلة التى أخذ بها الشرق العربى فى فهم التاريخ ، مرحلة تنقلية من الحالة التدوينية إلى الحالة الفلسفية ، وهكذا اختلط عند الشرقيين بعض مناحى الطريقة الوصفية ببعض وجهات الطريقة الفلسفية ، فأنت تجد بعض كتب التاريخ الحديثة التى ظهرت بالعربية فى هذا الجليل والجليل الذى انصرم بقيام الحرب الكبرى تعرض لبعض الحوادث والوقائع التى ذهبت طى التاريخ فى صورة تتعارض فى شبكتها المتصلة بعض التدبر فى استقصاء الأسباب وربط النتائج لها . وهكذا خرجت هذه الكتب لا هى آخذة الأسباب بالطريقة التدوينية الصرفة التى تقرر وقائع التاريخ كما هى ، ولا بالطريقة الفلسفية المحضة التى تعلل حوادث التاريخ تعليلاً يستمد مقوماته من طبيعة الحالات القائمة فى العصر الذى يؤرخ له . هذا فضلاً عن أن الطريقة التدوينية الانتقادية لم يعرفها كتاب العربية من حيث تمحيص حوادث الماضى وتنقيدها ، فهذا التمحيص والانتقاد لا يمكن أن يستقيم للمؤرخ إلا بنظرة فلسفية تتغلغل فى صفحات الماضى وتستمد من طبيعة الحالات القائمة فى الماضى صورة تقيمها فى ذهنها بمحصى على أساسها المؤرخ ما يعرض له من حوادث العصر ووقائعه تلك التى روتها الكتب الإخبارية والحوليات الزمانية .

على أنه بجانب هذه الحالات المتخالطة فى فهم التاريخ عند الشرقيين ، فامت الحالة الوصفية فى صورة مستكملة أسبابها ، ذلك أنها غير محتاجة لصدق الحدس Intuition التاريخى وقوة المنطق التاريخى ، لأنها تتقوم بأصول أدبية ومبادئ فنية صرفة . وقد نجح بعض كتاب العربية — نذكر منهم طه حسين فى كتابه « على هامش السيرة » ومعروف الأرنؤوط فى كتابه عن « سيد قریش » فى أن يبرزوا فى إطار فى بعض صفحات الماضى ، ذلك أن الطريقة الوصفية فى التاريخ تعود إلى أصل أن المؤرخ مصور تخط ريشته لأهل زمانه الصور التى تنعكس من مرآة نفسه من مراجعة لحوادث الأزمان الغابرة ، تلك الأزمان التى لم نعرف من حقائقها ، إلا بقدر ، يتسق مع ما تركت من أثر فى نفوس المؤرخين

لها . فالمؤرخ الوصفى - كما يقول البحاثة مظهر - يستمد من خيالات غيره ومن انفعالات غيره ومشاعر غيره ليستخرج صورة جديدة تستحيل إليها نفسه ويكون خطأها أو صوابها راجعاً إلى خطأ نظر الذين صوروا ذلك العصر أو صحته . من هنا فقط يمكننا أن نفهم حقيقة الاتجاه الوصفى فى كتابة التاريخ ، ذلك الاتجاه الذى أخذ به الأستاذان « سبنسر » و « سيلى » ودافعا عنه . ذلك أن التاريخ فى نظر هذا المنحى فى تناول التاريخ لا يخرج عن كونه - كما يقول الاورد ما كولى - « صفحات من الزمن تتعاقب عليها صور الجماعات البشرية بكل وقائعها وحوادثها وانفعالاتها ، وهى من هنا لا تخرج عن كونها كالمنظر الذى تراه فى صفحة السماء يوماً ، يستحيل عليك أن تراه بذاته يوماً آخر بما فيه من اختلاف الصور والألوان والأشكال . ومن هنا يصبح أهل الشهادة لحوادث التاريخ كأهل الشهادة لمناظر الطبيعة ، إن رأوها وتناولوها بوصف وأخذت عنهم ذلك الوصف أو تلقيت عنهم تلك الصورة لتقيس عليها أو لتستنتج منها أو لتقارنها بغيرها من الصور التى تقع تحت الحس ، فإنما أنت تنظر بنظر غير نظرك ، وتنعكس على مرآة نفسك صور وانفعالات وبواعث وعواطف ومشاعر قد تشعر بما يناقضها لو نظرت إليها بعين نفسك وتحت تأثير مشاعرك وعواطفك وانفعالاتك الخاصة » .

على ضوء هذا الكلام - الذى يقرره الأستاذ ما كولى ويلخصه عنه البحاثة مظهر - نرى أن كاتب التاريخ من الناحية الوصفية يحاول أن يتغلغل قبل كل شىء فى روح العصر الذى يؤرخ له ، ويتعمق فى درس حوادثها تعمقاً فنياً حتى يتسنى له أن يخلق فى ذهنه جواً قريباً من الجو الذى كان عليه العصر الذى يؤرخ له ، ثم يندمج الكاتب فى هذا الجو الذى خلقه بعد أن يستوعب كل ما يستطيع استيعابه من حالات العصر الذى يسبق الفترة التى يؤرخها وحالات العصر التى أعقبت طى ذلك فى أكفان الزمان ، ليخلص من جماع ذلك بصورة أقرب إلى الفن التصويرى منها إلى الدرس التحليلى والنظر التأملى الذى هو قرارة المنحى الفلسفى فى كتابة التاريخ .

على أن قيمة مثل هذا الاتجاه في كتابة التاريخ فنية محضة تقوم على أساس تنبيه العواطف والانفعالات البشرية ، ذلك باعتبار أن الإنسان يعيش في حاضره محفوفاً بذكرىات الماضي والأمس ، من حيث كون الحاضر مجموع الماضي الذي أسلم نفسه لهنية لها صورتها الشكلية المستجدة ، ولهذا كانت روح الإنسان — عادة — محلقة في أجواء الماضي ، تستعيد صورتها بذكرياتها الحلوة والمرّة ، واجدة في ذلك العزاء عما في الحاضر ، منقبة عما في نفسها من المشاعر المكبوتة . وهذا يفسر لنا نجاح هذه الطريقة في كتابة التاريخ لا عند الشرقيين فحسب ولكن عند الغربيين أيضاً ، ولهذا تجد بعض فناني الغرب يعرضون لبعض صفحات الماضي ، يبرزونها بصورة أدبية ترضى ناحية الفن أكثر مما ترضى ناحية البحث الانتقادي والتحليل العلمي والتأمل الفلسفي . وهذا لا يمنع أن يتعارض في خيوط الشبكة التاريخية التي يكون المؤرخ الفنان قد تناولها ، بعض البحث الانتقادي وبعض التحليل العلمي وبعض التأمل الفلسفي ، ولكن في العموم لا تجد عناية مباشرة بهذه المسائل ولا عناية بتفاصيل العصر الذي يكون قد عرض له المؤرخ الفنان ، لكونه يأخذ من العصر صورته الحية ويلج بك بواسطة اللمسات التصويرية المحكمة التي لا تكاد ترى بالعين إلى التفاصيل التي يهبها في ذهنك عن طريق الإيحاء الذي تبعثه في نفسك استجابتك لعوامل الحياة التي تضطرب في تضاعيف العصر وأجواء ذلك الزمان .

على أن هذه الطريقة الوصفية إذا اتصلت من الماضي بشخص ، انقابت إلى فن التراجم ، وهذا الفن لا يفرق في شيء عن الطريقة الوصفية إلا في أنها أنحص منها من حيث تدور في الترجمة عن بطل أو إنسان مبرز في التاريخ ، عائدة به إلى الحياة التي كان يحياها ، مشعرة الإنسان بهذه الحياة ، وعلى قدر نجاح المترجم تكون مقدورته على الترجمة واستيعابه لفن الوصف التاريخي .

من بين الكتب التي تعرض للتاريخ من الناحية الوصفية كتاب « سيف الدولة وعصر الحمدانيين » لصديقنا الأديب السوري الكبير الأستاذ سامي الكيالي . وهو كتاب يترجم لسيف الدولة ويؤرخ لعصر الحمدانيين . وقيمته ترجع لما يخلقه في ذهن القارئ من الجوّ الذي يشعر فيه بأنه آخذ بطرف من عصر الحمدانيين وعلى مشهد من سيف الدولة فيختلج من الإحساسات والمشاعر ما كان يخلج في ذلك العصر لما يدور بسيف الدولة من وقائع ترفعه وحوادث تهبط به ، وسيف الدولة بعد ذلك جلد على الزمان لا يتأثر بصدماته إلا بقدر ، حتى يعاود بقوة شخصيته الجهاد مهيناً الأسباب للارتفاع .

وسيف الدولة مؤسس الدولة الحمدانية أحد أبطال التاريخ ، صاحب شخصية حافلة بالحياة والنشاط ، وذو نواح متعددة تراقص على جنباتها المغامرة والشعر والسيف والقلم والبطولة والأدب ، فهو ؛ من هنا ، من الشخصيات التي تثير الإعجاب وتسترعى النظر ، مرّ بتاريخ العرب في فترة كانت الفوضى تقتلها فنجاح في أن يلجم الفوضى وأخرج منها نظاماً وخلق من ضعف العرب قوة ، وصمد لقوات الروم وقاد جموع العرب لمحاربة البيزناس يندود عن دولته التي أقامها بحمد سيفه ، وهو في هذا كله يندود عن العرب والإسلام .

وقد عاش في زمنه شاعر العرب أبو الطيب المتنبي وكان على صلوات قوية به ، وكانت هذه الصلوات تلبس حسب الظروف لبوسها ، على أنها في العموم كانت قوية تجليها للنظر ما قاله المتنبي من الشعر في سيف الدولة ، وهو يشكل أهم جانب من شعر شاعر العرب الفذ . ولقد غطت شخصية المتنبي بعقريتها الفذة شخصية سيف الدولة ، حتى ذاع في الناس أن سيف الدولة خلّد على الزمن بما قاله فيه أبو الطيب من الشعر الخالد . وكان أن انتبه جمهور أدباء العربية وكتابها إلى أن واجب الوفاء نحو تاريخهم أن يحتفلوا بأعلامه ، فكانت

من هنا فكرة الذكري الألفية لشاعر العربية الفذ المتنبي ، فكتب الدكتور طه حسين كتابه الأدبي القيم عن المتنبي ، ووضع الأستاذ محمد محمود شاكر بحثه النفيس عن المتنبي ، ودرس المستشرقون حياة أبي الطيب من مناهجهم ، وتلفت الأستاذ سامي الكيالي فرأى أن حياة المتنبي قد درست من جميع نواحيها ، ولم يترك الباحثون فيها له مجالاً للبحث ، والرجل طموح يريد أن يستحدث ضرباً جديداً في دراسته للمتنبي فرجع بباصرته للوراء واتخذ من صلوات المتنبي بسيف الدولة تكأة يقيم منها أساس بحثه ، ولكن هذه الصلوات يمكن أن تدرس من ناحية المتنبي ، ومثل هذا الدرس أدخل في حياة المتنبي منها في حياة سيف الدولة هذا ، والأستاذ شاكر قد طرق هذا الموضوع البكر ببحث نفيس. إذن، فليمل إلى الناحية الأخرى ، ناحية سيف الدولة ، ويفكر في أن يدرس شخصه ويستقصي أخبار عصره ، ويضع بحثاً عنه يرجعه به إلى الحياة بعد ألف سنة . وهنا يصطدم بالفكرة الداعية عن أن المتنبي هو الذي خلد سيف الدولة بما قاله فيه من الشعر الرائع ولكن حياة البطل العربي كما انكشفت له تجعله متردداً في الجزم بهذه الفكرة : وهنا يقف موقف الحيرة يتساءل :

أترى المتنبي مديناً بشهرته إلى سيف الدولة أم أن الأمر بالعكس ؟ أم كلاهما عصاميان قد ربطت بين قلوبهما العظمة فتلاقيا على ضفاف العاصي ، وما إن تقدم الشاعر إلى الأمير بقصيدة من قصائده الغر حتى تعارفا وظلا في صحبة بعضهما هذه الفترة من الزمن حتى فرق الدهر بينهما أو قل نفث الحساد سمومهم في شعبات قلوبهما فترك الشاعر أميره ؟

يقف الأستاذ سامي موقفاً وسطاً في هذا الموضوع : فالأمير الحمداني عنده هو الذي ألهم شاعرية المتنبي بغزواته وحروبه وعطاياه وهباته ، وهو بهذا يمهّد السبيل للذئوع اسم المتنبي وخلود ذكره بهذا العطف الذي حباه به وبتفضيله على غيره من الشعراء ، وهذا الذي جعله يرسل الكلم المطرب وتتفجر الحكمة ريانة من جوانب قلبه وطوايا نفسه .

غير أن هذا الموقف يميل به بعض الميل إلى جانب سيف الدولة ، وهو في

هذا مدفوع بفكرته أن يتناول حياة سيف الدولة ببحث ، وما دام سيف الدولة موضوع البحث وركنه ، فالشاعر العربي القذيم في إطار من حياة الأمير الحمداني يستمد منها لعبقريته وسائل الظهور ، وهذا الميل يظهر في كلام الأستاذ الكيالي حين يقول :

« لقد نشأ على هامش الدول الإسلامية أمراء كثيرون ، واتصل بهم شعراء كبار نفحوهم بشعر قوى وبعاطفة رزينة . فما كانت تلك القصائد لترفع بأولئك الأمراء إلى المكانة السامية التي تربح عاينها سيف الدولة في صدر التاريخ . . . ومردّ هذا على ما أعتقد ، عظمة سيف الدولة ، والشاعر مهما عمدا إلى المبالغة في رسم صفات ممدوحه فهو لا يستطيع أن ينأى عن الحقيقة . . وفي حياة سيف الدولة حقيقتان بالغتان : مغامراته الفذة كأمر خاض مثات المعارك الدامية في حروبه مع الروم ، ونفسه الكبيرة التي تراقصت على أشعة ضوءها مثات السجايا النبيلة التي حار الشعراء في رسم صورها ووصف ألوانها ، هاتان الحقيقتان هما اللتان أيقظتا مثات المعاني الجديدة في نفس المتنبي . . . وإذن ، فلسنا نبتعد عن الواقع إذا هزنا هذا الاتجاه الذي يردده بعض مؤرخي الأدب بأن المتنبي هو الذي خلّد سيف الدولة وأنه لولا المتنبي لكان الأمير الحمداني نسياً منسياً ! فسيف الدولة لم يشتر قصائد شعرائه بالمال ، بل كانت أعطياته صدى حقيقياً لتذوقه الأدب وإكرامه لرجال الأدب لأن من يحاول أن يبتاع ضمير الشعراء بماله يكون في حاجة إلى المجد والعظمة ؛ أما سيف الدولة فكانت العظمة والمجد بعض نثار برديته ، لهذا نحب أن ننصف سيف الدولة من ظالميه دون أن نغبط الشاعر المتنبي — مالى الدنيا وشاغل الناس — ، ولا غضاضة إذا قلنا إن المتنبي كان مديناً — إلى حد ما — بشهرته إلى سيف الدولة بن حمدان . »

على أن هذا الميل لا يكاد يستبان ، وإذاً يمكننا أن نقول إن الأستاذ سامي الكيالي كان موفقاً كل التوفيق في الموقف الذي اتخذته ، وهو موقف يشهد له بصحة النظر ونفوذ البصر والاقتراب من الواقع .

وهكذا اتخذ الباحث لنفسه طريق بحثه ، مستنزلاً الموضوع في شيء من

الدقة والواقع ؛ مستمدًا هذه الألفة والاتساق اللذين كشف عنهما بمحس صحيح من طبيعة العصر الذي عاش فيه الأمير الحمداني وشاعر العرب .

٣

استقامت الفكرة إذن - في ذهن الكاتب - فحاول أن يخلعها حية في البحث الذي يكتبه عن الأمير الحمداني . فكتب طرفاً من طفولة الرجل وصباه ، ثم عاد يمهّد لها بإلمامة عند الحمدانيين والأحوال التي كانوا عليها ليبيّن طبيعة الموقف الذي واجهه سيف الدولة حين خرج للحياة من صلب الحمدانيين يضع أساساً للدولة الحمدانية التي قامت في التاريخ في أرض الشهباء . ولكن هل يصح أن يطلق على النظام الذي أقامه سيف الدولة ، والبقاء التي دانت له اصطلاح الدولة ؟ وهل يجوز أن يقال عن الأراضى التي دانت لآله في الجزيرة ، إنها دولة ؟

يقرر المؤلف جواز هذا الأمر بعد تحقيق جليل ، ومن هنا يتحدث عن الدولة الحمدانية ، وينتهى منها بمحاولة سيف الدولة أن يقيم أسس دولته الجديدة في أرض بكر بعيدة عن آله ، وعن لوثات الأعاجم ودسائس المتغلبين . لقد هداه ضميره إلى أرض الشهباء . وهنا فصل تعارضت في شبكة حوادثه بعض الصور الفنية والتأملات الفلسفية .

وهو في هذه الفصول يأخذ بيد سيف الدولة ، هذا الأمير الحمداني - من ربوع آله في الجزيرة ، متنقلاً معه حتى ينتهى به إلى دخوله حلب ، متزعراً إياها من حكم الإخشيديين بحكام مصر وولاتها . وهو يعرض لك الحوادث التي مرت بالأمير الحمداني في حلب حتى وطد سلطته فيها . وإذا بك بمعرض من فتوحات سيف الدولة وحروبه ، وهو يصور الأمير الحمداني في شجاعته وقسوته ، ودهائه ورقته وحزمه تصويراً حياً ، وهو يظهر شخص الأمير سيف الدولة في حافل مناحيها والدوافع التي كانت تضطرب في طوايا نفسه فتميل به إلى الحركة ،

(٢)

والأهداف التي يرى إليها ، حتى إذا انتهى من قصة حياة الأمير العربي التي تتقارب بين رفعة وذل وعلو وهبوط ، أراك أواخر أيام الرجل وقد انتهت بمأساة ، مثله في ذلك مثل أبطال التاريخ التي تنتهي حياتهم في فاجعة أو في صورة أشبه بالمأساة ، حيث تتحطم بهم آمالهم أو تخونهم أهدافهم ، مثل الإسكندر الذي يموت في روعة الشباب في بابل ، أو قيصر الذي يقتل في روما ، أو نابليون الذي يقذف به في جزيرة « سنت هيلانة » أو يبقى وقد صدم في آماله ، وهجره أصدقاؤه وتقطعت بينه وبين أنصاره الأسباب ، تحفه الخواطر المزعجة والأفكار المرعبة حتى يدانيه أجله مثل سيف الدولة .

وقد مضى الباحث في بحثه لا يبتعد عن المصادر التاريخية إلا بقدر يسترسل فيه مع التخيل لاستكمال الصورة التي يرسمها ، أو التصوير الذي يخطه ، وهو في هذا الاسترسال في التخيل لا يذهب في عوالم من الإيهام ، ولا يخلق في سماوات الخيال ، وإنما يبدو قريباً من الواقع من حيث يملأ به الثغرات التي تركها مؤرخو ذلك العصر في حياة الأمير الحمداني .

وفي ذيل تاريخ حياة الأمير الحمداني لحق يتناول صلاتهم مع آل بويه في فصل وكلام عن صلات المتنبي بسيف الدولة في فصل آخر ، ثم فصول أخرى سريعة عن بعض الشخصيات التي مرت في إطار حياة الأمير الحمداني فقومت تاريخه ، وكان على جذب ودفع مع شخصه . وموقف الأستاذ الكيالي من مختلف هؤلاء موقف الحيدة ، وإن كان هنالك بعض الميل نحو الأمير سيف الدولة ، غير أن هذا الميل لا يكاد يستشفه البصر من كتاباته إلا بصعوبة .

* * *

تستشف ، وأنت بمعرض من حياة الأمير الحمداني كما أجلاه الكاتب المحقق الأستاذ سامي الكيالي ، تداخل قوة شخصية سيف الدولة والظروف التي أحاطت به في حياته وفي تلوين حياته بهذا اللون الذي غمس الكاتب فيه ريشته ثم لعب بها على الصفحات التي تتجمع بين دفتيها سيرته ، فإذا بقصة حياته تبدو في نبضاتها وخلجاتها وما لازمها من التوفيق والنجاح وما أصابها من الفشل والسقوط

كل هذا ، وأنت إزاء الدراسة التي وضعها الأستاذ الكيالي هذه الدراسة التي اشتملت على أسباب تتسق مع الطبيعة التي ركب عليها الأمير الحمداني فأوصلته إلى ما وصل إليه . وهو في هذا شبيه بعصبة المغامرين أمثال نابليون وموسوليني وهتلر .

غير أن شخصية الأمير الحمداني كما جلاها الكاتب في الدراسة التي وضعها شخصية مغامرة ، قل ما تشاء عن ذكائها وشجاعتها ودهائها ، وانطباع ذهنيها على الحيلة والحيلة والتدبير وحسن البلاء في الملمات والاقتدار في الساعات العصيبة ، غير أن روح المغامرة من جانب تجعلها تجازف مستسلمة للقدر ، وهكذا اختلطت شخصية الحيلة مع المجازفة والتدبير والاستسلام للقدر ، فكان من ذلك مزيج ، هو الذي يكون تاريخ حياة الأمير الحمداني ويقوم من جهة شخصيته .

على أن المزيج والحليط من المعلوم والمجهول ليس بالشيء الذي ينفرد به سيف الدولة . إنما هو خاصة من خصائص المغامرين ، الذين يحركون التاريخ من حيث تحركهم وقائعه ، ويخلقون حوادثه من حيث يمضون في الطريق إلى أهدافهم . ولم يكن الأمير الحمداني غير واحد من هؤلاء . يرتفع ويهبط ، وهو جلد على الزمان لا يتأثر بهبوطها إلا بقدر ، ليعاود بقوة شخصيته الجهاد ، مهيباً الأسباب للارتفاع ، مقتنصاً المقومات ليبلغ هدفه ، وهو بعد ذلك كله ذلك الإنسان الذي يخونه التقدير — مهما أحكمه — ذلك من حيث يتعامل مع المجهول فيستسلم للغيب وما يمكن أن يكون مخبئاً في طياته ، وإذا به بعد رفعة يهبط ويذهب طي التاريخ بعد أن ترك في صفحته سيرة منشورة ، تتعارض في خيوطها آمال تحطمت ، وعظمة بدت ثم اختفت ، وبطولة لمعت حيناً ثم سرعان ما خبت .

٤

هنالك بعض الانقسام في شخصية الأمير الحمداني سيف الدولة .
 وشخصيته في الواقع كما نراها منحلة في شخصيتين متباينتين كل التباين :
 الشخصية الأولى شخص الذكر Animus والشخصية الثانية شخص الأنثى Anima ،
 وهذا الانحلال في شخصية الرجل سبب من أسباب عظمته التي خلده على
 الزمن بين أبطال العرب ، ويمكن للباحث أن يلمس هذا الانقسام في الشخصية
 عند الأمير الحمداني في حبه اقتناص الفرص ، وتصرفه في الأحوال ، وامتلاكه
 الظروف وتوجيهها من جهة واستسلامه من جهة أخرى للغيب وللقدر . على أن هذا
 الانقسام الملحوظ في شخص سيف الدولة ، ملحوظ أيضاً في أشخاص جميع
 المغامرين من الأحياء الذين ذهبوا طي الزمن . على أنه من المهم أن نلاحظ أن
 روح الرجل Animus من شخص الأمير الحمداني كان يتقوم بها جهاده وجلاده
 وروحه الحربية كما كانت تتقوم بروح المرأة Anima من شخصه روحه الشاعرة
 وطبيعته الفنية ، والشخصية الأولى شخصية الرجل تبدو لك قوية من سيرة الأمير
 الحمداني بينما شخصية الأنثى تبدو ضعيفة بجانبها ، على أن هذا الضعف يعود
 بأصل إلى تغلب شخص الذكر في روحه على شخص الأنثى .

أما شخصية الأمير الحمداني سيف الدولة كما أجلاها الكاتب المحقق الأسناذ
 سامي الكيالي فأهم شيء فيها توكيده ظهور جانب الشخصية على جانب الظروف
 والأحوال . على أن هذا التوكيد منه يحتاج لإبراز شخصية متعاملة مع الظروف في
 صورة تخلق الحوادث وتوجد الوقائع : ذلك أن شخصية الأمير الحمداني ، عن
 طريق التعامل مع الشخصيات الأخرى ، مدفوعة إلى ذلك بطبيعته التي ركبت
 عليها ، تخلق مجرى السيرة التي تركها في مجرى التاريخ . على أن الكاتب يعضى في
 كتابه مغلباً طريقة العرض ، وهذه تتسق مع منطق الحوادث لا منطق الشخصيات ،
 ومن هنا كان عيب ملحوظ بين توكيد المؤلف لظهور جانب الشخصية في كتابه

وإظهاره الشخص في معرض من حركة الحوادث .

على هذا يمكننا أن نتكلم عن منحى إبداع الكاتب في السيرة التي كتبها عن الأمير الحمداًني . في أنها تتقوم بفن الحوادث ، تسودها طريقة العرض فتشابه الحوادث والوقائع في صفحة تتعارض في شبكتها الشخصية التي تقص سيرتها . وهذه الطريقة لا تلتقي ظلاً كبيراً على الشخصية التي تقص سيرتها ولا تقيم لها إطاراً ولا تتقوم بالتصوير الذي يجعلك ترى العصر والرجل بمشهد من نفسك وبمراى من بصرك .

على أن هذا المنحى في الإبداع يلون الكتاب بلون خاص من حيث يتسق مع طريقة التفتن في العرض ومنحاه . ذلك أن فن الحوادث يتطلب حركة عالية كثيرة الأصوات ، ظاهرة النبرات ، واضحة الحلجات ، وهذا ما تلمسه في الكتاب خصوصاً في وصف الكاتب حيث يحمل الأسلوب حركة ، ويعطى اللوحة سعة ، ويعمل على التناسب في الخطوط والألوان .

غير أن الحركة في الأسلوب ، والسعة في التصوير تحتاجان أن تكون الخطوط والألوان قوية رغم تناسبها ، ظاهرة رغم اتساقها ، وتكاد تكون هذه من أخص ما يميز أسلوب الأستاذ الكيالي في دراسته هذه ، وفي كتابه « شهر في أوربا » الذي أصدره في أعوام خلت .

هذه الحركة في الأسلوب ، والسعة في اللوحة ، والقوة في الألوان ، والظهور في الخطوط تذهب مع العاطفة المتقدة والمشاعر الفائرة ، فتعطي الكتاب طابعاً « رومانسياً » من جهة الشكل . والواقع ، أن الأستاذ الكيالي يتناول في دراسته هذه شخص الأمير الحمداًني بحرارة ، وهذه الحرارة يسلطها على عصر الرجل وحياته فينبض بالحياة التي تغمرك وتجعلك تعيش فيها برهة من الزمان .

* * *

أسلوب الكتاب تنقصه الدقة التعبيرية وشيء من صقل الألفاظ ، والواقع ، أن هذا النقص يغطي عليه ما يتوهج في الكتاب من عواطف ومشاعر ؛ والحقيقة أن المؤلف يشترك في هذا الوضع التعبيري مع كل كتاب سوريا ولبنان على وجه

عام ، ذلك أن الحيوية التي يمتازون بها ؛ والنشاط والحركة التي تتقوم بها أرواحهم لا ترك لهم مجالاً للتأني في اختيار الشكل الذي يصوغون فيه المعنى والفكرة ، أو فرصة لصقل العبارة ؛ وهم في ذلك على تقيض إخوانهم من كتاب مصر الذين تساعدهم طبيعتهم الساكنة وروحهم التي لها طابع الاستقرار ، أن يصقلوا عباراتهم ويصوغوا في عقولهم من المعاني أو الفكر في أشكال تمتاز بدقتها التعبيرية وطابعها المصقول ، فإن كان في جهة مصر دقة التعبير وصقل العبارة ففي سوريا ولبنان توهج الشعور ، وغلبة العاطفة ، وبروز الروح ، وحركة الأسلوب ، وسعة اللوحة ، وظهور الألوان ، ووضوح الخطوط . وما كان بمستطاع الأستاذ الكيالي إلا أن يكون من جانب سوريا ولبنان نزولا على حكم مولده وأصله ومنشئه وثقافته .

خاتمة

أما وقد انتهينا من المقدمة إلى هذا الحد ؛ فلي أن أختتمها بكلمة عن صديقنا صاحب الدراسة .

الواقع أن الكاتب المدقق الأستاذ سامي الكيالي كاتب نابِه على جانب كبير من النشاط . نجح في أن يجعل حلب – عاصمة الحمدانيين على عهد سيف الدولة – مركز نشاط أدبي قوى ملحوظ من كل العالم العربي ، ومدار هذا النشاط كان ولا يزال مجلته الراقية « الحديث » التي خطت لليوم ثلاثة عشر عاماً (١) ، ولا شك أن هذا حدث عظيم في تاريخ هذه المدينة التي غرق حاضرها في بلحة ماضيها والتي لم تكن أي نشاط أدبي ملحوظ في الأزمنة الأخيرة .

لقد كانت الروح الاقتصادية والنشاط التجاري تطفيان على كل شيء ، من حيث كانت تتمثل فيها روح المدينة . على أن هذا النشاط التجاري من حيث افتقد مقوماته الخارجية نتيجة للأوضاع السياسية التي قامت بعد الحرب العظمى في الرقعة التي تمتد من صحراء بلاد العرب حتى آسيا الصغرى – قد تحول هذا النشاط ببعض أبنائها إلى الجانب الثقافي ، فكان أن أصبحت حلب في السنين الأخيرة مركز نشاط أدبي وحملت مشعل الثقافة في سوريا الشمالية . على أن ما شهدته مدينة حلب من ألوان النشاط الأدبي كان محوره الأستاذ سامي الكيالي الذي افتتح حياته الأدبية عقب الحرب العظمى بمقالات كان يرسلها على صفحات كبرى المجلات الأدبية المصرية . ولقد جمع منها باكورة آثاره في كتاب « نظرات في الأدب والاجتماع » ، ثم كان أن أصدر عام ١٩٣٥ كتابه « شهر في أوربا » وهو عرض سريع لما تراءى له في رحلته القصيرة الحافلة بمختلف الصور في بلاد الغرب ، وفي هذا الكتاب يبدو فن الأستاذ سامي الذي يتميز بالحركة في الأسلوب ، والسعة في اللوحة ، والزخور في الصور الفنية ، والإطلاق للمشاعر المترعة من الوجدان تفيض بالحياة والحرارة . وإذا نحن نظرنا إلى كتابه « سيف

(١) كتبت هذه المقدمة سنة ١٩٣٩ وقد واصلت المجلة رسالتها الأدبية ، وهي اليوم في عامها الثالث والثلاثين .

الدولة وعصر الحمدانيين» وجدنا الأستاذ سامى الكيالى يكشف عن ناحية قوية من نواحي نشاطه .

وإذا كنت الآن أخلت بين القارئ وكتاب الأستاذ سامى الكيالى فإننى أشعر بأن القارئ سينعم فترة من الزمن فى هذا الجو الفنى الذى خلقه المؤلف فى كتابه . وإنى أشكر لصديقى هذه الفرصة التى مهد لى فيها أن أعيش فى كتابه، آملاً أن يجد القراء ما وجدته فى الكتاب من متعة ولذة .

إسماعيل أحمد أدهم

توطئة

أترى المتنبي مديناً بشهرته إلى سيف الدولة أم أن الأمر بالعكس ؟ ..
 أم أن كليهما عصامي قد ربطت بين قليهما العظمة فتلاقيا على ضفاف
 العاصي وما إن تقدم الشاعر إلى الأمير بقصيدة من قصائده الغر حتى
 تعارفا وظلا في صحبة بعضهما عشر سنوات كاملة إلى أن فرق الدهر بينهما أو قل
 نفث الحساد سمومهم في شعبات قليهما فترك الشاعر أميره وقلبه يردد هذه
 الحرفات :

أزل حسد الحساد عني بكتبهم	فأنت الذي صبرتهم لي حسداً
إذا شد زندي حسن رأيك فيهم	ضربت بسيف يقطع الهام مغمداً
وما أنا إلا سمهري حملته	فزيّن معروضاً وراع مسداً
وما الدهر إلا من رواة قصائدي	إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً ^(١)

يذهب البعض إلى أن المتنبي هو الذي خلّد سيف الدولة بقصائده
 التي قد تزيد على ثلث ديوانه ! .. وأنه لولا المتنبي لما دوى اسم سيف الدولة هذا
 الدوى القوي الذي يغيب في طواياه الكثير من ذكرى أمراء الإسلام .. وقد
 يكون في هذا بعض الحق .. أما نحن فلسنا من هذا الرأي .. نحن نذهب إلى
 أن الأمير الحمداني هو الذي ألهم شاعرية المتنبي بغزواته وحروبه ، وبعطاياه
 وهباته ، وهو الذي ساعد على ذبوع اسمه وخلود ذكره بهذا العطف الذي حباه
 به ، وبتفضيله على غيره من الشعراء فأبدع وأطرب وتفجرت الحكمة ريانة من

(١) لم تكن هذه الأبيات هي آخر ما قاله قبل مغادرته حلب ، ولكننا اخترناها لأنها تصور
 منازع نفسه أصدق تصوير ، ويتفق المؤرخون على أن آخر ما أنشده من الشعر الميمية التي يقول
 في أولها :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في إقدامك القسم

جوانب قلبه وطيات نفسه ! . . ثم أليس في اصطفاء سيف الدولة للمتنبي الشاعر الذي قدمه إليه وإلى أنطاكية أبو العشائر الحمداني ما ينم على ما كان يتقد به قلب أمير حلب من حب صميم عميق للأدب الزاخر بروائع الحكمة ، ومن إجلال خالص لشاعر عبقرى عرف كيف يذيع اسم أميره عالياً ويرتفع به إلى السماكين ! . .

لقد نشأ على هامش الدول الإسلامية أمراء كثيرون ، واتصل بهم شعراء كبار نفحهم بشعر قوى وبعاطفة رزينة فما كانت تلك القصائد لترفع بأولئك الأمراء إلى المكانة السامقة التي يترجع عليها الأمير سيف الدولة في صدر التاريخ. ومردّ هذا ، على ما أعتقد ، إلى عظمة سيف الدولة . والشاعر مهما عمداً إلى المبالغة في رسم صفات ممدوحه فهو لا يستطيع أن ينأى عن الحقيقة . . وفي حياة سيف الدولة حقيقتان بالغتتان : مغامراته الفذة كأمر خاض مئآت المعارك الدامية في حروبه مع الروم ، ونفسه الكبيرة التي تراقصت على أشعة ضوءها مئآت السجايا النبيلة التي حار الشعراء في رسم صورها ووصف ألوانها . هاتان الحقيقتان هما اللتان أيقظتا مئآت المعاني الجديدة في نفس المتنبي . . وإذن ، فلسنا نبتعد عن الواقع إذا هزنا هذا الاتجاه الذي يردده بعض مؤرخي الأدب بأن المتنبي هو الذي خلد سيف الدولة وأنه لولا المتنبي لكان — الأمير الحمداني — نسياً منسياً ! . ، فسيف الدولة لم يشتر قصائد شعرائه بالمال ؛ بل كانت أعطياته صدى حقيقياً لتذوقه الأدب وإكرامه لرجال الأدب. لأن من يحاول أن يبتاع ضمير الشعراء بماله يكون في حاجة إلى المجد والعظمة ، أما سيف الدولة فكانت العظمة والمجد بعض نثار بردتيه ، لهذا ، نحب أن ننصف سيف الدولة من ظالميه دون أن نغمر الشاعر المتنبي — مالى الدنيا وشاغل الناس — ولا غضاضة إذا قلنا إن المتنبي كان مديناً — إلى حد ما — بشهرته إلى سيف الدولة بن حمدان ، هذا الأمير العربي الذي لم تكن فروسيته وغزواته وحبه العميق للأدب موضع إعجاب المؤرخين العرب فحسب بل هزت مناقبه وعبقريته المغامرة في الحب والحرب مشاعر مؤرخي الإفرنج ، فخصوه بالكثير من بحوثهم ودراساتهم مما جعله في

طليعة الأمراء الذين تحاك حول أسمائهم هالة مضيئة من المجد . .

يقول غوستاف سيشلمبرجر : « شغل سيف الدولة أذهان المؤرخين والكتاب والشعراء في القرن العاشر فما إن تقرأ صفحة لمؤرخ بزنطى ، أو قطعة لكاتب من كتاب ذلك العصر ، أو قصيدة من قصائد شاعر من شعراء العرب أو اليونان حتى يستهويك الوصف والحديث عن هذا العدو الجذاب الذى حارب الإمبراطورية البيزنطية بفرسان كان نصفهم من شعراء البوادرى وكان نصفهم الآخر من أمراء الحواضر . . »

ويقول الكاتب فى موضع آخر :

« لقد أقسم مؤرخ بزنطى زارحلب فى عصر سيف الدولة أن قصور الخلفاء فى بغداد وقصور ملوك الروم فى القسطنطينية كانت أقل بهاء من قصور سيف الدولة . وقال هذا المؤرخ إن الفنون على تباين أنواعها كانت مضطهدة فى عاصمة المسيحية . ولكنها كانت تنعم بتسامح كبير فى عاصمة الدولة الحمدانية . . وقد كان المصورون والمثالون من الروم يخرجون من ديارهم على كره منهم لأن قيصر قد أرادهم على هذا التشريد . . فكانت حلب تستقبل جميع هؤلاء ، وكان سيف الدولة يكرمهم ثم يستفيد منهم ويمتحن عبقرياتهم ثم يستغلها استغلالاً حسناً ويقبس من تحاسينها وتزاويقها ما يزيد فى تحاسين حضارة بلاده . . »

وقد يكون من الغضاظة بمكان الازدراء بمفاخرنا القومية وإهمال دراسة هذا الأمير العربى الفذ وله من خصومه هذه المكانة التى يحسده عليها أكابر المغامرين ليس فى العصور القديمة بل حتى فى هذا العصر . .

فى الواقع ، أن سيف الدولة يختلف عن غيره من أمراء الإسلام بل يمتاز عنهم بمفاخر كثيرة : بفروسيته ، بتذوقه الرفيع للأدب ، بروحه الكبيرة التى كانت تحلم بالسيطرة وتأسيس مملكة عربية مترامية الأطراف ، بإيقاده نيران الفتح فى صدور فتیان العرب ، بغزواته وحروبه التى صددت عاديات الروم عن بلاد الشام وأطراف العراق غير مرة ، وبمغامراته وحبه ، وبكرمه وعطاياه التى كان ينفق بها جيوب الشعراء فيهرز قرائحهم هزاً مشمراً ، ثم بهذه المجالس الأدبية التى

كان يرؤسها ؛ وبأشياء كثيرة نحب أن نعرض لها في هذه الدراسة لنجلى بعض هذه المناقب المثلى المبعثرة في كتب الأدب والتاريخ ولنربط بين هذه الصور وبين تاريخ حلب الأدبي في العصر الرابع الهجري .. بلى .. وإنا لنحب أن نرافق هذا الأمير في مراحل حياته وأن نبعث بعض هذه الذكريات الدفينة من قلب التاريخ في تقصّي هذه المراحل ما يثير أماننا الكثير من القصص المليئة بشتى الصور التي نرى في أصباغها هذه الألوان الجديدة التي كادت تغيب في أحشاء العدم !

* * *

ولد سيف الدولة ، أبو الحسن ، على بن عبد الله بن حمدان التغلبي الربعي سنة ٣٠٣ هـ - ٩١٥ م وفي رواية سنة ٣٠١ هـ في ميفارقين - أو مدينة الشهداء - أشهر مدن ديار بكر .. وهي المدينة القديمة التي يحدثنا ياقوت في معجمه أحاديث طويلة عن ازدهارها بالأبراج الكنائسية وبصور القديسين وأقاصيصهم منذ عهد البيزنطيين ! ..

ولسنا نعلم شيئاً عن طفولة أميرنا ، ولكن هذا لا يمنع أن نلمس صورها على ضوء الخيال والافتراض .. في الواقع .. أن أميرنا الطفل لم يولد في بيت زرى ، ولم يحتوه كوخ قد ازورت في جوانبه الأقدار .. كلا . فقد ولد في بيت تشرق الشموس في آفاقه وتفوح العطور من أجوائه ، ولا شك أن أباه قد رعاه هذه الرعاية الأرستقراطية التي جعلت عينيه تنفتح على مباهج الحياة ومفاخر المجد ، وأن تتناول عنقه إلى صولجان الملك .. وتشاء الأقدار الباسمة أن تقرن ولادة سيف الدولة بارتقاء أبيه إمارة الموصل وأرض الرافدين ، فأية نشوة فرح هذه التي هزت قلوب الحمدانيين ؟ .. إن أميرنا الطفل في غفوة عن هذه المباهج فهو في سرير الطفولة ينعم بأحلامه الذهبية ، تهزه يد جواريه أو يدٌ رحيبة هي يد أمه الحنون التي تقرأ في وجهه الصبوح مخايل الملك . وإذ تهز سريرته تشعر كأنها تهز أعصابه ليشب سريعاً وليكون عضد أبيه في رفع هذا البيت الحمداني الكريم .. يقول المستشرق أندره دايفتس متحدثاً عن طفولته في روايته الطريفة التي

كتبها عن تاريخ حياته : « إنه منذ ما ابتداء الأمير سيف بالمشي عرف الناس أنه سيكون الأكثر جمالاً بين أبناء حمدان ، وكان وجهه يبتسم كما يبتسم الياسمين في الربيع ، وبرقت عيناه بنور النجوم ، وامتلاً قلب والدته انتعاشاً ، وكانت ابتسامته تتفتح على الناس كما تتفتح براعم الأزهار عند الصباح . وكان ذكاؤه حاداً ومستغرباً . لهذا وضعه والده بين أيدي حكماء الموصل العظماء الذين لقنوه العلوم والشعر ، وكان يريد أن يجعله عالماً يفوق جميع علماء بلاطه ، إنما الله وحده يعرف ما يعرف . وما قدّر يكون !! » .

إذن ، فلم يكد الأمير سيف يبلغ العقد الأول من حياته حتى أسلمه أبوه إلى العلماء والحكماء يدرّبونه ويلقنونه الحكمة وصنوف العلم ، وقد كان ذكاؤه الحاد خير مشجع له على أن يزدرد حكمة وعلوم ذلك العصر ، أى أن يأخذ من كل شيء بطرف ، وأن يهز قلبه الأدب والشعر أكثر من كل شيء .. وأن يكون لهوه في القنص وركوب الخيل والرمي ، وأن تخفق قلوب الفاتنات بحبه ، وأن تكون أقاصيص الغزوات والحروب هي أشهى ما يستهوى فتاده ..

ويشب أميرنا الطفل ، ويصحب أخاه إلى بعض الغزوات ، ويظهر شجاعة نادرة وإقداماً عظيماً وصبراً على المكاره وبلاءً حسناً في خوض المعارك ، ويذيع اسمه في الموصل وأطراف الجزيرة ثم يسافر إلى بغداد وينعم بعطف الخليفة المقتدر وتزداد الأحاديث عن شجاعته ومغامراته ، ويشاهد عن كثب أو عن قرب هذه الاضطرابات التي انتهت بقتل أبيه وخلع الخليفة المقتدر فيزداد حنقاً وثورة ووثوقاً من نفسه وإيماناً بالله .

وسيف الدولة شاب عصامي ، وفي مغامر ، ورجل تشعّ مخايل الفتوة من بريق عينيه ، أحس وسط هذه الزعازع العصبية أن الإمارة قد ألقت أعباءها على كتفيه ، فأقدم ولم يحجم ، ولم يخف تهجم الزمن وعبس الإقدار بل اذّرع للأهوال بنفس مليئة ، وقلب جياش ، وإيمان قوى ، وعزم يصارع الأحداث ..

ولو أن غير سيف الدولة ولد في هذا العصر الذي كان يعج باللدسائس والاضطرابات وقد ضربت الفوضى رواقها في كل بقعة إسلامية وأصبح الخليفة

العوبة بأيدي الأعاجم — لو أن فتى غير سيف الدولة جابه هذه الأحداث
 لابتلته وطوت اسمه دون أن تفسح له صحف التاريخ ولوسطراً واحداً ! . . ولكن
 الأمير سيف عرف كيف يشق لنفسه طريق المجد ، وعرف كيف يشور على
 الاضطرابات ، وكيف يؤسس مملكة جديدة على أنقاض العروش والتيجان فما كاد
 يبلغ الربيع الثاني من حياته حتى كان قد استولى على « واسط » وما جاورها ثم
 مال إلى الشام فامتلك دمشق بعد أن طرد الإخشيديين ، ومنها عاد إلى حلب فملكها
 عام ٣٣٣ هـ . وهنا ذاع صيته وسما مجده وخلد اسمه بين أعظم أمراء العرب
 والإسلام . .

الحمدانيون

نحب قبل أن نعرض إلى حياة سيف الدولة وقبل أن يتناول بحثنا « الدولة الحمدانية » أن نخص هذا الفصل بالحمدانيين : من هم ؟ كيف نشأوا ؟ بمن اتصلوا ؟ كيف فرضوا أنفسهم على التاريخ ؟ ما هي الأحداث التي مرت بهم أو مروا بها ؟ في عهد من من الخلفاء كانوا ؟ ما شأن أولئك الخلفاء من العهد العباسي ؟ ثم ما هو لون السياسة في ذلك العهد ؟ . . إن بحث هذه النواحي وكشفها على ضوء التاريخ سيساعدنا على بحث الدولة الحمدانية وتناول سيرة سيف الدولة بالإسهاب الذي نريد أن نعرض له . . . وإذ نتساءل في صدر هذا البحث عن الحمدانيين .. من هم ؟ من أين تحدروا ؟ إلى أية قبيلة يمتون ؟ يجيبنا المؤرخ الكبير ابن خلدون بقوله :

« ينتسب الحمدانيون إلى قبيلة تغلب ، وكان بنو تغلب بن وائل من أعظم بطون ربيعة بن نزار ، وكانوا من نصارى العرب الجاهلية لهم محل في الكثرة والعدد ، وكانت مواطنهم في الجزيرة وديار ربيعة ، ثم ارتحلوا مع هرقل إلى بلاد الروم ، ثم رجعوا إلى بلادهم وفرض عليهم عمر بن الخطاب الجزية فقالوا يا أمير المؤمنين لا تدلنا بين العرب باسم الجزية واجعلها صدقة مضاعفة ففعل ، وكان قائدهم يومئذ حنظلة بن قيس بن هرير من بني مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، ثم كان منهم بعد ذلك في الإسلام ثلاثة بيوت : آل عمر بن الخطاب العلوي ، وآل هرون المغمر ، وآل حملون بن الحدث بن لقمان بن أسد ^(١) . »

وعلى هذا فالحمدانيون بطن من بني تغلب بن وائل من العدنانية ، أي أنهم يتحلرون من أصل عربي صميم ، من العدنانية التي ولدت العربية في كنفها ، وما زالوا يتنقلون بماشيتهم وأموالهم وخيامهم على حالة القبائل العربية من تهامة إلى

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٢٧ .

نجد إلى الحجاز إلى أرض ربيعة إلى ضفاف الفرات حيث نزلوا سهل الرقة الفسيح ،
ومنها انتقل حمدان بن حمدون إلى الموصل . وكان حمدان جد الأمراء
الحمدانيين رب قبيلة تنظر إليه بقية القبائل بالتعجلة والاحترام . أنجبت عدة
أولاد نشأوا نشأة عصامية وألقوا بأنفسهم في ميادين المغامرة والحرب فانتصروا
وخذلوا ، وكانت حياتهم تتصف بالعنف والقوة ولا تعرف الهدوء والسلم إلا لماماً .
وقد رافقت نشأة الحمدانيين ضعف الدولة العباسية وغروب شمسها فكان الخليفة
العباسي وهو يشهد تقلص سلطانه وضعف كيانه أشبه بهيكل عظمي يقنع من
مظهره الخارجي بأن لا تمتد إليه يد التحطيم !

لقد سما العباسيون إلى المجد في أول نشأتهم وظلوا عصرًا كاملاً رمزاً للسيادة
الفكرية والسياسية ، وما إن تهاونوا بالعصبية العربية وأفسحوا المجال للأجنبي الدخيل -
للأتراك والفرس وللديلم والسلجوقيين - حتى بدأ الضعف يدب في كيانهم
فتمزقت سيادتهم واضطرب نظامهم ، وعمت الفوضى في كل بلدة وصقع ، ونفذت
عناصر الفساد إلى صميم الحياة فطبعها بلونها القاتم ، وأصبحت الخلافة اسماً
موهوماً والخليفة شعباً ضئيلاً مما حدا بكثير من المؤرخين أن يتفقوا على أن كلمة
الإسلام قد تفرقت في دولة بني العباس . ولسنا نريد أن نترسل هنا بذكر
الأحداث التي مرت بالدولة العباسية بعد ازدهار سلطانتها مدة عصر كامل أي
بذكر هذه العواصف التي هبت عليها في أواخر القرن الثالث للهجرة حيث انتهت
إلى حالة من الانحدار والضعف أدّى إلى أن يستغل كثير من الأمراء هذا
التفكك وأن ينشئوا لهم حواضر مستقلة وإمارات مختلفة انتهت بانحلال تلك
الإمبراطورية الكبرى التي أورثها الخلفاء الراشدون والأمويون العالم الإسلامي .
نعم ، لسنا نريد أن نترسل بذكر هذه الأحداث ولكن هذا لا يمنع أن نشير إلى
الأسباب التي يرددها صفوة المؤرخين من عرب ومستشرقين ومن عرض إلى
الدراسات الإسلامية - إلى أن اعتماد بعض الخلفاء العباسيين - وفي طليعتهم
المعتصم وابنه الواثق - على الأعاجم ، وإقصاءهم العرب عن حظيرة الملك ، والانتقاص
من كفايتهم والشك في إخلاصهم مما جعل أمراء العرب يمتعضون من هذا الإيثار

الذى مس عصبيتهم وكان - كما قدمنا - سبباً مباشراً لتدهور تلك الإمبراطورية العظمى وتمزق وحدتها تمزقاً مريعاً ! . .

والذى يعنى بدراسة أطوار الاضطراب التى وسمت العهد العباسى بعد سيطرة الأعاجم على الخلفاء يحس بالهلع يهز نفسه هزاً مؤلماً .. ذلك لأن الأمر لم يقف عند سيطرتهم السياسية وتدخلهم الإدارى فى جليل الأمور وحقيرتها . بل وصلت بهم الحساسة والكيد أن يتعمدوا إهانة الخليفة لا لسبب يدعوه المنطق بل لمجرد إعلان سيطرتهم وطمأنينة شهوتهم فى الحكم وجشعهم فى المال . ومأساة الخليفة المعتر ترينا اونها قائماً من ضعف الخلافة وتهلّل ثوبها الفضفاض . وخلاصة هذه القصة الحزينة أن قواده ، وجلهم من الأتراك ، تقدموا إليه يوماً يريدون مواجهته فاعتذر إليهم فلم يصغوا إلى اعتذاره وألحوا بوجوب مقابلته فقابلهم فى قصره مضطراً - كأنه شعر بما يخبثون له من مكائد فأراد أن يردهم فلم يوفق - وما كادوا يدخلون عليه حتى تناولوه بالتفريع ثم بالضرب بالدبابيس حتى تمزقت ثيابه وسال الدم عن منكبيه ، ولم يكتفوا بهذا ، بل أقاموه مدة فى وهج الشمس تشوى حرارتها أقدامه . وكانوا يلطمونه أحياناً فيتقى اللطمات بيده .. ويزيد الطبرى الذى نقلنا عنه هذا الخبر أنه لما خُلع دفع إلى من يعذبه فنع عنه الشراب والطعام ثلاثة أيام ، وقد وصل به الظمأ أنه طلب حسوة من ماء البئر فنعوها عنه . ثم جصصوا سرداباً بالحص السخين لم يكد يحمى حتى أدخلوه فيه وأطبقوا عليه بابه فأصبح ميتاً واستحال رماداً ! .. وهذا بدون ريب أفظع أنواع التعذيب . وقد يسأل القارئ : ولم كل ذلك ؟ فيجبنا الطبرى أن جند الأتراك قد طالبوه بأرزاقهم أى برواتبهم فلم يكن لديه المال الكافى لدفع هذه الرواتب فانتهد حياته بهذه المأساة الموحشة ! . . ولقد تكررت هذه المأسى بألوانها الداكنة المظلمة مع غير واحد من الخلفاء ، منذ عهد المعتصم حتى المتى الذى خلفه القائد التركى توزون بعد أن سمل عينيه !

ولم يكن الخليفة سوى رئيس دينى لا أمر له ولا نهى ، ولا وزير يعتمد عليه ، وكل ما هو تحت سيطرته كاتب يدير له إقطاعاته وإخراجاته ؛ وقد لا نعدو

الحقيقة إذا التمسنا صورة الكثير من الخلفاء العباسيين في عصر الاضطراب في شخص السلطان محمد رشاد الخليفة العثماني الذي كان سلطاناً بالاسم وكان الأمر كله بيد الاتحاديين ، ولكن الاتحاديين اكتفوا بالسيطرة والغلبة وتدبير شئون الملك دون أن ينالوا السلطان بالأذى لأنه أطلق لهم الحبل على غاربه ، أما الخلفاء العباسيون فكانوا — على ما يظهر — يقاومون هذه التهجومات من وراء ستار خفي ! . ولو أننا نتكلم عن بعض الخلفاء العباسيين في هذه الفترة التي بدأت بزوال سلطتهم لكتبنا فصلاً في المقارنة بين تفكك السلطنة العثمانية والدولة العباسية والأحداث التي رافقت سقوط المملكتين مما يجعلنا نردد هذه الكلمة التي أصبحت رمزاً تاريخياً لتشابه الأحداث وهي أن التاريخ يعيد نفسه ، أي أن صورته تتكرر بتوالي الأحقاب والأزمان !

* * *

شهد الحمدانيون هذه الأحداث التي هزّت الإمبراطورية الإسلامية هزة انتهت إلى انفراط عقدها وظهور دويلات وإمارات مستقلة على يد الأتراك والفرس والكرد وبعض القبائل العربية ، وشهدوا تقلص نفوذ العرب وذوبانه تحت سيطرة الدخلاء بشكل مزر فرأوا أن يقوموا بنصيبهم من حمل هذا العبء ، وأن يصونوا التراث العربي ، وأن يذودوا ما استطاعوا بهجمات الروم عن الثغور الإسلامية . فجزّت المنافع المادية بعضهم إلى الهاوية حيث المطامع تثور وتغلي ، وارتفعت المبادئ السامية ببعضهم فكان دفاعهم عن العروبة والإسلام مجيداً . على أننا ونحن نتكلم عن الحمدانيين نجب أن نلم للمامة بهذه الأحداث التي احتملوها خلال هذه الفترة التي ابتدأت عام ٢٢٢ هـ وانتهت أو كادت عام ٣٣٤ هـ حيث سما مجد الحمدانيين على يد الأمير المغامر سيف الدولة .

* * *

يرافق ظهور الأسرة الحمدانية ارتقاء المعتضد عرش الخلافة وقد تسلمها وهي على ما هي عليه من التفكك والانحلال ، أراد هذا الخليفة أن يرأب الصدع وأن ينهض بهذه المملكة الكبيرة وأن يعيد لها رونقها وبهاءها بكل ما في نفسه من

حب الإصلاح وما في شخصيته من سمات الحزم وقوة القلب وشجاعة الرأي ولكن هيات هيات أن يبلغ وطره وأن تتحقق أمانيه ! . . لقد كانت الجزيرة في اضطرابها الدامي ، وكان القرامطة يعيشون في البلاد فساداً ويهزون العقائد هزاً عنيفاً ، وكان التشاد بين الأتراك والعرب قد بدا لأول مرة في عهد المعتضد ؛ وكان تخلي العباسيين عن العرب والتمكين للأعاجم في شئون الملك سبباً مباشراً لأن يحافظ عرب الجزيرة وبالأخص بنو ربيعة وبنو مضر على استقلالهم . وكان أكثر هؤلاء العرب خروجاً على تلك الأوضاع الشاذة عرب بني شيبان الذين أضرموا الثورة في طول البلاد وعرضها مما اضطرت الخليفة أن يطفى لهيب هذه الثورة فوفق إلى إطفائها بكثير من الجهد . ثم أراد بعد أن أخضع بني شيبان أن يهز هذا الاستقلال الذي أعلنه حمدان بن حمدون جد الأسرة الحمدانية في قلعة ماردين . كان ذلك سنة ٢٨١ هـ فجهز المعتضد جيشاً كبيراً وسار به إلى ماردين . واتصل الخبر بحمدان فانهزم في جوف الليل وترك القلعة إلى ابنه الحسين الذي دافع عنها دفاع الأبطال فلم يستطع الخليفة أن يستولى عليها ورجع بجيشه إلى الموصل وكتب إلى حمدان يطلب إليه الخضوع والاستسلام فأبى ، عندئذ جهز جيشه للمرة الثانية وناط أمره بغير واحد من كبار القواد الأتراك وسار هو على رأس هذه الحملة إلى ماردين مما اضطرت ابن حمدان أن يستسلم هذه المرة وأن يفتح باب القلعة للخليفة الذي لم تكذ خيوله تظاً أرضها حتى أمر بهدمها بعد أن نقل كل ما فيها من ذخائر ونفائس إلى بغداد . ثم رأى أن استيلاءه على القلعة لا يحقق أمانيه من إخضاع الحمدانيين فأرسل من يتعقب حمداناً ولكن أين هو حمدان ؟ هل اختبأ في ركن مظلم كالحائف الرعيد ؟ لا . لقد ركب زورقاً كان له على ضفاف الدجلة وعبر به إلى الجانب الغربي أي إلى ديار ربيعة حيث نزل في خيمة رجل من الخوارج واستظل بحماه دون أن يعلم من أمر هذا الخارجى شيئاً ، وظنه من هؤلاء الذين أعلنوا الثورة والعصيان على الخليفة مع أنه قد أعلن توبته واستسلامه إلى الخليفة من عهد غير بعيد . . . وبعد أن أجاز حمدان وآواه نكث عهده وسلمه إلى الخليفة الذي زج به في غياهب السجن .

إذن ، فسيرة جد الأسرة الحمدانية تبدأ بالثورة على السلطان وإعلان الملك والدخول في معامع وقتال طويل ، ثم تنهى ثورته بالاستسلام وبدخوله السجن •
 وظهر في خلال هذه الفترة خارجي من القرامطة اسمه هارون الشاري ، وكان رجلاً مغامراً ، خاض عدة حروب ولديه قوة كبيرة ورجال أشداء استطاع أن ينتصر بهم على جيوش الخليفة مما أقلق باله وأقضى مضجعه ، وبعد أن خذل غير مرة رأى أن يستعين بالحمدانيين أي أن يضرب الحديد بالحديد كما يقولون !
 فمن هو الذي سيغامر بهذه الحروب ؟ ومن هو البطل الذي سيقضي على هذا الخارجى المتمرد ؟ رأى الخليفة بعد تفكير طويل أن الحسين بن حمدان هو خير من يقوم بهذه المهمة فندبه لحرب هارون ، ولكن جرح الحسين بن حمدان لم يلتئم بعد ، فتردد أولاً ثم رضى بعد أن اشترط على الخليفة ثلاثة شروط إن هو وفق في مهمته . سأله الخليفة : ماذا تكون شروطك ؟ أجابه على الفور : إطلاق سراح أبى ... وسكت . فقال له الخليفة : ثم ماذا ؟ فصمت دون أن يحير جواباً ، ثم قال للخليفة : إننى أذكر مولاي الخليفة بالشرطين الباقيين بعد أن أوفق فيما ندبت إليه ! . . وسار على رأس جيش من جنوده وأتباعه مع جيش آخر انتدبه الخليفة وعلى رأسه قائد تركى — وقد يكون من الذين حاربوا الحسين في معركة ماردين — فما زال مع هارون الشاري في حرب ضروس حتى ظفر به واقتاده أسيراً إلى المعتضد ، فسر الخليفة جداً وعرف للحسين بلاءه وبطولته فأمر حالاً بإطلاق سراح أبيه من السجن وطوق عنقه بالهدايا الثمينة وخلع على إخوته العطايا وأحسن إلى هذه الأسرة العربية إحساناً جعلها موضع رعايته وعطفه . . وقد يسأل القارئ وما هما الحاجتان اللتان لم يبح بهما آئذ للخليفة ؟ فنستطيع أن نقول إنهما طويا في نفسه دون أن يبوح بهما !

ودخل الأمراء الحمدانيون بعد فوزهم هذا في طاعة الخلفاء وفي خدمتهم فتقلدوا المناصب الرفيعة ومنحهم الخليفة ولاية الموصل فاستقلوا بها ثم وسعوا نطاق حكمهم إلى ديار بكر والجزيرة وسورية مما سيجىء الكلام عنه مفصلاً في الفصول الآتية .

وبوفاة المعتضد خلفه على سرير الخلافة ابنه المكتنى عام ٢٨٩ هـ وسار المكتنى على خطة أبيه من الثقة بآل حمدان والركون إليهم فى كافة الشئون لأنه رأى فىهم العنصر العربى القوى الذى يشارك الخلفاء فى شعورهم وأحاسيسهم . ورأى المكتنى أن يولى أبا الهيجاء على الموصل وأعمالها ^(١) فنزل هذا العطف من نفسه أعظم منال ورأى أن يشخص إلى بغداد على رأس جيش كبير ليقدّم إلى الخليفة خضوعه ويشكره على هذا العطف الذى حباه به . ولم يكذب برأس حفلة عرض الجيوش بأمر الخليفة حتى شاع فى العاصمة أن الأكراد الهذبانية قد أغاروا على « نينوى » ونهبوها ، وكما استعان المعتضد بالحسين بن حمدان لتأديب القرامطة والخارجين استعان المكتنى بأخيه أبى الهيجاء لتأديب الأكراد الهذبانيين ، ورأى أبو الهيجاء أن الفرصة سانحة ليؤكد إخلاصه بتأديب الهذبانيين وإعلان سطوة الحكومة فى شخصه . والتقى بهم بعد أن عبر إلى الجانب الشرقى ولكنه لم يستطع أن يخضعهم لقلة جنوده وكثرتهم فاتصل بالخليفة وأنبأه بنتيجة المعركة وطلب منه الإمداد ليقضى عليهم نهائياً وما كادت النجدة تصل إليه حتى كان الهذبانيون قد تفرقوا شذر مذر وما زال يلاحقهم حتى أعلنوا خضوعهم واستسلامهم على يد أبى الهيجاء .

ويظهر أن هذا العطف الذى ناله أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان من الخليفة المكتنى قد أوتر صدر أخيه الحسين بن حمدان الذى كان فى خدمة المعتضد ، فاكتفى بأن يظل فى خدمة الخليفة على قيادة الجيش بينما أبو الهيجاء أمير مستقل فى الموصل . وفى عام ٢٩٥ هـ بويغ المقتدر بالخلافة واشترك الحسين بالمؤامرة التى دبّرت لخلع المقتدر ولكن الدسائس أحبطت هذه المؤامرة وانكشف أمرها ، ورأى الحسين أن يتوارى من وجه الخليفة ففرّ فى جنح الليل . وأراد المقتدر أن ينيط أمره بأخيه فكتب إلى أبى الهيجاء أن يجدّ فى طلبه ، ولم يستطع أبو الهيجاء أن يعصى أمر الخليفة ، أو أن الحزازات كانت بينه وبين أخيه على أشدها ، فتعقبه حتى أدركه فى جبل سنجار ، ولما ضاقت به

(١) ابن خلّون ج ٢ ص ٣٩٦ .

الدنيا توسط وزير، المقتدر ليشفع له عند الخليفة فشفع به وعفا عنه ثم عاد فاحتواه في قصره ببغداد .. ولأمر لا نعرفه نرى أن المقتدر قد سحب ثقته من أبي الهيجاء فعزله عن ولاية الموصل سنة ٣٠١ هـ ويتقبل أبو الهيجاء الصدمة بقلب رحب لأنه رجل شجاع وعصامي قوى فلم تعصف بنفسه رياح الذل والاستسلام فتار في وجه الخليفة وعصى أمره ولم يستطع مؤنس المظفر الذي جهزه الخليفة لمقاتلته أن يخضعه فعاد بالحبية والحجل مما ألبأ الخليفة أن يقلد أبا الهيجاء للمرة الثانية بعد عام واحد أي سنة ٣٠٢ هـ وهي السنة التي ولد فيها الأمير سيف الدولة ..

ولم يكد الخليفة يأمن جانب أبي الهيجاء حتى ثار الحسين وتمرد . وكان رضا الخليفة على أحد الأخوين مدعاة لتمرد الثاني . . حاول أن يستميله فولاه على ديار ربعة ، وانتظر المقتدر أن يكون الحسين كسائر الولاة أي أن يخص الخليفة بقسم وافر مما يجبيه من أموال ، ولكن الحسين فهم الولاية بمعناها الواسع ، فأعلن استقلاله المطلق وأخذ يجبي الضرائب دون أن يخص الخليفة بشيء فغضب عليه وبعث إليه جيشاً كبيراً بقيادة ابن رائق لإخضاعه وتأديبه ، ولكن جيش الحسين كان يزيد على العشرين ألف فارس فلم يوفق ابن رائق إلى التغلب عليه وإخماد ثورته ، وعاد خلال هذه الفترة مؤنس الخادم من محاربة المهدي العلوي فأمره الخليفة أن يلتحق بابن رائق وأن يتعاونوا على إخضاع الحسين فوفق مؤنس وقاده أسيراً إلى المقتدر .

إزاء هذه الثورات التي تكررت لم يعد للخليفة أية ثقة بالحمدانيين فازور عنهم وألقى القبض على أكثرهم وزجهم في السجن .

وظل الأمراء الحمدانيون مسجونين في دار الخليفة حتى عام ٣٠٦ هـ حيث أطلق سراحهم ، ولكن الحسين ظلت نفسه تضطرم بالثورة على هذه الأوضاع وعلى ما مر به شخصياً فبدأت صلاته تتصل بغير واحد من زعماء البلاد وعرف الخليفة أن المؤامرة تدبر عليه وأن مثيريها الحسين بن حمدان ووزيره « أي وزير المقتدر » على بن الفرات وعامله في أنزيبجان وغيرهم فألقى عليهم القبض وأمر بقتل الحسين واكتفى بعزل وزيره وإقصاء عامله . وهنا انتهت

حياة الحسين بعد أن لعب أكبر الأدوار في تاريخ الحمدانيين .

* * *

وكانت الاضطرابات قد ازدادت في أنحاء المملكة وفي أطراف الموصل فرأى أبو الهيجاء بعد أن اعتزل الحياة ثمانى سنوات كاملة أن يجدد عهده بالخليفة فأعاده أميراً على الموصل .. فعلام يدل هذا ؟ يدلنا صراحة على أن الخليفة لم يستطع أن يتخلى عن مساعدة الحمدانيين في مجابهة الثورات والاضطرابات . وعلى أن الحمدانيين وقد عرفوا قوتهم ومناعتهم لم يتهاونوا بهذه المكانة ففرضوا أنفسهم على الخلفاء وكانوا يرقبون سير الحوادث بلباقة وحذر .

وتقبل أبو الهيجاء عطف الخليفة من جديد ولكنه لم يشأ أن يغادر بغداد موطن الدسائس والوشايات فظل فيها وبعث بابنه ناصر الدولة إلى الموصل لينوب عنه بقمع طغيان الأعراب والأكراد الذين أغاروا على المدينة وأعملوا النهب في أطرافها فجمع رجاله وأخذ في تعقبهم إلى أن تمكن من إعادة الأمن إلى نصابه . وما هي إلا شهور حتى تجددت هذه الفتن وقامت حروب أهلية طاحنة في الموصل دعت إلى حمل السلاح ، فاضطر أبو الهيجاء أن يترك بغداد وأن يدافع عن المقتدر ولكن دفاعه لم يجده نفعا فوقع صريعاً في إحدى المعارك . وعرف عندئذ المقتدر لآل حمدان إخلاصهم وجهودهم ونسى ما اقترفوه من هفوات ، وحزن كثيراً على أبي الهيجاء وأخلص الود لأبنائه وأقر لابنه ناصر الدولة ما كان لأبيه من ولاية وضياع وضمان . وكان ناصر الدولة شديد الهيبة ، صلب الفؤاد على الخوارج وعلى العصاة فحمل عليهم حملات قوية وأخضع المتمردين واستمر على ولاية الموصل حتى عام ٣١٨ هـ .

* * *

وتاريخ ناصر الدولة في الموصل تاريخ طويل لا نريد أن نقف عنده بإسهاب لأننا نريد أن نتخطى ذلك إلى شقيقه سيف الدولة . ولكن كلامنا عن الحمدانيين يضطرنا أن نمر مروراً سريعاً بالأحداث التي رافقت ناصر الدولة بعد مصرع أبيه — أبي الهيجاء — في دفاعه عن الخليفة الذي عرف لآل حمدان إخلاصهم وعصبيتهم فأقر لأبنائه ما كان لأبيهم من ولاية وضياع وضمان وكان من

جراء هذا العطف أن استأثر ناصر الدولة أو قل احتفظ بما كان لآل حمدان من ملك ومال . جرّاه على ذلك هذا الانحدار الذى وصلت إليه الدولة العباسية فى عهد المقتدر الذى كانت خلافته كلها مخاز وسوّات . وكان الأمر لوزرائه الذين تصرفوا بالملك تصرف الجائر المستبد ، وشغل المقتدر عن كل ذلك بخليلاته اللواتى تحكمن أيضاً بعزل الوزراء وتنصيبهم بما كان يقدم لهن من الرشاوى والهدايا الثمينة التى تحقق أطماع الجسد ونزوات القلب ! . .

وفى عهد المقتدر أشرفت الدولة العباسية على الانحلال والموت بظهور سلطان المتغلبين فى أطراف المملكة والثغور ، وحسب القارئ أن يعدد هذه الدويلات التى أعلنت سلطانها فى أجزاء الإمبراطورية الإسلامية ليعلم ما وصلت إليه الحالة من خلل وتفسخ وانحدار . .

لقد قامت فى فارس دولة بنى بويه ، وبسط الإخشيدون سلطتهم على مصر وسورية ، وأعلن الفاطميون سيادتهم فى أفريقيا ، وساد الأمويون فى أسبانيا ، واستقل بنو سامان فى خراسان وما وراء النهر . والقرامطة بمنطقة البحرين وما صاقبها من ثغور وبلاد ، واستقر الديلم فى جرجان وطبرستان ، وأعلن البريدى حكمه على البصرة وواسط ، وقامت دولة الحمدانيين فى الموصل وديار بنى ربيعة وقسم كبير من أراضى العراق . وكانت المملكة الإسلامية تغلى غلياناً فى جحيم الاضطرابات والدسائس . كانوا ينهش بعضهم لحوم بعض ويحفرون مقبرة الإمبراطورية الكبرى بهذا التفكك الذى أطمع البيزنطيين أن يعيدوا الكرة على بلاد الإسلام فافتتحوا كليكيا وسورية على يد القائد البيزنطى الكبير نيقفور الذى اشتبك بمعارك دامية مع سيف الدولة على أبواب حلب مما سيصير تفصيله فى بحثنا القادمة وكانت البلاد تواجه خطرين : خطر الانقسامات الداخلية وخطر هجمات الإفرنج الخارجية ، وشاءت الأقدار أن تتقد نيران هذه الاضطرابات وقد عقلت الأرض من منقذ جبار يقضى على هذه المطامع ، وظلت الأمور بين أيدي خلفاء هزيلين أقصى أمنياتهم من الحياة بعض هذه الأموال التى يدرها العمال عليهم لينعموا مرفهين برغد الحياة . ولكن هيات أن تصفوا الحياة فى زحمة هذه الأحداث ! . .

وظهر بعد قتل المقتدر ، القاهر ثم الراضى الذى تربع على دست الخلافة سنة ٣٢٢ هـ . . . وكانت خلافته ذات ثوب فضفاض . . . وبدأت الفوضى تعلن عن نفسها بشكل مريع فى كل ظاهرة من ظواهر الحكم : فى جباية الأموال ، فى هذا التنافس بين العمال والوزراء ، أو بين الخليفة والأمراء ؛ كل واحد يطمع أن يملك أكبر رقعة ممكنة وأن يخترن أكثر مما تصل إليه يده ! ولم لا؟ ملك فسيح ومطامع لا يحدها أفق ، والأمر للقوة والسلطان ، وكان طبيعياً أن يرى سليل الحمدانيين أنه أحق من غيره بأن يرث بعض هذه الأرض المقسمة خيراتها بين الناهبين . . .

واستقل ناصر الدولة بالموصل دون أن يعباً بسلطان الخليفة فحبس عنه الأموال ولم يرسل إليه درهماً واحداً مما كانت تغله أرض الموصل من خيرات ، وكانت غلاتها وخيراتها موضع العجب والدهشة ^(١) فغاظ هذا الاستقلال الخليفة الراضى . ولكن هل كانت لديه القوة الكافية لتمزيق هذه السلطة التى طغت على كل شىء وحالت دون تسرب الأموال إليه ! . لا . . . لقد رأى أن يكيد سياسة المراوغة والضعف ، سياسة « فرّق تسد » فاستدعى عم ناصر الدولة أبا العلاء ابن سعيد بن حمدان الذى كان يحبه ويثق به دون آل حمدان كلهم وأغراه بإمارة الموصل . إذن ، فليقدم العم لقتال ابن أخيه ! . . . ونحب أن نتساءل : أصاح أبو العلاء - فى حربه هذه - إلى رغبة الراضى فى قتال ناصر الدولة أم أن خيرات الموصل هى التى دفعته إلى هذا القتال ؟ وإذا كانت هذه الخيرات التى قد تغل الملايين ، أيقظت المطامع بين الأخ وأخيه ، والعم وابن أخيه ، وأغرتهم فى تلك العصور ليشيروها حرباً ضروساً ، فبديهي أن توقظ رائحة البترول ومناجم النفط فى عصرنا هذا نار المعامع فى قلوب الدول المستعمرة فتتنافس من طرف خفى أو جلى على امتلاك خيرات هذه الأرض !

(١) لقد كان المبلغ الذى تقدمه مدينة الموصل إلى الدولة العباسية سنوياً ينيف على عشرات الملايين من الدراهم ، وقد نقل ابن خلدون عن جراب الدولة أن الموصل وما بينها كانت تدفع فى أيام المأمون عشرين ألف رطل من العسل الأبيض وأربعة وعشرين ألف ألف درهم أى مليون وسبعمائة ألف دينار .

وسار أبو العلاء سعيد بن حمدان إلى الموصل ليعلن سلطة الخليفة ويجبي أموال الموصل ويزيح كابوس ابن أخيه ناصر الدولة ولكن ابن أخيه شجاع مغامر وصلب حديدى فى القتال فلم يكدر يلتقى به حتى دبر له مكيده أودت بحياته . ولما بلغ هذا الخبر مسامع الراضى تأثر جداً وعدّ الإهانة موجهة إليه شخصياً ! فسير إلى ناصر الدولة وزيره ابن مقله مع جيش كبير استطاع أن يضايق ناصر الدولة الذى ترك الموصل مضطراً وتوغل فى الجبال .. وبدخول ابن مقله الموصل بدأ بجباية الأموال ! . . . وليلاحظ القارئ أن هم المتغلبين بالأمس — كهم المستعمرين اليوم — هو جباية الأموال وإرهاق الشعب بالضرائب واستثمار خيرات هذه الأرض المباركة سواء أكانت عسلاً أم بترولاً . وإن الطمع الإنسانى لم يتبدل وقد لا يتبدل ! وإن جباية الأموال هى هدف الجميع ومعبودهم المقدس فما أشد تعاسة الشعوب إزاء طغيان المتغلبين أو المستعمرين ! . . .

* * *

ولم يدم الأمر لابن مقله لأن أصحاب ناصر الدولة ابتدعوا حيلة لإقصائه عن الموصل ؟ فكيف ؟ وما هى هذه الحيلة ؟ لقد اتصلوا بابنه فى بغداد واستكتبوه كتاباً كلفهم عشرة آلاف دينار ! ما مضمون هذا الكتاب ؟ لقد دعا الابن أباه أن يسرع بالسفر حال تسلمه كتابه إلى بغداد لأن مؤامرة تدبر له فى الخفاء بغية قتله ، فما أسرع ما يصدق ابن مقله هذا الخبر ؟ ولم لا يصدقه والكتاب من ابنه أولاً والبلاد تعج بالدسائس والاضطرابات وسيل جارف من المكائد والمؤامرات . وترك الموصل بعد أن ولى عليها أحد العمال الأكراد وجازت عليه الحيلة أو المؤامرة ولكن بيد من ؟ بيد ابنه الذى خدع أباه لقاء قبضه حفنة كبيرة من الأصفر الوهاج ! . . .

وطارت الرسل إلى ناصر الدولة المعتصم بالجبال تخبره بالأمر فعاد حالاً على رأس كتية كانت تنتظره خارج البلاد وطرده العامل الكردى وأعلن ولايته من جديد .

خلال هذه الفترات كانت الحالة قد ساءت جداً فى بغداد فاستبد

العمال استبداداً مريعاً وأخذ الوزراء يستقيل الواحد تلو الآخر وضاعت الدنيا في وجه الخليفة فاضطر أن يستوزر أحمد بن رائق وإلى البصرة وواسط فاستقدمه إلى بغداد وقلده إمارة الجيش وأضاف إليها إمارة الأمراء وناط به جباية الخراج في جميع أنحاء البلاد، أى أن الخليفة بإعطائه السلطة المطلقة في الإدارة والحرب كأنه قد انتدب عنه خليفة جديداً في شخص ابن رائق ! ثم ماذا ؟ لقد أمر أن يخطب باسمه على جميع المنابر فانتفخت أوداج ابن رائق إزاء هذه السلطة الواسعة ورأى بدوره أن يستعمل نفوذه وسلطته فألغى الدواوين وصرف الوزراء وأخذ يدير وحده شئون الدولة ، أى أن الدكتاتورية التي لمسنا ألوانها الصارخة في هذا العصر في شخص ستالين وموسوليني وهتلر وبريمو دي فاليرا قد كانت متجسدة قبل ألف عام في شخص ابن رائق ! . .

ولكن دكتاتورية ابن رائق لم تدم طويلاً - ومن شأن الدكتاتوريات أن تكون قصيرات العمر - لأنه ظهر متنفذ آخر في شخص « بجكم » التركي الذي استطاع أن يغتصب رتبة أمير الأمراء من ابن رائق ، ويرغمه على الانزواء ، فانزوى إلى حين . . وأذعن الخليفة لهذه السلطة الجديدة في شخص « بجكم » الذي خرج مع الخليفة لمحاربة الحمدانيين ، أى محاربة صاحبنا ناصر الدولة ، وسار « بجكم » إلى قتاله في جيش كبير عام ٣٢٧ هـ واشتبكا في موقع « الكحيل » بالقرب من الموصل بقتال طويل ، اضطر ناصر الدولة بعد هذه المعركة الكبرى أن ينهزم إلى نصيبين ثم إلى آمد . . . ودخل الخليفة الراضى الموصل وأقام فيها مع « بجكم » مدة غير يسيرة حاولا كثيراً أن يظفرا بشيء من أموال الحمدانيين فلم يوفقا . . عندئذ عادا إلى بغداد ليهذا ثورة ابن رائق الذي انتفض على أثر غيابهما ، وعاد ناصر الدولة بدوره إلى الموصل كما كان أولاً ^(١) .

* * *

وبوفاة الراضى خلفه المتقى ، وهنا عادت الصلات تتوثق من جديد بين آل حمدان والمتقى وزادت الصلات إلى المصاهرة فتزوج ابن المتقى بابنة

(١) ابن خلون ج ٤ ص ٢٣١ .

ناصر الدولة وعادت للحمدانيين صولتهم وعظم سلطانهم وأخذت قواهم دولتهم ترتفع دون أن ترزعزعا عواصف الدسائس والاضطرابات .

وظهر في زحمة هذه الاضطرابات أبو عبد الله البريدى الذى طمحت نفسه للاستيلاء على بغداد فاستعان المتقى بجنوده الأتراك البجكميين - وهم جنود ماجورون - فلم يثبتوا مع الخليفة وانضم بعضهم إلى البريدى الذى تمكن أن يستولى على بغداد دونما حرب عنيفة . ولكن استيلاءه لم يدم طويلاً لأن الجنود الأتراك ثاروا عليه لإمساكه عن دفع رواتبهم فاضطر أن ينهزم وبانهزامة عاد الخليفة إلى بغداد بعد أن استدعى ابن رائق وقلده إمارة الأمراء للمرة الثانية ! ولكن البريدى جهز نفسه وهجم على بغداد أيضاً فاستنجد الخليفة بناصر الدولة الذى أرسل إليه أخاه سيف الدولة على رأس جيش كبير لم يكد يصل به إلى تكريت حتى التقى بالخليفة وابن رائق عائدتين فرجع معهما إلى الموصل ، ولكن قلوب ابن رائق لم يرق لناصر الدولة فأوجس منه شراً لحزازات سابقة فلم يكد يدخلها حتى دبر له مكيدة أودت بحياته ففرح المتقى وخلع عليه لقب أمير الأمراء ، ولقب أخاه علياً سيف الدولة . . .

وعاد المتقى إلى بغداد مع أمير الأمراء ناصر الدولة الذى كان تحت حوزته جيش كبير ، ورافقهما سيف الدولة ، ولم يقتربوا من بغداد حتى نزع عنها البريدى إلى « واسط » وقرر الحمدانيون أن يتزعوها منه ، وشبت معارك دامية بين البريدى وسيف الدولة غلب فيها الحمدانيون ثم انتصروا ، وجلا البريدى عن واسط إلى البصرة وعزم سيف الدولة أن يلحق به إلى البصرة ولكن قلة المال وفتور همة بعض قواده الأتراك جعله يعود إلى بغداد ، وقد مكث فيها مع أخيه ناصر الدولة سنة وبعض سنة ثم غادرها إلى الموصل .

وبتخلى ناصر الدولة عن إمارة الأمراء في بغداد اختار الخليفة لهذا المركز أكبر قواد الديلم « توزون » الذى لم يكن سياسياً مرناً بل كان رجل حرب ودس ، فاستوحش منه المتقى وندم على هذا الاختيار وخاف على نفسه منه وتجسست هذه الوسواس حتى اضطرت أن يترك بغداد إلى الموصل مستعيناً بالحمدانيين للقضاء

على طمحات هذا الديلمي الغريب ، ولكن « توزون » لحق بالمتقى يريد أن يرجعه إلى بغداد ، أو أنه اتخذ التجاء المتقى إلى الحمدانيين سبباً لمناجزتهم القتال والاستيلاء على الموصل ، فنازله سيف الدولة وتغلب عليه أو كاد . وبعد معارك دامية دخل « توزون » الموصل غير عانى بسطوة الحمدانيين الذين خافوه فالتجئوا مع المتقى إلى نصيين ، وهنا بدأت وساطات الصلح بين هذا القائد الديلمي وبين المتقى وناصر الدولة على أن يضمن ناصر الدولة ما بيده من البلاد ثلاث سنين كل سنة بثلاثة ملايين وستمائة ألف درهم ، وعندئذ عاد توزون إلى بغداد ولم يعد معه المتقى بل آثر أن يبقى في الموصل . ولكن نفسه حنت بعد مدة إلى بغداد فطلب من توزون الأمان فأمنه وأقسم له الأيمان أن لا يغدر به وأن يكون في خدمته . ورأى سيف الدولة الذي يعرف نفسية « توزون » تماماً أن هذا الأمان هو لون صريح من الخديعة والمكر فحذره منه كثيراً ولكن المتقى لم يستمع إليه واطمأن إليه وسافر إلى بغداد فلقبه « توزون » بكثير من الاحترام حتى قبل الأرض بين يديه ولكن ما هي إلا أيام حتى دبر له مكيدة انتهت بسمل عينيه وخلعه عن الخلافة .

* * *

وبوفاة المتقى ارتقى سيف الدولة عرش حلب وبنى مجده السامق فيها بعد أن ترك أخاه يتابع دوره في الاحتفاظ بأرض الموصل التي نزلها الحمدانيون الأول . ودخلت الخلافة العباسية بعد وفاة المتقى تحت سلطة آل بويه الذين لعبوا دوراً كبيراً في مصير العراق وكان لهم النفوذ المطلق والكلمة العليا واصطدم ناصر الدولة بحرب جديدة مع « بني بويه » ظاهرها الاحتفاظ بالسيادة السياسية وباطنها الاستئثار بالمال .

* * *

وبينا كان سيف الدولة يؤسس ملك الحمدانيين في أرض الشهباء بعد أن انهارت قوائم ملكهم في الموصل في أواخر أيام أخيه ناصر الدولة كان أبناء ناصر الدولة يتقاتلون على السيادة والمال وقد أساءوا إلى أبيهم وانضموا إلى غيرهم

من الطامعين في هذه الأرض المباركة التي احتفظ بها أجدادهم الحمدانيون نحو أربع وسبعين سنة ، وكان خلافهم وقيام بعضهم على بعض مدعاة لأن يتقدم عضد الدولة البويهى ويطرد أبا تغلب ابن ناصر الدولة ويبسط نفوذه على البلاد ، وهنا تطوى راية الحمدانيين في الموصل وديار بنى ربيعة لتخفق من جديد في أرض الشهباء على يد سيف الدولة بن حمدان .

* * *

ونقف عند هذا الحد ، ونحسب أننا قد عرضنا بإسهاب غير ممل صورة صادقة للحمدانيين منذ نشأتهم الأولى حتى أواخر أيامهم في الموصل حيث تبدأ حياة أميرنا سيف الدولة . وقد حرصنا أن نربط تاريخ الحمدانيين بتاريخ بعض الخلفاء أو بهذه الأحداث التي هزت الدولة العباسية وكان من أثرها أن ضعفت كيان الإمبراطورية الإسلامية الكبرى . وقد أردنا بذلك أن نكشف لون ذلك العصر في تمهيدنا للدراسة حياة سيف الدولة الذى شهد بدوره هذا اللون القائم من هذه الحرب الرأسالية في شكلها الإقطاعى الفوضوى وخاض معامع كثيرة في الدفاع عن سيادات باطلة وأطماع دنيوية لاتمت إلى المثل العليا بشىء . فهل كان راضياً عن هذه الأدوار الهزيلة التي مثلت على مسرح الحياة ولعب بعض أدوارها بحماسة ونشاط أم كانت نفسه ترتفع إلى آفاق لا ترتبط بهذه الدنيويات؟ هذا ما سنتناوله في بحثنا القادمة .

والآن وقد فرغنا من الكلام عن الحمدانيين فلنحاول أن نرسم صورة واضحة للدولة الحمدانية ليتاح لنا أن نلج غمار بحثنا بكثير من الدقة والوضوح .

الدولة الحمدانية

أكانت دولة بالاصطلاح الدولى المعروف ؟

أكان ثمة جند وملك وسلطان ؟

أكان هناك قوانين تُشرع ونظامات تفرض وأسس أمة تبنى فى كنف تلك

الدولة ؟

قد يكون من المفيد قبل أن نتساءل عن ذلك أن نبحث عن معنى « الدولة » ومدلولها على ضوء التعاريف الحديثة .

ما هى الدولة ؟

يعرفها رجال القانون بأنها : « مجتمع ثابت مستقل يملك بقعة معينة من الأرض ويعيش فى ظل سلطة منظمة أو هى شعب منظم خاضع للقانون » . . . فهل هذا التعريف ينطبق على دول العصر الحاضر ؟ وهل يشمل هذه الدول الصغيرة التى تنبثق من جسم دول كبيرة ؟ أو هو تعريف عام يشمل جميع الدول المدنية التى تعاقبت على هذه البسيطة منذ عهد الرومان أو قبل الرومان حتى يومنا هذا ؟ نحسب أن لا حاجة لأن نلتوى عن القصد فالتعريف واضح لا غموض فيه وهو يفسر معنى الدولة بمراميها الواسعة سواء أكانت الدولة ذات سيادة أم كانت تحت انتداب وحماية .

لقد قامت بعد الحرب الكبرى دويلات كثيرة انفصلت عن جسم الإمبراطورية العثمانية فاستقل بعضها ولا يزال أكثرها تحت سلطات الانتداب^(١) ، وحتى الدول التى استقلت قد ارتبطت بمعاهدات وبروتوكولات يرى أذكاء رجال السياسة أنها لا تزال فى حكم الدول الواقعة تحت الانتداب ، لأن هذه المعاهدات الدبلوماسية التى تعقدها الدول الكبرى مع الأمم الصغيرة والتى تعترف لها بسيادتها واستقلالها تكون ذات مظهر خلاب يمس العَرَض دون الجوهر إلا فى بعض المظاهر الشعورية ! . . ومع هذا فإذا كان رجال التشريع لا يتحرجون أن يطلقوا على

(١) يلاحظ القارئ أن هذا البحث كتب قبل أن تتحرر أكثر البلدان العربية أى فى الفترة التى كانت خلالها واقعة تحت نفوذ الدول الأجنبية وسيطرتها .

هذه الممتلكات المنفصلة عن جسم الإمبراطورية العثمانية هذه الاصطلاحات التي تشير إلى صفاتها الدولية فأحر بنا - والدولة الحمدانية قد انفصلت عن جسم الدولة العباسية دون أن تقع تحت انتداب أو حماية أية دولة أخرى ، بل كانت تتمتع باستقلال فعلي كامل - نعم ، أحر بنا أن لا نقف موقف المتردد فيما إذا كانت الدولة الحمدانية ينطبق عليها هذا التعريف الدولي الشامل الذي ألمعنا إليه . وعلى ضوء هذا التعريف نستطيع أن ندل على كيان الدولة الحمدانية بأنها كانت دولة ذات مجتمع ثابت مستقل ، عاصمتها مدينة حلب التي انضوت تحت سلطة أميرها الفحل سيف الدولة بن حمدان والذي كان في حوزته جيش كبير كامل العدد والعدة ، حمى كيان دولته بحروب حامية الوطيس مع أعظم دولات ذلك العصر فاستولى على بلاد الروم واستولوا على بلاده كما أسر منهم مئات الآلاف من الجنود والقواد وأسروا منه نظير هذا العدد ففك أسرهم بماله وبأثمن ما لديه ، وكانت الحرب بينهم سجالات ، كما كانت مقاليد الحكم وشئون الإدارة بيد عمال هم أشبه بالولاة يرجعون في إدارة الملك إلى رأى أميرهم الحازم الشجاع ، وكان كل شيء يتم على أن الدولة كانت قائمة بكل مظاهرها الدبلوماسية المعروفة في ذلكم العصر .

* * *

لقد مرّ بنا أن الحمدانيين نشأوا في ديار بني ربيعة وملكوا الموصل وما جاورها سبعين سنة ونيفاً ولكن هذه الديار لم تكن خلال هذه السنوات تحت سيطرتهم الفعلية فقد جلوا عنها ثم عادوا إليها وكانت مرتبطة ببغداد مقر الخلافة . وقد حاول الحمدانيون أن يعطوها شبه استقلال مركزي فوفقوا مرة ونخلوا مرات وكانت المطامع توقظ حماسة غيرهم من المتغلبين ، وكانت الدسائس تلعب ، دورها والحروب العنيفة تقوم بقوة ، وكانت الثورات تعلن في وجه الخليفة الضعيف . . ومع أن هذه المآسى قد تكررت أكثر من مرة على مسرح الموصل فكان همّ أكثر الأمراء الحمدانيين الاستئثار بخيرات هذه الديار دون أن يلتفتوا إلى مفهوم الدولة وعزة الملك بمعناه الواسع الذي فهمه حفيدهم الأمير سيف الدولة .

خاض الأمير سيف الدولة الكثير من المعارك فانتصر وخذل ولكن نفسه الكبيرة التي عجنت بنخميرة المجد كانت تعلو على هذه السفاسف التي يبدو بريقها واضحاً في صفرة المال ! لقد كانت الحرب الرأسمالية بين متغلبى ذلك العصر قائمة على ساق وقدم ، ومع أن الأمير لم ينج من رشاش هذه الحرب التي خاض بعض ساحاتها مسوقاً بعصية عائلته إلا أن نفسه ارتفعت عن هذه الأوزار وسمت إلى ما هو أعلى وأسمى ، كان يترب نفسه على المجد حين انضوى تحت لواء أخيه ناصر الدولة دون أن يكون هدفه في الحياة هذه المغام التي كانت هدف الآخرين ، كان يتخذ المال وسيلة لرفع منار الأدب وصون وحدة العرب والنود عن كيان الوطن ... ولم يكد يبلغ الثلاثين من عمره - بعد أن خاض عدة معارك ودرس الحالة درس خبير مستقص - حتى رأى نفسه تجيش بخيالات ساحرة مغرية ، ما هذه الأحلام والخيالات ؟ هي خلق دولة عربية جديدة وسط تلك البراكين المتقدة التي ألمعنا إليها في فصولنا السابقة ، والتي رأينا في صورها غروب شمس الدولة العباسية وظهور أنماط مختلفة من متغلبى الأعاجم الذين كانوا السبب المباشر لزوال المملكة العربية الكبرى . نعم ، جاشت نفس سيف الدولة بهذه الأحلام المسكرة وسط سحب كثيفة دكنا من الأحقاد والمطامع وفوضى الاضطرابات التي كانت تغلي وتغور كالبراكين ، فالتفت حوالبه يزرع ببصره وفكره هذه الممالك الشاسعة يريد أن يقيم أسس دولته الجديدة في أرض بكر ، بعيدة إلى حد ما ، عن لوثات الأعاجم ودسائس المتغلبين ! . .

أين ترى تقع تلك الأرض ؟

لقد هداه ضميره إلى أرض الشهباء . .

إن الموصل في حوزة أخيه ناصر الدولة وهو يحله ويعبده دون الله ، إذن ، فليترك الموصل وديار بني ربيعة في يد أخيه وليتوجه إلى مدينة حلب . .

ترى لماذا اختار سيف الدولة هذه المدينة الحميلة الوادعة ؟

أفيا مناعة المدن الحصينة التي تصد هجمات العدو ؟

أتحيطها هذه الجبال المنيع الوعرة التي ترتد عنها الأبصار كليله ؟

لا . . . إنها تقوم على سهل منبسط فسيح قد تغنى الشعراء بجودة تربتها وطيب هوائها وجمال سماءها ، وفتنوا برياضها وبيساتينها الغناء التي كانت تبرز غوطة الشام بجمالها وفتنتها . وكانت قلعتها الأثرية التي تجثم في قلب البلد ، وقد عرفت عمر الزمن وخلود الحياة ، موضع إعجاب ودهشة الفاتحين الغزاة . أتكون قلعتها الجبارة هي التي أوحى إليه أن يختار مدينة الشهباء ليزرع في أرضها بنور مملكته الجديدة ؟ لعله نظر إلى أبعد من كل ما ذكرناه . . . لعله رأى في متاخمتها لأرض الروم ما حببها إليه ! لقد كان لازماً على سيف الدولة أن يقيم في أرض الشهباء وحدات جيشه ليقف حائلاً منيعاً دون هجمات جيوش البيزنطيين الذين كانوا يتطلعون إلى هذه الممالك التي آلت إلى العرب بعد أن فتحها الخلفاء الراشدون بثبت إيمانهم وصدق عزيمتهم . وكان البيزنطيون في حرقه ممضة لزوال هذه البلدان التي كانت في حيازتهم ، لذلك لم يتركوا فرصة دون أن يغيروا على هذه الثغور الإسلامية يحاولون استردادها . شجعهم على ذلك هذه الحروب الداخلية العنيفة التي كانت تثار بين المتغلبين والخلفاء في سبيل امتلاك خيرات بلاد هي في حوزتهم . لذلك رأى سيف الدولة أن يقف دون هذه الهجمات فبنى مملكته الجديدة في أرض الشهباء التي كانت متاخمة لأرض الروم .

هذا السمو في نفس سيف الدولة الذي ابتعد به عن المنازعات الداخلية ليحمي أرض الوطن هو الذي يجلونا أن نقدر فيه روح البطولة السامية . نعم ، لقد ارتفع بنفسه عن هذه الدنيا إلى ما هو أسمى وأنبى مقصداً . . . إلى خلق دولة جديدة وصون هذه البلاد التي جبلت أرضها بدماء الفاتحين . . . وما نحب أن نتوسع عند هذه الفكرة . فلماذا بحث طويل سنوفيه حقه حين نتكلم عن حروبه وغزواته . . . وما نحب أيضاً أن نجرد سيف الدولة من بعض الهنات التي نلصقها بغيره من الأمراء الماثعين الذين استطابوا الحياة السهلة اللينة في مجالس اللهو والشراب وفي جمال القدود وخلود الملاح ولم يعرفوا قط للوطن حقوقه ! . . . إنه كأمر جميل في فتوة عمره ورييق شبابه لم يكن يكره هذه اللذات بل لدينا ما يؤكد أنه عب من رحيقها المسكر حتى الثمالة . ولكن كان يفعل ذلك في ساعات

راحته وهدوء ضميره أى حين. يرجع من معركة عقد له فيها النصر وتوجه الشعراء بمئات قصائدهم الغر . إنه فى مثل هذه الساعات كان يستطيب اللهو والشراب ويسبح فى بحر من اللذات حتى إذ جدّ الجد ودعاه داعى المجد انتفض انتفاضة الأسد وارتفع بنفسه عن هذه المغريات المسكرة .

هذا السموّ فى بطولته التى كانت تبحث عن أرض بكر تتسع ميادينها للكرّ والفرّ ، وللقّاتال والسجال هو الذى هداه أن يختار مدينة « حلب » عاصمة لمملكته الجديدة ، فاختارها وابتعد عن أتون المنازعات الداخلية التى كانت تعصف ريحها بشدة ليزج بنفسه فى حروب تعلّى من شأن الوطن وترتفع باسمه إلى السماكين . لقد اختار الشهباء وهو عالم أنه سيخوض فى سبيلها عشرات المعارك الدامية . وكانت نفسه ترقص طرباً حين يدعوها نداء الكفاح فى سبيل الملك والمجد . . . وواجب الوطن عند سيف الدولة هو أمجد فى المكرمات من هناءة نفسه . . . وهذا الذى دعاه أن يعتمد عزيمته الكبرى بعد الله ويفرض نفسه أميراً على أرض الشهباء وما جاورها وأن يؤسس « الدولة الحمدانية » على أنقاض الإمارات الحمدانية التى أقامها أجداده فى أرض الموصل . ورسم الأمير لنفسه خطة وإن كانت جنورها تمت إلى الخطط القديمة التى بندها الحمدانيون إلا أن أمنيته الكبرى كانت تتجلى فى خلق دولة عربية جديدة فكان ما كان مما سنشير إليه .

* * *

لقد كدنا نبتعد عن موضوعنا الذى خصصناه بالدولة الحمدانية ولكننا لم نبتعد إلا لنقترب من أساس الموضوع . ويحسن بنا أن نتساءل الآن بعد أن انتهينا إلى أن « الدولة الحمدانية » كانت دولة ذات سيادة فعلية — ما هى حدودها؟ أين ابتدأت؟ وأين انتهت؟ ما هى البلدان التى دخلت تحت حوزتها؟ كم سنة عمرت؟ هل كان قيامها بقيام سيف الدولة ثم زالت بوفاته؟ . .

دخل سيف الدولة مدينة حلب عام ٣٣٣ هـ ، دخلها فاتحاً بعد أن انتزعها من أحد قواد الإخشيد سيد مصر الذى جهز على سيف الدولة حملة كبيرة تحت قيادة كافور فلاقاها بالقرب من حمص ، ثم حاصر دمشق وتابع

سيره حتى الرملة . وهنا ، وبعد قتال طويل ، رأى من المصلحة القومية أن لا يبتعد عن خطته المثلى في الاحتفاظ بحلب ليرد الغارات الأجنبية فتصالح مع الإخشيديين على أن يحتفظ بسورية الشمالية وأن يترك مدينة دمشق للمصريين .

وكانت حلب في عهد سيف الدولة عاصمة دولة تمتد من الموصل حتى تكريت ومن عانة على الفرات حتى البحر المتوسط مُشكّلةً على التقريب خطأً مستويًا يمر من جنوبي حمص . وكانت ممتلكات الدولة الحمدانية في الشمال تمتد نحو منطقة كليكية وملاطية وديار بكر حتى مدينة خلاط الواقعة على بحيرة « وان » ، وكانت الأماكن المهمة عدا حلب هي أنطاكية وحماة وحمص وتدمر وقنسرين وإعزاز وكفر ناب ودولوق وتل بشير وسرمين وبالس ومنبج واللاذقية ، وطرطوس والرقّة وأطنة وأرقة ومرعش وحران وديار بكر ، وملطية وحسن منصور وروم قلعة وما جاورها من هذه البلدان التي تقع على ضفتي الفرات والدجلة وبعض شطآن البحر المتوسط .

لقد ظلت الدولة الحمدانية هذه مدة تنيف على السبعين عاماً . انتهت كما بدأت ضعيفة تارة وقوية تارة أخرى ، ولم يقو نفوذها وتشتد شوكتها إلا في عهد الأمير سيف الدولة الذي رفع من شأنها وخلّد ذكرها وعرف كيف ينهض بها إلى السماكين ، وهذا يؤيد ما نذهب إليه دائماً من أن الفرد هو الذي يخلق الأمة وينشئ الدولة ، والأمير سيف الدولة هو الذي خلق الدولة الحمدانية وفرض اسمها على التاريخ .

حلب

حلب معقل والمنتبى شاعرى
سيف الدولة

حلب مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات ، طيبة
الهواء ، صحبة الأديم والماء .

ياقوت الحموى فى معجم البلدان

أى حسن ما حوته حلب أو ما حواها
سروها الدانى كما قد نو فتاة من فتاها
الصنوبرى الشاعر

هى الخلد تجمع ما تشهى فزرها فطوبى لمن زارها
كشاجم الشاعر

* * *

من حق الأدب علينا ونحن ندرس حياة سيف الدولة ، وقد وصلنا بدراستنا
عن الحمدانيين إلى حلب ، هذه المدينة الجميلة الوداعة التى تحتويننا والتى احتوته
قبل ألف عام فزهت به وزها بها وأقام فى ربوعها للأدب دولة لا تزال تتعطر
كتب التاريخ بذكرها - نعم . من حقنا أن نخصها بكلمة أو بفصل نأتى على
موجز تاريخها توفية للبحث وخدمة للتاريخ . .

وقد يكون من العسير جداً أن نأتى على تاريخ حلب بهذه الصفحات
ولهذه المدينة تاريخ عريق فى القدم يقتضى الباحث أن ينقب ويرجع إلى العصور^١
السحيقة ليكشف عن تاريخها بدقة وتمحيص وإمعان ، وأن يربط بين تاريخها
القديم فى أيام الحثيين والفراعنة وتاريخها فى العصور الإسلامية . .

وإذا لم يكن هنا مجال هذه الدراسة الواسعة فلا أقل من أن نمر بتاريخها مروراً
سريعاً وأن نقتصر على خلاصات تعطى قارئ هذه الفصول فكرة صحيحة غير
مشوشة عن هذه المدينة المباركة التى جرى فى أراضيها الكثير من الأحداث.

التاريخية سواء ما كان منها ذا علاقة بالسياسة والحرب أم بالأدب والفلسفة والعلم !

* * *

حلب ، عاصمة الحمدانيين ، أو حلب الشهباء كما غلب عليها هذا الاسم ، مدينة قديمة ترجع في قدمها إلى أبعد حدود التاريخ . . بل هي كما يقول المستشرق الألماني زوبرنهايم الذي كتب فصلاً ممتعاً عن مدينة حلب في دائرة المعارف الإسلامية : « إنها من المدن القديمة القليلة التي لا تزال موجودة حتى الآن . . » أي أن كثيراً من المدن القديمة قد انهارت مع الأيام وأسدل الدهر عليها ستار النسيان إلا بعض مدن تاريخية قليلة منها هذه المدينة . وقد لا يعرف بالضبط من الذي بناها وأقامها في هذه البقعة من الدنيا . . على أن أكثر المؤرخين يتفقون على أن الحثيين هم الذين بنوها . . وليس في هذا أي نبوءة عن التاريخ إذا علمنا أن هذه المدينة قد جاء ذكرها كثيراً في النقوش الأثرية والمدونات التاريخية القديمة التي ترجع لألفي سنة قبل الميلاد حيث كان الحثيون يقيمون على ضفاف الفرات بالقرب من مدينة جرابلس أو قلعة « قره مش » ينشرون مدنياتهم وينصبون تماثيلهم ويشيدون معابدهم ويقيمون المدن توسيعاً لمملكته . . وكان من جملة المدن التي بنوها هذه المدينة التي رددت ذكرها النصوص البابلية والآثار الآشورية والنقوش المصرية القديمة وعرفت باسم حلب Hallab و Hallav وحلوان Hallwan . وقد كشفت الحفريات الحديثة التي جرت في وادي الملوك مؤخراً بعض نقوش وكتابات أثرية رسمتها يد النقاشين بأمر رعمسيس الثاني على جدران الكرنك والأقصر وفيها ذكر صريح لهذه المدينة التي جرت في أراضيها حروب دامية بين ملوك الفراعنة وملوك الحثيين انتهت بمعاهدات صداقة وود وولاء ، وعرفت المدينة بهذه النقوش والكتابات إنها « مملكة صغيرة خاضعة للملك الحثيين باسم - حَلَبُو - » . على أن هذا الاسم قد أصبح « حلوان » في عهد الآشوريين و « بيروا » في عهد اليونان والرومان ثم عادت تحمل اسمها الأزلي في عهد الفرس ، ونعتت بالشهباء لافتراضات مختلفة ليس هنا مجال بحثها ومناقشتها . . نعم ، ومع أن اسمها قد تطور خلال هذه الأجيال من خَلَب إلى

حلبو إلى حلوان إلى بيروا عادت تحمل اسم خَلْب بالصيغة الآرامية وحلب بالصيغة العربية التي عرفت بها من أجيال سحيقة حتى يومنا هذا . . .
ويلاحظ القارئ أنه قد مرّ بهذه المدينة ما يقرب من عشر أمم كبيرة ذات نزعات مختلفة في الدين واللغة والدم. من الحثيين إلى الآشوريين إلى المصريين إلى البيزنطيين إلى الفرس إلى العرب ثم الترك فالإنكليز فالفرنسيين ؛ ومع هذا ، ومع كل ما مرّ بها من عادات وأخلاق وديانات وحروب وثقافات متباينة لا تزال هي المدينة الحاملة التي تصبر على ضغط الحدثان فتأخذ من كل أمة أظهر ما فيها من خصائص لتخلق في نفسها هذه المناعة التي تقوى على مغالبة الزمان وأحداث القلر العاتى . . .

ولعل إيمانها بالبقاء هو الذى جعلها تخلد على الأيام رغم ما مرّ بها من أحداث وصروف عاتية منذ عشرات الأجيال . وظلت أجمل مدينة زاهية في سورية الشمالية كلها . . . كانت حلب في العهود القديمة مدينة كالمدن ، ولم تلمع وتزدهر بالعمران إلا بعد الفتوح الإسلامية حيث أصبحت أشبه بثغر عذب المرشف يتطلع إليه الروم ويحتفظ به العرب كأثمن قنية غالية . . . نعم ؛ كانت في عهد البيزنطيين مدينة كالمدن العادية لا ميزة لها على غيرها إلا كونها مدينة محصنة من الصعب جداً أن تمتد إليها الأيدي المغيرة الجائحة . . . ولكن فتوحات العرب لم تكن ألعيب وخدعاً بل كانت سيلاً ينهمر وناراً تاتهم وقدراً يجرى . . . واخترق العرب هذه الحصون . . . كيف ؟ إنهم لم يحطموها ولم يدخلوا المدينة حرباً بل استسلمت إليهم وعاد السكان الذين نزحوا إلى أنطاكية خوفاً من بطش الفاتحين — إلى مدينتهم الوادعة بعد أن وثقوا من أن هذا الفتح يحمل في أطوائه قبساً مشعاً من روح التسامح وينشر على أرضهم برداً وسلاماً لا ناراً ولا حمماً !

يقول مؤرخو الفرنجة إنه حين أخذت فتوحات العرب تمتد إلى هذه الربوع كانت حلب مدينة ذات طابع سورى لا يمت إلى البيزنطية بشيء . . . كان يقطن بجوارها قبائل عربية قديمة . . . وكانت هذه القبائل على رواية البلاذرى تقطن بالقرب من المدينة . في مكان يدعى « حاصر حلب » ، يجمع أصنافاً من

التنوخيين وغيرهم من قبائل العرب التي كانت تنزح إلى المدينة فتجد ماكلها ومشرها حين يقل الكلاً وتجذب الأرض من انحباس المطر . . وكانت الروح العربية بسبب هذه الأواصر تغمر المدينة في كثير من مظاهرها لذلك لما تعرض العرب لفتح حلب سنة ١٦ هـ بقيادة خالد بن الوليد لم يجلوا أدنى مقاومة جديدة . . وقد سلمت المدينة إلى القائد أبي عبيدة بن الجراح صالماً في خلافة الفاروق فأمنهم على حياتهم وأموالهم وصان كنائسهم ومعابدهم ولم يتعرض أحد إلى حرمة منازلهم وهذا الذي حجب هذا الفتح إلى نفوسهم فأسلم بدخول الفاتحين المسلمين رهط غير قليل من العرب حالاً وظل البعض على وثنيهم وآخرون على نصرانيتهم حتى خلافة عبد الملك . |

وأخذت المدينة تزهر وتنعم بحياة جديدة في ظل الإسلام . . وأخذ الناس يبنون البيوت ويقيمون القصور ويأمنون بحياة العمران التي استبحرت ليس في قلب المدينة بل في أطرافها حتى اختار غير واحد من الأمراء الأمويين الإقامة في حلب وضواحيها ولم يتخرجوا أن يفضلوها على دمشق الفيحاء على ما في ربوعها من جنان مخضلة هي صورة من جنان الخلد كما يصورها الشعراء . فبنوا في المدينة وفي الضواحي قصوراً فخمة تهدم أكثرها مع الأيام ولا يزال بعضها يشهد على بقايا آثاره الحدثان ! . . ويعدد مؤرخو العرب عدة قصور ممتازة منها القصر الذي أنشأه مسلمة بن عبد الملك في ساحة الناعورة وعلى ضفاف النهر ، وقصر سليمان بن عبد الملك الذي تألق جداً في بنائه وزخرفته والذي هدم بأمر السفاح حين استولى العباسيون على حلب ! . وقصر الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي بناه على هضبة عالية من جبال الحص وعرف بقصر بخصره والذي كان يستطيب النزول فيه كثيراً . . وقصر صالح بن علي بن عباس في بطياس شرقي حلب وغربي قرية النيرب ، وقصر هشام بن عبد الملك في رصافة الرقة وقصور بني حمدان وغيرهم مما أصبح جميعها أثراً بعد عين .

وظلت حلب بعد الفتح الإسلامي مدينة عربية مرتبطة بدمشق في عهد الأمويين وبيغداد في عهد العباسيين إلى أن دخلت في حوزة سيف الدولة فأعلن

استقلالها منفصلة عن بغداد . ولهذا يعتبر مؤرخو العرب والإفرنج معاً أن لتاريخ حلب — بعد أن أصبحت مملكة ذات سيادة — ارتباطاً وثيقاً بحياة سيف الدولة لا سيما في موقفها المجيد بصد هجمات البيزنطيين الذين حاولوا استرداد هذه الربوع من أيدي العرب عشرات المرات فصدتهم ولاقهم بجيوش كثيفة قادها الأمير سيف الدولة الذي استطاع بفروسيته النادرة وإقدامه وحماسة وشجاعته أن ينقذ الموقف وأن يحفظ لسورية كلها خصائص المدن الإسلامية دون أن تعود لتدوب من جديد تحت حكم البيزنطيين ! . .

وإلى موقفها الحربي في صون كيان سورية القومي من عبث الطامعين احتضنت هذه المدينة في عهد سيف الدولة — خلال القرن الرابع الهجري — أعظم الشعراء وأكبر الأدباء المبرزين وصفوة غير قايمة من القضاة وعلماء اللغة ومن الفلاسفة والموسيقيين فكانت منتدياتها وهذه الحلقات الأدبية التي غمرها الأمير بعطفه ملتقى لمناظراتهم ومناقشاتهم في الأدب والشعر والفن والفلسفة مما عاد على آدابنا القديمة بثروة دونها هذه الثروة الأدبية التي عرفتها الآداب الفرنسية والتي كانت نتاج هذه المناقشات التي أثارها صالونات الأدب في عهد لويس الرابع عشر . . ولم تكن هذه المناقشات الأدبية ذات لون باهت في ناحية واحدة بل كانت ذات نواح متعددة تغمرها أضواء مشعة لأن المتناقشين كانوا يمتازون بثقافة مزدوجة من فلسفة الإغريق وأدب العرب والإسلام . . ولن نتوسع هنا في هذه الناحية لأن لهذا البحث محالاً واسعاً نرجو أن نوفيه حقه بكثير من الإسهاب.

* * *

يحدثنا المستشرق [غوستاف سيشلمبرجر الذي اعتمد في بحثه عن حروب سيف الدولة على مؤرخين بيزنطيين رافقوا الإمبراطور نكفور فوكاس في رحلته إلى حلب ، إلى هذه المدينة التي أسماها مدينة الفروسية والفنون ولم يتخرج أن يراها مدينة تشابه بيزنطية في كل شيء — بأن الدهشة قد هزت قاب فوكاس من عظمة حلب — وهنا يقول المستشرق :

« ولقد دهش الإمبراطور نفسه عند دخوله عاصمة الأمير من فخامة المدينة

وروائها ومن زخرف أسواقها وأناقة قصورها ، بل لقد شعر قيصر الرومان بالحسد من تفوق حلب على القسطنطينية ، وكان من حقه أن يشعر بالحسد لأن الفكر العربي الذي جاء وليد الفكر البيزنطي قد ابتدع شيئاً جديداً لم يألفه مؤسسو المدن والعواصم من قدماء الإغريق^(١) .

ويصف المستشرق أندره دايفتش مدينة حلب التي تراءت لسيف الدولة حين دخلها لأول مرة بقوله : « وتراءت للأمير المدينة بسطوحها المرمية وقصورها الشاهقة وجوامعها التي تناطح مآذنها السحاب وقلعتها الضخمة الحمراء التي تشبه تاجاً من الأرجوان لهذه المدينة الشهباء » .

وكثير من كتاب الإفرنج المعاصرين لا يزالون يرون الشرق مجتمعاً في مدينة حلب وأعجب ما يروقههم فيها أسواقها وجوادتها وجوامعها وقاعاتها الأثرية الخالدة . وقد أوجت هذه المدينة الوداعة الكثير من الخيالات السحرية لشعراء العرب فخصوها بالكثير من مدحهم ووصفهم وحننوا إليها حنين المشوق المقيم كالبحتري والصنوبري وكشاجم الذي كان مفتوناً بأشجار السرو التي تغمر المدينة وأعل سرورها الجميل وأرصفها الرومانية وقصورها التي يمت طراز بنائها إلى بيزنطية هي التي أوجت إلى قيصر الرومان أن يرى وجه التشابه قريباً بينها وبين إستانبول في ذلكم العهد . . ومن كبار شعراء العرب الذين أشاروا إليها إشارات لطيفة في شعرهم المتنبي والمعري والخفاجي وابن حيّوس وأبو فراس والوزير المغربي وابن العباس وكثير غيرهم ممن حملوا عاطفة صادقة نحو هذه المدينة التي التمسوا في ظلال مغانيها ونضير ربوعها عبق أنسهم ونعيم لهوهم فحببتهم بما عندها من حب وحنو ولم تضمن عليهم بأجمل وألد الذكريات ..

وكتب التاريخ تصف بإسهاب ما كانت عليه المدينة في عهد الأمير الحمداني من مجد وزهو وعمران واستباقها المدن المجاورة لاحتضان ثقافة البيزنطيين وكل ما أخذته العباسيون عن حضارة الفرس والإغريق حتى أصبحت

(١) معروف الأرنؤوط في « قتي العرب » .

بقية العواصم والبلدان كدمشق وبغداد تحسدها على مركزها المبنى بالحديد وتتمنى
 لو أن لها بعض صوره وألوانه ! . . . ولكن هذا المركز الأثيل الذي تمتعت به في
 عهد الحمدانيين لم يطل . . . لأن المدن تزهر بازدهار الملك وسؤدد الساطن . .
 بلى . . . وللمدن كما للأشخاص غفوات طويلة تسدل الأحداث على حيويتها ستار
 النسيان . وهذا ما منيت به حلب . . . وكأن جهادها في حمل عبء النضال
 القومي والتراث الفكري حقبة من الزمن قد آذ ظهرها أو كاد فأثرت الراحة والنوم
 بعد أن دخلت تحت حكم الفاطميين ثم العثمانيين ، وظلت مدينة لا تمتاز عن سائر
 المدن بشيء إلا بوداعتها وانزواتها عن صخب الحياة ، وبأحداث مرت بها مروراً
 سريعاً ليست ذات بال ، حتى كان القرنان السابع عشر والثامن عشر فانتبهت
 لمركزها الجغرافي وأخذت توثق هذه الصلة بين الغرب والشرق عن طريق التجارة
 الواسعة حتى أصبحت في مدة قريبة أكبر مركز للترانسييت في الشرق الأدنى ،
 فأمتها تجار من أكبر عواصم الغرب فرنسيون وألمان وهولنديون وإنكليز
 وبلجيكيون وبندقيون وغيرهم وغيرهم ، حتى أصبحت العصب الحى لنمو التجارة
 وازدهار الصناعة وخلق صلات وثيقة بينها وبين أقصى الأناضول وحتى أبعد
 حدود العراق وفارس والهند . . . وحسب القارئ أن يعلم أنه كان في حلب
 سنة ١٧٧٠ م ثمانون محلاً للتجارة الأوروبية لأصحابها ممثلون ووكلاء رغم بعد
 المسافات وعدم وجود هذه الوسائل والمواصلات التي نعرفها في يومنا هذا ! .

وظلّت المدينة في ثروة ضخمة وبمجموعة من العيش واسعة حتى أضاعت قسماً
 كبيراً من ثروتها في منتصف القرن التاسع عشر بسبب الأحداث العظيمة التي
 مرت بها كالزلازل والأوبئة وهذا الاضطراب الذي كان يسودها من سوء إدارة
 الحكم وغيرها . . . ثم استعادت مركزها في مطلع القرن العشرين ونشطت نشاطاً
 عظيماً في إبان الحرب العالمية الأولى والثانية أثرت من ورائه ثروة ضخمة
 ما لبثت أن تبخرت بكثافة الأيام والأزمة العالمية الخانقة التي تلتها فاستحوالت
 مدينة منعزلة تشهد بقلب حسير زوال مجدها التجاري إلى أن نهضت في الآونة
 الأخيرة تستعيد مجدها السابق .

على أن المؤرخين والأثريين حين يتحدثون عن هذه المدينة يتناولون بإسهاب هذا الفن المعماري البديع الذي تمتاز به عماراتها القديمة والذي هو خلاصة من تطور الفن الإغريقي والفن الإسلامي ممزوجين بشكل يجمع إلى الوضوح والإشراق هذه السهولة المعمارية التي تزيد في جماله وروعته . . ولا يترددون أن يقولوا إن آثار حلب تعطينا صورة واضحة عن تطور الفن المعماري في الشرق .

وقد كانت المدينة منذ العهد البيزنطيين محصنة بجدران من أطرافها الأربعة حتى كانت تبدو بشكل مستطيل . وقد هدم هذه الجدران خسرو الأول الذي احتل المدينة في أثناء مروره بسورية سنة ٥٤٠ ق . م . ولم يمس القلعة بسوء . على أن هذا الهدم الذي تناول الجدران قد أعيد ترميمه وظلت الجدران محافظة على شكلها الأثري خلال العصور الإسلامية الأربعة وهذا الذي جعل سيف الدولة يقول عن حلب إنها معقله الحصين . . يؤكد ذلك ما رواه ابن بطلان المتطبب إلى هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي حوالي سنة ٤٤٠ هـ وقد وصف المدينة وصف مشاهد عيان بقوله : « ودخلنا حلب من الرصافة في أربع راحل ، وحلب بلد مسور بحجر أبيض . وفيه ستة أبواب » . وأهل أعظم أثر بارز في آثار حلب عدا جوامعها وأسوارها ومداخل أبوابها هو قلعتها التاريخية التي يحيط بها خندق واسع كبير . . ويظهر أن القلعة قد بنيت مع المدينة فهي تمت بقدمها إلى قبل الميلاد بألfi سنة تقريباً . وقد جاء ذكرها كما ذكرت المدينة في الكتابات القديمة والنقوش الأثرية — المصرية والآشورية والحثية — ولا تزال حتى يومنا هذا جامعة في قلب المدينة كأنها عظة حية من إعظات الحوادث .

لقد مر بها الفاتحون ونزلها الغزاة وشهدت أروع المعارك التاريخية وسالت على جوانبها دماء واحتفى بها ملوك وظن الجميع أنهم ملكوها إذ اعتصموا بها ووضعوا جنودهم وحراسهم على مغالق أبوابها ومنافذ أسوارها ولكن هيهات هيهات ! ولا شيء في حلب أجمل من القلعة في فصل الربيع حين يكسو ظاهرها من القمة حتى سهل خندقها هذا الاخضرار الذي يزيدها فتنة وجمالاً . ومن يرتقى ذروتها العليا ويشرف على المدينة تظهر له بيوتها الجميلة ومآذنها المرتفعة وحدائقها

وسهولها الواسعة أشبه بفتيات جميلات التففن حول أب رحيم يفيض عليهن الحب والود والابتسام^(١).

وحلب ، اليوم ، مدينة تجنح إلى مظاهر الحداثة أكثر من جنوحها إلى القدم . العمران فيها آخذ بالازدياد . تتمتع بما تتمتع به المدن الحديثة من المظاهر الحيوية ، ولولا شح الماء فيما مضى^(٢) لأصبحت بما حباها الله من

(١) يرجع تاريخ قلعة حلب ، كما رواه الأثرى الفرنسى بلوا دى روترو إلى خمسة آلاف سنة خلت ، اشترك في بنائها كثير من الأمم أخصها بالذكر الحثيون والفرس واليونانيون والرومان والعرب . ارتفاعها ٣٧ متراً يضاف إليها ٢٢ متراً عمق الحفرة التى تكتنفها . شكل السور أضمارى . ارتفاعه ١٢ متراً ، هدمته زلازل سنة ١٨٢١ ، يبلغ طول دائره ٩٠٠ متر . أجمل ما فيها يرجع عهده إلى القرن الخامس عشر ويحتوى على :

١ - رواق طويل له ست قواعد فرشت أرضه بالحصى المخططة .

٢ - طابق أولى فيه غرف جميلة تطل على المدخل .

٣ - وفي الأعلى غرفة واسعة ، مترامية الأطراف كان يسكنها أمراء حلب .

وينتهى ذلك الرواق إلى باب كبير ضخم منزه في أحد الأطراف مما يزيده مناعة . وهو مصنوع من الحديد ، لم تقو عليه أيدي الدهر ولم ينل منه الأعداء في جميع أدوار حياته . ينسب المؤرخون بناء هذا الباب إلى الملك الظاهر ، ولا تسير ثلاثة أمتار أو أربعة حتى يمتدحك باب آخر يحرسه أسدان وإلى جانبه سلم يرتقى بك إلى السرايب الخفية الخاصة بالملك وحاشيته وتتلو ذلك غرفة اسمها « غرفة الدفاع » وفيها بئر عميقها ٢٤ متراً تتصل بمجاري الماء الملتوية تحت الأرض وإلى جانب هذه الغرفة فتحة سرداب عميق تنزل فيه ستين متراً فيصل بك إلى أروقة طويلة كثيرة الظلمة والارتفاع ، وبالقرب من هذه الأروقة مذبح لا يزال يحتفظ بمحرابه ، وتقف بعد ذلك أمام الباب الخامس وقد زينه العرب بأسدين ضخمين أحدهما يضحك والثاني يبكي . وتنتهى بعد ذلك إلى طريق طوله عشرون متراً صفت إلى جانبيه غرف أعدت للجند وللأسلحة وللخيل . وفي القلعة الغرفة الفارسية ، بنيت في عهد الفرس وأصلحها العرب ، قبتها آية الفن الفارسي وهى مؤلفة من أحجار مربعة من الطوب تزيدها جمالا وروفاً . اتخذت في القرن الثالث عشر سجناً وهى واسعة جداً ويبلغ ارتفاع المثانة بعد القلعة ٢١ متراً أما القصر فكان يقطنه أمراء حلب وخلفاؤها وعظماؤها بعد القرن الثانى عشر وأجمل ما فيه باب الجناح المعد للحريم .

(٢) ظلت حلب فترة طويلة تشكو قلة المياه ، كانت تسقى من آبار وقناة قيل إنها بنيت في زمن الأشوريين والفرس . وقيل أيضاً إنها أنشئت في زمن الملكة هيلانة أم قسطنطين الرومانى وإنها سميت باسمها ، وسواء صح هذا القول أم ذاك ، فالحقيقة التى لم يتحرب إليها الشك هى أن الرومانيين انصرفوا إلى العناية بالقناة ، وتعهدوا بالإصلاح ، وعملوا على توسيع شبكة التوزيع داخل المدينة البيزنطية ، ولكن الماء لم تزد كميته على كر الأيام والأعوام على الرغم من ازدياد عدد السكان . وعمل الأمويون على توسيع القناة فم لم ذلك في زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ، وتحت =

هواء طيب وأرض بكر ونزعة إلى كل جديد من أجمل مدن الشرق .

هذا إجمال تاريخي عن حلب رأينا من الواجب الإشارة إليه توطئة
لبحثنا عن دخول سيف الدولة هذه المدينة التي رافقت أحداث التاريخ
وقامت بنصيبها الواسع - كما قلنا - من حمل التراث القومي والأدبي واحتضنت
خلاصة طيبة من رجالات الفتح والفكر فأحبوها وأخلصوا لها الود والعطف كما
غمروها بحبهم وعنايتهم فكان حظها في عهد الأمير الحمداني من ألمع الحظوظ
وسمت بمجد في المكرمات دونه السماكان .

=ضغط تضخم عدد السكان من جهة، وجفاف طاريء من جهة أخرى قام الأمير سيف الدين الأرغون حاكم حلب في عام ١٣٣٤ ميلادية بتحويل قسم من نهر الساجور إلى وادي قويق بطول أربعين كيلومتراً، ولكن زلزالاً حدث في عام ١٥٤٤ هدم مجرى النهر ، ونزح قسم من السكان عن المدينة ، حتى كان عام ١٦٥٠ م حيث تبرع أحد أثرياء المدينة المسمى نعان آغا فأعاد الساجور إلى مجراه الأول ، ولكنه ما لبث أن اندثر للمرة الثانية بسبب فقدان الصيانة . وفي عام ١٨٩٣ م انحبت الأمطار وأصاب المنطقة جفاف شديد واكتتب الأهليون في إنشاء مجرى لمياه الساجور ولكنهم لم يوفقوا . وفي عام ١٩١٤ - ١٩١٥ استجرت مياه عين التل واستهلكت بكيات ضئيلة ولغايات محدودة . ومنذ عام ١٩٢٥ نصبت مياه نهر قويق وجف النهر تماماً في فصل الصيف بسبب استعماله فري في شمال الحدود السورية ، ونتيجة لانخفاض الطبقة المائية جفت الآبار ، وتدفى مستوى مياه عين التل وأصبحت الكيات التي تنضحها المضخات أكثر بكثير من التي توفرها الطبيعة . وبعد أن كان عدد السكان قبل خمسة وعشرين عاماً ٢٠٠ ألف نسمة ، أصبح يقارب الآن نصف مليون و إلى جانب ذلك ارتفع مستوى المعيشة ونشط العمران ، وازدهرت الأعمال ، وراحت حلب تشكر الظمأ والجفاف من جديد ، وضجت المدينة بالشكوى ، فكان أن ولد مشروع جر مياه الفرات إلى حلب بموجب القانون الصادر بتاريخ ٢٩ أيار ١٩٤٧ ، وفي آذار من عام ١٩٤٩ جرى التعاقد مع شركة كبرى لتحقيق هذه الفكرة .

وفي خلال سنوات خمس ، أي سنة ١٩٥٥ تم إنجاز المشروع وشرب الحلبيون ماء فراتاً وما يزالون . . .

ومياه الفرات تؤخذ من قرية عاروضة التي تعلو ٢٨٨ متراً عن سطح البحر بعد ترسيبها بصورة ابتدائية وإزالة الأوحال منها ، ثم تدفع داخل قساطل معدنية إلى ثلاث محطات حيث تصفى تصفية نهائية وتعقم بالأزون آخر مخترعات الفن الحديث ، ثم تدفع مسافة ثلاثة كيلومترات إلى الخزان الرئيسي الذي يستوعب ٢٥ ألف متر مكعب ، وهو يعلو ٤٣٠ متراً عن سطح البحر ، ومنه تتفرع المياه داخل شبكة التوزيع .

هذا ، ويبلغ طول مجرى الماء من نهر الفرات حتى مدينة حلب ٩٥ كيلومتراً منها ١٤ كيلومتراً تقريباً قساطل حديدية و ١٤ كيلومتراً قناة كلها من البيتون المرجوج . (عن تقرير مصلحة مياه حلب)

دخول سيف الدولة إلى حلب

« كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء أوجههم للصباحه ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسباحه ، وعقولهم للرجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسطة قلاذتهم » .

« . . وكان حضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرحال ، وموسم الأدباء ، وحلبة الشعراء . ويقال إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر . . . وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر . . . شديد الاهتزاز لما يمدح به » .

الشعالي في « يتيمة الدهر »

لقد أشرنا إلى غروب شمس الدولة العباسية وما كان من ضعف الخلفاء واستبداد العمال وتغلب النزعات الأعجمية على الروح العربية الصميمة وانبثاق دويلات في أطراف المملكة الإسلامية كان همّ رجالها أن يستأثروا بخيرات هذه الممالك وتوطيد نفوذهم الشخصي وإرهاق الشعب بضروب من العسف دون أن يفيدوا كيان الملك بشيء . . . ثم تحدثنا عن هذه المهانات التي أصابت غير واحد من الخلفاء العباسيين ، وبالأخص الخليفة المتقي بالله ، والتجائه إلى الحمدانيين الذين رعوه أحسن رعاية وصدّوا عنه عسف الديلم وترك غير مرة ، وكيف أن القائد التركي « توزون » لعب ذلك الدور الدنيء الذي بدأه بالخضوع بين يدي الخليفة ثم بالانتفاض عليه وسمل عينيه وخلعه عن الملك على أثر مؤامرة لعب فيها الكيد والدس وطمعى في إنجاحها المال وسلطان النساء ! . .

كانت هذه الفصول تمثل على مسرح الدولة العباسية التي تفككت أوصالها شذراً مذر وسادها الاضطراب والفوضى في كل بقعة من بقاعها . . وقد شهد أميرنا الشاب هذه المآسى فاربداً وجهه واضطرب ، وإذ غاص في أوحالها إلى الأعماق وأحسّ بالمهانة التي تحز في كيان الدولة امتلاً صدره بالحقد من طغمة الأغراب المرتزقين الذين كانوا السبب في تفكك هذه الإمبراطورية الإسلامية

العظيمة ، ورأى أن يتجه إلى بقعة يستطيع بما في نفسه من قوة وعزم أن يعيد للدولة العربية بعض كيائها وأن يرفع للعروبة رايتها الخافقة بتأسيسه « الدولة الحمدانية » التي نستطيع أن نعتبرها دولة انبثقت عن الدولة العباسية كالإخشيدية سواء بسواء. وقد رأى أميرنا الشاب أن أرض الشهباء هي خير مرتع خصب لتحقيق أمنياته وآماله فنزلها على رأس جيش لا تتحدث كتب التاريخ عن مقداره وعدده ولكن هذا لا يمنع أن تقدره بعشرين ألف فارس أو ثلاثين بالاستناد إلى هذه الغزوات والحروب التي خاضها في أراضي الرافدين حيث رد هجمات الديلم فكان تحت إمرته ما يقرب من هذا العدد أو يزيد . .

دخل الأمير هذه المدينة الوادعة وهو يحمل في نفسه جيشاً من الآمال العظام . . وأي أمل أعظم من أن يقيم مملكة عربية تتحدث عنها الأيام بكثير من الزهو والفخر . وقد كان له ما أراد . . وهل كانت الحوادث الجسام في التاريخ سوى أثر ميل شخصي ينبثق في نفس قائد عظيم فيعمل على تحقيقه ولو أدى ذلك إلى حتفه وإلى تطويع شعب بأسره ؟ . . ولا نضرب الأمثال لأن الشواهد على ذلك كثيرة في التاريخ القديم والحديث . ولو بشئ سيف الدولة من أول صدمة ووهن عزمه وقبع في أرض الموصل تحت كنف أخيه ناصر الدولة أو رضى باستقلاله بـ « واسط » وولايته على ديار بكر وميتافارقين — لما كانت « الدولة الحمدانية » ولما رأينا صورة حية من ازدهار الأدب في عهد بني حمدان — مع أن العصر كان موسوماً بطابع الفوضى والاضطراب — ولكانت غزوات الروم أتت على هذه البلاد فأعادتها بقاعاً رومانية لا أثر قط للعروبة في ربوعها . . ولكن سيف الدولة ذو مضاء وحزم وعبقريّة فاعتمد نفسه وصان هذه البلاد من هجمات الروم الجاثحة ، واستطاع أن يلعب دوراً كبيراً في صد غزواتهم وردهم إلى أراضٍ بيزنطية . . وإذا كانت صحف التاريخ القديم لم تتناول هذه النواحي بالدرس المفصل والإشادة بعظمة سيف الدولة فالواجب يقضى علينا أن نسجلها له اليوم بكثير من الفخار والتمجيد . .

دخل سيف الدولة الشهباء عام ٣٣٣ هـ فأعلن ملكه عليها في حفلة

بسيطة ليس فيها أى مظهر من مظاهر الملك لأن وضعية البلاد الشاذة وتحفز الروم للهجوم والاستيلاء على هذه البقاع ثم هذه الانقسامات الداخلية التى كانت تهز البلاد هزاً عنيفاً هى التى جعلته لا يهتم بهذه المظاهر العرضية .

وقد يكون من الفائدة - قبل أن نعرض إلى بدء حكمه فى حلب - أن نرسم للقراء بأية سلطة كانت تحكم هذه المدينة ثم نعرض إلى جودر الموضوع .

لقد كانت هذه المدينة قبل دخول سيف الدولة إليها مسرحاً خصباً للمنازعات ، كانت تشهد هذه الاضطرابات فى أطراف المملكة الإسلامية فتألم وتثور فى نفسها شتى الميول والأحاسيس ، وكان يزيد فى ألمها هذا الطغيان الذى ينالها أحياناً من القبائل المجاورة وأخصها قبيلة « بنى تميم » التى هجمت غير مرة على البلد فعات أفرادها فى الأطراف ونشروا ضروباً مختلفة من القساوة والظلم فشكت المدينة أمرها إلى الخليفة المقتدر الذى انتدب الحسين بن حمدان - عم سيف الدولة - وكان « بالرحبة » فسار إلى بنى تميم ولقى منهم جماعة بـ « خناصره » فقاتلهم قتالاً شديداً وأسربعضهم ولم يترك الشهباء قبل أن أزال جموعهم عن أرضها . . . وإذ كان مؤنس الخادم والياً على مصر والشام من قبل الخليفة المقتدر أناب عنه فى حلب أبا العباس أحمد ابن كيغلف ثم أبا قابوس الخراسانى ثم وصيف البكمترى الخادم ثم هلال بن بدر ثم أعاد الخادم وصيف ، وظلت حلب خلال هذه السنوات تحت ولاية أمراء أعاجم يمتّ بعضهم إلى العربية قليلاً وينكرها أكثرهم . . . وكانت ولاية هذه المدينة مجال مساومة بين هؤلاء العمال فى عهد انتكست فيه الأخلاق وسادت الفوضى والأطماع ، هذا « طريف » الذى ولى حلب سنة ٣٢٤ هـ بلغه أن الخليفة الراضى قلد بدران الحرشنى ولاية المدينة ، فما كان من طريف إلا أن اتصل بالوزير ابن مقالة ونفحه عشرين ألف دينار ليتوسط له لدى الخليفة لإبقائه والياً على حلب ! . . . ولكن الحرشنى كان قد وصل إلى حلب . فما هو موقف « طريف » بعد أن توسط ابن مقالة ؟ وليست المواصلات بين حلب وبغداد لتساعد على الاتصال برقيّاً أو تليفونياً كما هو الحال فى عصرنا هذا لتدارك الأمر .

إذن ، فليصمد طريف لبدر الحرشني وليعتمد على رجاله وحاشيته . وتقع بين الاثنين مشادة وقاتال عنيف ينتهى بانهزام طريف واستيلاء الحرشني على المدينة ! .. هذا لون من ألوان الحكم الذي كانت تخضع له الشهباء في ذاكم الحين ! وهو مثل " نسوقه ليعلم القراء ما قيمة الحكم في ذاكم الوقت حيث كان الولاة يساومون على الولاية بمقدار ضخيم من المال يدفعونه من جيوبهم الخاص بأمل جمعه من جيوب الرعية بعشرات الأضعاف !

ثم دخلت المدينة في حوزة الإخشيديين الذين ولوا عايبا أبا العباس أحمد بن سعيد بن العباس الكلابي فلم يكذب يتسلم ولاية حلب حتى استدعى قبيلته من نجد لتكون عوناً في الولاية والحكم . . . وقدم بنو كلاب من نجد . . . ولكن هذه القبيلة كانت بعيدة عن مظاهر المدنية أغراها ما في بعض المدن من خير وفيض فأغارت على المعرة ، وكان قدومها مثار منازعات لم ترق للإخشيديين فأرادوا أن يسحبوا أبا العباس الكلابي فانسحب منها مكرهاً بدخول ابن رائق إلى حلب في طريقه إلى دمشق لقاتال الإخشيد الذي انهزم بعد أن انتهت المعارك بمقتل أخيه ، فأرسل خادمه وقائده كافوراً مع عسكر ضخم وجيش كبير انتهى بطرد ابن رائق والاستيلاء على حلب . . . وكان ذلك سنة ٣٢٩ هـ وظلت بيدهم حتى سنة ٣٣١ هـ حيث تسلمها يأنس المؤنسي رفي نفسه ما فيها من التماق والاضطراب . . . وانتهز الروم هذه الاضطرابات فحوّموا حول حلب يريدون أن ينقضوا عايبا ليدخلوها في حوزتهم ويستمرروا في استرداد هذه البلاد قطعة قطعة كلما ساعدتهم الظروف . وبينما كانت هذه المدينة لا تعرف أهي تحت ساطة الخليفة أم تحت سلطة كافور الذي ولي عليها أبا الفتح عثمان بن سعيد الكلابي — وكان غير محبوب من عشيرته — اتصل لإخوته بالأدير سيف الدولة واستدعوه إلى حلب لاعتزازهم ببطواته وأريحيته ، وإذ كان سيف الدولة يرغب في ذلك كاشف أخاه ناصر الدولة بالأمر ثم ترك ديار بكر وبيافارقين ورأس جيشه وسار إلى حلب في أواخر تشرين أول عام ٣٣٣ هـ ليبدأ خطته في تأسيس مملكته الجديدة .

لقد قلنا هذه التوطئة لنعطى صورة صادقة عما كانت عليه هذه المدينة وما سادها من ألوان الحكم الذى هو - كما قلنا - أقرب إلى عهود الإقطاعية منه إلى السيادة الشعبية أو الحكم المطلق فى شخص ملك أو أمير ، وكيف أن سيف الدولة عرف أن يلم أطراف مملكته وأن يقضى على هذه الفوضى ويتخذ من نفوذه الشخصى سلطة مخيفة يبسطها على المتمردين فأعان إمارته دون ضجة ولا زعيق لينقذ المملكة من خطر الانقسامات الداخلية وعواصف الغزوات الخارجية .

ولكن هل استطاع أن يتوجه فور دخوله حلب إلى صد هجمات الروم المحومين . حول البلد بعد أن طرد عنها الإخشيديين ؟ . . نعم . إن نيران المنازعات الداخلية لم تشغله عن صد الخطر الخارجى . . لقد وزع قسماً من جيشه فى أطراف المملكة وسافر على رأس حملة لمواجهة الروم فتوج أول غزوة من غزواته بالنصر وردّ عن الوطن هذه الغائلة الأجنبية وعاده ، تنصراً ، فكان نصره وفوزه من الوسائل التى زادت فى بسط نفوذه المعنوى وأدخلت الرعب فى قلوب خصومه . وإذ دشّن سيف الدولة أولى غزواته بانتصاره على الروم عاد لينفخ فى آذان الإخشيديين أن الفارس لا يزال فى الميدان ، وما كان سيف الدولة ليريد هذه الحروب مع الإخشيديين الذين يرتبطون مع الحمدانيين برباط الإسلام الوثيق بل كان يحاربهم بقلب يقطر دماً لأنه كان يرغب لو أن هذه القوى تضافرت مجتمعة وانضوت تحت لوائه لصد هجمات الغزو الأجنبى ! وليعيد للإمبراطورية الإسلامية لواءها الخفاق ! . . ولكن ها هو ذا يرى الإخشيد قد جهز جيشاً كبيراً تحت قيادة خادمه وقائده كافور ويأنس المؤنس الذى كان والياً على حلب . وإذن ؛ لا بد لسيف الدولة من لقاءهما - وإن كان لما يستقر ويستريح من حروبه مع الروم - وسار نحو حمص واشتبك الجيشان فى « الرستن » فكانت الغلبة لسيف الدولة فأوقع بهما ويعساكرهما وأسر منهما أربعة آلاف جندي كما غنم جميع ما معهما ، على أنه لم يابث أن اكتفى بالميرة والذخيرة وأطلق الأسرى . .

ورأى سيف الدولة بعد أن وصل بجيوشه إلى حمص وبعد أن اطمأن على الحدود بطرده الروم - رأى أن يتابع سيره ليستأصل شأفة الإخشيديين الذين أتعبوه في بدء تأسيس مملكته بعد أن كان يأمل أن يكونوا عوناً في الدفاع عن حوزة الوطن من هجمات الأعداء الحقيقيين . لذلك صمم أن يتوجه إلى دمشق . . . ويذكر المؤرخون أن سيف الدولة لم يوفق في الهجمة الثانية لأن انكسار كافور في الرستن حفز الإخشيد أن يمدّه بجيش كبير فجمع له قسماً غير قليل من الجنود المرتزقة وهجم على سيف الدولة الذي رأى من الحكمة إزاء كثافة جيش الإخشيديين أن يتراجع ، وما زال يلاحقه كافور حتى اشتبكوا في قتال مريع في أرض قنسرين انكسر فيها سيف الدولة واتجه نحو الرقة . . . فدخل الإخشيدى حلب خائفاً وعاث أصحابه في نواحيها وقطعوا أشجارها الكثيرة وبالفوا بإيذاء الأهالي لميلهم إلى سيف الدولة الذي أحبوه وأنزلوه من أنفسهم منزلة كبيرة لإبائهم وسمو نفسه ونبل غايته ، ولكن هل استطاع الإخشيد أن يحتفظ بحلب هذه المرة ؟ لا .. ولعله فكرباً أن عمله هذا ليس في مصلحة الإسلام أو أن سيف الدولة لن يصبر على ضيم ولن يتحمل هذا الانكسار فمدّ له يد الصالح واتفق الأميران على أن تكون حلب وأنطاكية وحمص لسيف الدولة ، ودمشق للإخشيد على أن يدفع عنها إلى سيف الدولة أتاوة سنوية ! أى كأنه اعترف ضمناً أن دمشق يجب أن تضم إلى ممتلكات الحمدانيين ! . . . ولم يكتف سيف الدولة بالأتاوة لأن المال لم يكن مطمحه ولم تكن النزعات المادية غايته العليا بل كانت أمانيه تنحصر في أن يوسع هذه الرقعة العربية مهما استطاع وأن يضم إلى سورية الشمالية دمشق وما حوالها ليعيد للإمبراطورية الإسلامية المتفككة الأوصال بعض كيائها المفقود وأثر مجدها الضائع ، فاغتنم فرصة انسحاب جيوش كافور إلى مصر لكفاح المغربي وقصد دمشق حيث استولى عليها وقلبه مطمئن . وللمرة الأولى وطئت قدماً سيف الدولة عاصمة الأمويين ففتنته غوطتها الفيحاء ورأى في هذه المدينة القديمة الجديدة التي خصها الله بفنون من السحر صورة من جنان الخلد ، وتطمع نفسه في أن يمتلكها وأن يضمها إلى سلطته نفوذه.. وفي ساعة من ساعات الغروب كان

سيف الدولة يشرف من جبل قاسيون على غوطة دمشق . . وكان رفيقه في نزته هذه الشريف العتيق . ويروق سيف الدولة منظر الغوطة الحلاب الذي يحيل دمشق بأشجارها المتعانقة ساعة انحدار الشمس وراء الأفق الأرجواني سرباً من فتيات جميلات قد ائترن بثوب لازوردي يخفق في طياته هواء لطيف هو همس أحاديثهن ونجوى غرامهن ورسيس حبهن وهذه النزوات التي تزيد في حرقة قلوبهن - بانث له دمشق كهذا السرب من الفتيات أو كقطعة من فراديس الحياة . . . وأميرنا الشاب شاعر بإحساسه وشعوره وعاطفته فقال للعتيقي والله ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد .

قال له العتيق : هي يا مولاي لأقوام كثير . .

قال سيف الدولة : لو أخذتها القوانين السلطانية لتبرعوا منها ؟

ولعله أراد من كلمته هذه أنه أو ضمت إلى ملك الدولة لما فاهوا بكامة !

وأذاع العتيق هذه الرغبة في نفوس أهالي دمشق فأوجسوا منه شراً وخافوا أن يمتلك هذه الأرض لنفسه ، ولم يدرك أحد رغبات الأمير الحمداني التي ترمي إلى تعزيز المملكة العربية الفتية على أنقاض الدولة العباسية وأنه أحب أن يربط بين دمشق وحلب وأن يجعلهما جناحين قوين للدولة الحمدانية . لم يدركوا هذه الرغبات أو أدركها المتنفلون فخافوا أن تذهب أملاكهم وقوداً للدفاع عن حمى الوطن فاتصلوا بكافور وأفضوا إليه بمطامع سيف الدولة وطمحاته وطلبوا إليه العودة ليحول دون طغيان هذا الأمير الحمداني الشاب ، وإذ كان كافور لا يزال يحن إلى دمشق جهز حملة جديدة واتجه نحو « جلق » حيث التقى بسيف الدولة واشتبكا بقتال غير عنيف ، وخاف سيف الدولة انتقاض الأهالي عليه بعد أن فسر المتنفلون رغباته بما يتفق ومصالحهم الخاصة فقرر أن يرجع إلى أحضان مملكته الجديدة ، إلى أرض الشهباء ليستقر فيها نهائياً .

ولأنه لمن الغرابة بمكان أن يوجس الدمشقيون شراً من سيف الدولة لمجرد رغبة زلق بها لسانه هي في اعتقادنا لمصلحة الوطن والإسلام معاً وأن يطمثوا لسلطان

الإخشيديين في شخص كافور الغلام الأسود ^(١) ويرتضوا عودته إلى دمشق ولم تكن سيرته ولا سيرة سيده الإخشيد لتزكو بحسنة من الحسنات بل عرف بظلمه واستبداده ومصادرته أموال الأغنياء واستصفاء أملاكهم سواء في الشام أم في مصر . . . وكى نلمح إلى حكم الإخشيديين وأنه لم يكن أرف بالرعية من حكم الحمدانيين نورد نص الكتاب الذي وجدته الإخشيد في داره بدون توقيع . . . والكتاب يفسر ما نبض به قلب الشعب ويصور الحالة تصويراً واضحاً لا غموض فيه أضف إلى هذا أن سيف الدولة عربي من صميم العرب والإخشيد أو كافور نوبى لا يمت إلى العربية بنسب وتفضيل حكم الإخشيديين على الحمدانيين مسألة تدعو إلى العجب الكبير . . . وهذه صورة الكتاب الذي وجدته الإخشيدى بداره قبل مسيره من مصر إلى الشام .

« قدرتم فأسأتم ، وملكتم فبخلتم ، ووسع عليكم فضيقتم . وادرت عايكم الأرزاق فقطعتم أرزاق العباد ، واغتررتم بصفو أياكم ولم تفكروا في عواقبكم ، واشتغلتم بالشهوات واغتنام الذات ، وتهاونتم بسهام الأسحار وهن صائبات . ولا سيما أن خرجت من قاوب قرحتهم وأكباد أجعتهموها ، وأجساد عريتموها ، ولو تأملتم في هذا حق التأمل لانتبهتم ، أو ما علمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل ، ما وصل إليها الجاهل ، ولو دامت لمن مضى ما نالها من بقى ، فكفى بصحبة ملك يكون في زوال ملكه فرح للعالم ، ومن المحال أن يموت المنةظرون كلهم حتى لا يبقى منهم أحد . ويبقى المنتظر به ، افعلوا ما شئتم فإننا صابرون ، وحوروا فإننا بالله مستجيرون ، وثقوا بقدرتكم وساطانكم فإننا بالله واثقون وهو حسبنا ونعم الوكيل . » وقد ذكر المؤرخون أن الإخشيدى بقى بعد سماع هذه الرقعة في كثير من الاضطراب والهم وسافر إلى دمشق فمات فيها سنة ٣٣٤ هـ .

(١) وكافور هذا عبد أسود ، خصى ، مثقوب الشفة ، عظيم البطن ، مشفق القدمين ، ثقيل البدن ، لا فرق بينه وبين الأمة . قيل سئل عنه بعض بني هلال فقال رأيت أمة سوداء تأمر وتنهاى ! وكان هذا الأسود لقوم من أهل مصر يعرفون ببني عباس يستخدمونه لحوائج السوق وكان مولاه يربط في رأسه حبلاً إذا أراد النوم فإذا أراد منه حاجة يجذبه بالحبل لأنه لم يكن يتنبه بالصياح ! نعم . لغريب جداً أن يفضل أهل دمشق - في ذلك الوقت - هذا الأسود الخصى على أمير عربي كريم كسيف الدولة .

وعبارات الكتاب تم عن حرقة وشكوى مرة من بطش الإخشيديين سواء في مصر أم في دمشق . على أن حكم سيف الدولة لم يوصم بهذه الوصمة وكل ما عمله أن جبي الخراج الشرعى وجعل يطالب الدمشقيين بودائع الإخشيدى التى أرادوا أن تكون لهم — على ما يظهر ، ثم أفضى برغبته أن تكون الغوطة له أى ملكاً لاوطن فكلفته هذه الكلمة كثيراً وهب المتفنون يحكيون الدسائس ويتصاؤون بكافور الذى استدعوه مع ابن الإخشيد ، وأحس سيف الدولة بهذه الدسائس فاستعد للقتال وجهاز جيشاً من خمسين ألف فارس وسار إلى أرض فلسطين حيث تلاقى الجيشان في « اللجون » في جهة « نابلس » واشتبكا بقتال مريع جداً ، وإذا كانت جيوش الإخشيديين عظيمة رأى سيف الدولة أنه من الحكمة أن يتراجع حتى وصل إلى حمص واستنهض هم القبائل العربية فجمع عدداً كبيراً من بنى عقيل وبنى نمير وبنى كلب وبنى كلاب وخرج بهم من حمص وشخص عساكر الإخشيدية من دمشق فالتقوا « بمرج عذراء » على بعد ساعتين من دمشق فانتهصر سيف الدولة أولاً ثم خذل ثم رأى أن يتراجع بفاول جيشه إلى حلب وأن يتخذها قاعدة ملكه ويستقر فيها نهائياً . وقد كان ذلك بعد أن عقد الصلح بينهما مجدداً على أن تظل حمص وأنطاكية مع حلب وضواحيها لسيف الدولة . .

* * *

وإذا استقر في حلب رأى أن يبدأ أول أعماله ببناء قصره البديع في أرض « الحلبة » ، أى في سفح جبل الجوشن ، هذا القصر الذى خصه الشعراء بكثير من وصفهم لما حواه من دقائق الفن وبديع الزخرف ومختلف التصاوير والنقوش ، وإذا كان الشعر العربى قد وصف هذا القصر وصفاً شاملاً دون أن يشير إلى دقائقه فإن مؤرخى الغرب قد فتنوا بروعته ووصفوه وصفاً أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة ، ولكن الذى يدرس تاريخ سيف الدولة وينفذ إلى طباعه وإلى مزاجه الشعرى وإلى بذخه وذوقه الفنى لا يستكثر عليه هذا القصر الذى يصفه أندره دايفتس المستشرق الفرنسى في قصته عن الأمير سيف بقوله :

« وابتنى الأمير بواسطة الأسرى العديدين على ضفاف نهر قويق قصراً عظيماً

دعاه « قصر الحلبة » فجاء بأحذق المهندسين وأمهر المصورين وأبرع البنائين والنجارين يعتنون ببناء وفرش هذا القصر على أفخم طراز وأبدع ما تضمنه قصور أباطرة الرومان . .

« وعندما افتتحت أبواب القصر للمرة الأولى كان ذلك مثار الدهشة والإعجاب ؛ لأن الأبواب كانت من البرونز النحاسي نقشت عليها ألوف التصاوير المستغربة الجميلة ، وهي تدور على قواعد من الزجاج حتى لا تأتى بحركة ، وإذا تدخل الباب تواجهك قاعات متتابعة ملأى بالأعمدة المرمرية المزركشة والموشاة بالذهب والفضة ، وجعل المصورون رسوم الزهور فى أواسط القباب العالية حيث حفروا بين جهة وأخرى آيات من كتاب الله الكريم بأحرف كوفية جميلة وأبيات مختارة لأعظم الشعراء بأحرف فارسية فتانة » .

ويزيد المستشرق الذى رجع فى وصفه هذا إلى مؤرخين رومانيين شهدوا روعة القصر بقوله :

« وكان للقاعة الكبرى خمس قباب بلون اللازورد يحملها ١٤٢ عموداً من المرمر المزركش بالفضة والذهب ، تنيرها ألوف من النوافذ الزجاجية الملونة ، وفى وسط كل عمود خرجت زهريات ملأى بالزهور والنباتات النادرة . وفى الوسط لإبريز عظيم من خشب الأبنوس الموشى بالذهب جعل تخصيصاً لجلوس الأمير ورجاله الأنحاء وحفر عليه رسم الأمير منتصباً على الصحراء » . .

ويسهب المستشرق بوصف السجاد الفاخر والدمقس الغالى ومحارق البخور التى تزين القصر ، ويبدع فى وصف البحيرات المنتشرة هنا وهناك فى حدائق القصر ، ثم يصف بكثير من اللباقة الحرم النفيس الذى كان يتسع لسكنى ثلاثمائة امرأة . ثم الحمامات التى كانت آية الفن والذوق الرفيع ، ويشير إلى المياه البلورية التى كانت تتدفق من فم اثنتى عشرة سمكة من الذهب الإبريز ويصل به وصفه إلى أن يذكر الإصطبلات ذات المعالف الرخامية لألف جواد وجواد . . .

إن فى هذا الوصف لقوة تجعله أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة . ولكن هل هذا الخيال نثار من الهباء لا يرتكز على أساس وطيد ؟ . . كلا . . إن فيه كثيراً

من الحقائق . . والشعر العربي لم يهمل ذكر هذا القصر وبالأخص الشاعر المتنبي . . ونحن نعلم أن العقل العربي كان يعتمد إلى التعميم دون الالتفات إلى هذه الدقائق التي وعنها الذاكرة الرومانية فنقلتها بصورة أوسع في كتب التاريخ واتخذها مستشرقو اليوم مادة قوية لوصف أعم وخيال أوسع . يقول ابن الشحنة في كتابه « الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب » حين يتحدث عن قصر الحلبة : « بناء سيف الدولة بن حمدان بالحلبة عظيماً وأجرى إليه نهر قويق وأطافه به - والحلبة محلة من ضواحي حلب من جهة الغرب وهي مكان صحيح الهواء ، حسن التربة ، مشرف على النهر وبه كروم وميدان بل ميدانان تقام فيهما حلبة السباق ويتمهل بها مكان يقال له « الفيض » . وبعد ، فلولا أن كتب التاريخ تحدثنا بأن نيقفور فوكاس الأمير البيزنطي الذي اشتبك مع سيف الدولة أكثر من عشر مرات بقتال مريع انتهت آخر حروبه معه بهدم القصر وسبي أنفس ما فيه - لولا ذلك لكان اليوم عندنا في الشهباء أثر فني قل أن يكون نظيره في الشرق ولكانت الألف سنة التي تصرمت عليه قد زادت روعة وجمالاً وقيمة أثرية نادرة . ولكنها همجية الحروب التي كثيراً ما تتم عن بدادة الطبع الإنساني في شخص أناس تحسبهم صورة حية لمدينة رفيعة وإذا هم مردة طغاة لا يبرد غليل انتقامهم إلا في التجنى على أسمى ما يقدسه الفكر . . لقد غلب سيف الدولة نيقفور غير مرة واستطاع أن يدوس كرامته حتى في أرض الروم فعز عليه هذا الخذلان المريع فلما أتيح له دخول حلب كان أول همهم وقد خلا له الميدان من فارسه الصنديد - أن يستولى على القصر وأن يحطم أئمن ما فيه من أعلاق ونفائس وقطع فنية ثمينة . . وبذلك خسر الفن العربي أروع أثر تاريخي كان يمكن أن يعطينا أصدق فكرة عن دولة فتية انبثقت من صميم العربية وقضت نحيبها في سبيلها .

* * *

. . بعد أن رجع سيف الدولة إلى هذه المدينة التي استهوته لتحقيق أحلامه الغالية في بناء الكيان العربي الجديد ، وبعد حبوط خططه في ضم دمشق

إلى هذه الرقعة العربية - اهتم بعدمران الشهباء اهتماماً بالغ الأثر وكانت أولى أعماله بناء قصر « الحلبة » الفخم ، وقد اتخذ من ميله للأدب مجالاً واسعاً ليحبو كبار أدباء العربية المبعثرين في مختلف البلدان فجمع شملهم في هذه الأرض الحميلة وجعل منهم قوة عرف كيف يجعلها تخلص له وتذيع أمره وتخلد ذكره في الأمصار . ونحب أن نشير إلى ناحية جديرة بالملاحظة والتأمل وهي أن انقراض عقد الدولة العباسية ونضوعها لعسف الترك والديلم واستقلال الولايات والإمارات في أنحاء المملكة جعل الشعراء والأدباء الذين كانت آمالهم معلقة بكيان دولة كبيرة أشبه بعقد من اللؤلؤ المنظوم قد انفطرت حباته وتبددت هنا وهناك . . .

ولقد قيع الشعراء في بيوتهم لا يرتفع لهم صوت وكانت همساتهم لا تتجاوز جوانب قلوبهم وأوساطهم الخاصة . . . وشعر الأمراء الذين استقلوا بالممالك أنهم في أمس الحاجة إلى هذه الفئة من المهويين لتذيع أعمالهم وتحدث عن غزواتهم وتنشر آراءهم وتسبح بحمدهم وتقلب سيئاتهم حسنات - والشعراء في تلكم العصور أشبه بالجرائد اليومية في عصرنا هذا ، أى كانوا يقومون نحو الدواة والأفراد بما تقوم به بعض الجرائد الآن - وأخذت هذه الإمارات التي قامت على أنقاض الدولة العباسية تجتذب إليها الأدباء والشعراء وتستغل مواهبهم بهذه الأعطيات التي كانت تغدق عليهم إغداقاً . . . وكان أميرنا الحمداني أكثر الأمراء تقديراً لهذه النزعة الحية . . . وسيف الدولة أمير شاب وشاعر أديب تذوق الأدب بدقة ولباقة ودرسه على شيوخ ممتازين وأدباء مبرزين فاجتمع له في هذا الدرس ومن ميله الصميم للأدب ما دفعه أن يرعى الأدباء ويهتم لأمر الشعراء أكثر من غيره ، وإذا كانت أمانيه تتجه هذه الوجهات السامية وأحس من أعماق نفسه بأنه سيضطلع بعمل جليل في توطيد مملكة جديدة وأن لا بد لهذه الأعمال الكثيرة من أن ترسم على صفحات الدهر بأحرف بارزة - إذ أحس هذه العوامل فتحت أبواب مملكته لمختلف رجالات الفكر ولصفوة طيبة من أكابر أدباء العربية وأمرائها فهرعوا إليه من كافة الأقطار الإسلامية يزجي بعضهم أمل واسع بازدهار هذه المملكة العربية

التي ولدت ولادة جديدة ، ويطمع البعض بعطايا سيف الدولة التي كانت
أبلغ قيمة من هذا الشعر الذي فاضت به أخيلتهم . وعطايا أميرنا الحمداني
أصبحت مضرب المثل في تاريخنا الأدبي فهي إلى أنها ترسم مدى اهتزاز نفسه
من الشعر الحى تعطينا فكرة صادقة عن تطور الأدب فيما إذا حبه الدولة ورعته
بعنايتها الرحيمة .. والشئ الذي كان يحفز الشعراء إلى الإجادة أن ممدوحهم كان
يفهمهم حق الفهم . . وليس أحب إلى الشاعر من رجل يفهمه وينفذ إلى طيات
نفسه . . إنه في هذه الحالة يهبه كل ما تنطوى عليه جوانب قلبه من حب . .
وهذا الحب كان يستحيل قصائد قوية كلها إشادة ببطولة الأمير وإطراء
شخصيته ، وثمة أمر آخر أن سيف الدولة لم يكتف أن يسمع شعراءه كلمات
الإعجاب والتقدير بل كان يملأ جيوبهم بمئات الدنانير وآلافها . . وكان
يقطعهم الضياع يستغلونها ويغدق عليهم مختلف الأعطيات الثمينة . . وقد تجاوز
به الإسراف حتى إنه كان يمنح الشاعر المنح الغالية لمطاوى الكلمات ، ومن ذلك
أن المتنبي حين أنشده قصيدته التي أولها :

أجابَ دمعى وما الدّاعى سوى طَلَلٍ دعا قلباه قبل الركب والإبلِ

وناوله نسختها . . فنظر فيها سيف الدولة فلما انتهى إلى قوله :

يا أيها المحسنُ المشكورُ من جهتي والشكرُ من قبَلِ الإحسانِ لا قبَلِ
ما كان نوميَ إلا فوق معرفتي بأن رأيك لا يؤتى من الزللِ

أقل ، أنل ، أقطع ، احمل ، عل ، سل ، أعد
زد ، هَش ، بش ، تفضل ، أدن ، سر ، صل

وقع تحت أقل : وقد أقلناك

وتحت أنل : يحمل إليه من الدراهم كذا . .

وتحت أقطع : قد أقطعناك الضيعة الفلانية . .

وتحت احمل : يقاد إليه الفرس الفلاني . .

وتحت علّ : قد فعلنا . .

وتحت سلّ : قد فعلنا فاسلّ . .

وتحت أعد : أعدناك إلى حالك من حسن رأينا . .

وتحت زد : يزداد كذا . .

وتحت تفضل : قد فعلنا . .

وتحت أدّن : قد أدنيناك . .

وتحت سرّ : قد سررناك . .

على أن المتنبي لم يقصد السرور بل أراد « سرّ » من السرية ، على ما رواه ابن جني عن المتنبي ذاته . . فأمر له بجارية . .

وكتب تحت صل : قد وصلناك . .

إن هذه الأحاديث والأعطيات لم تكن ضرباً من الخيال بل شيئاً واقعياً وقصصه في ذلك كثيرة ، وجب المتنبي أن يردد فيه :

تركتُ السرى خلقي لمن قلّ مالهُ وأنعلت أفراسي بنعمائك عَسْجداً
وقيدتُ نفسي في هواك محبةً ومن وجد الإحسان قيداً تقيداً

وليس في ذلك أي نبو عن طبع سيف الدولة الذي كان يختلف عن بقية الأمراء في كشف خصائص الشاعر واقتناص موادبه . فقد كان هؤلاء يعتمدون في تقدير موهبة الشاعر على وزرائهم ورجال حاشيتهم بخلاف سيف الدولة الذي كان يعتمد على ذوقه الخاص وثقافته الأدبية الممتازة . .

وفي هذا ما فيه من الأثر البين في نمو الحركة الأدبية وتطورها البليغ . . بل هذا — في اعتقادنا — من أهم العوامل التي جعلت أن يكون موقف الشعراء منه غير موقفهم من بقية الأمراء . فكانوا إذا مدحوه مدحوه عن إيمان بعبقريته وتقدير لرجوليته. والمتنبي الشاعر — برغم ما تلمسه من ضروب التغالي في أماديحه لسيف الدولة — شعره فيه أصدق ألف مرة من شعره في كافور الإخشيدي أو في غيره من الأمراء، مع أن المتنبي ترك حلب وودع سيف الدولة وفي نفسه ما فيها من

حتى وثورة على الوشاة الذين حالوا دون أن يقضى بقية أيامه في خدمة هذا الأمير الحمداني الكريم . . . ولقد أخرجته شيوخ المدرسة القديمة وعلى رأسهم ابن خالويه فأخرجوه من حلب إلى مصر ، ورغم كل ذلك ظل قلبه معلقاً بحب سيف الدولة ، فعلام يدلنا هذا ؟ يدل على أن شخصية سيف الدولة هي التي كانت توحى إلى الشعراء المعاني الغالية والخيال المبتكر . ورأينا مدينة حلب تجمع في سنوات متقاربة أكابر رجال ذلك العصر ، فهذا المتنبى ، والفارابي ، وأبو ذرّ والصنوبري وابن خالويه ، وابن جني ، والبكتمرى ، والناسي ، وكشاجم ، وابن أبي الفياض ، وأبو الفرج العجلى وكثيرون من القضاة والنحويين والأدباء والشعراء والفنانين ، وكلهم ينعمون بخيرات سيف الدولة ويزينون مجالسه ويتقدمون إليه بنتاج شعرهم وأصنى ما تلده قرائحهم الوقادة . وانتظام هذه المجموعة في حلب ، في عاصمة الدولة الحمدانية ، وكلهم من بلدان مختلفة وذوو ثقافات متباينة يدعو حتماً إلى وجود أكثر من مدرسة في الأدب ، وإذا لم نتوسع في كشف هذه المدارس وتمييز ألوانها وطابعها قلنا إن الأمر دعا لأن يكون في ذلك العهد مدرستان : مدرسة الأدب القديم ومدرسة الأدب الجديد . وقد كان ذلك . وكان «صالون» سيف الدولة يزخر بهذا الجمع القوي في ثقافته الأدبية وكانت المناقشات تضطرم والعداوات تثور ، والحسد يتأكل قلوب الأدباء ، وكان سيف الدولة يغمر الجميع بعطفه وعنايته ويزودهم بابتسامته التي لا تنضب تموجاتها البياحرة وكان لا يتأخر أن يوغر — من طرف خفي — صدر هذا على ذاك لأنه يعلم أن هذه المناظرات وهذا التنافس هما ربيع أكيد للأدب وكسب طريف للفنون وتمهيد قوى لولادة العبقريات . . . ولا نتوسع هنا في هذه الناحية لأن هذا سيأخذ منا دراسة وافية في فصولنا القادمة . . . ولكننا أردنا بهذه الإشارة أن نقول إن سيف الدولة كان في جمعه الشعراء والأدباء تحت لوائه من أقوى العوامل في ازدهار الأدب العربي وتطوره في القرن الرابع وفي رفع اسم هذا البلد عالياً في التاريخ الأدبي كما رفعه في التاريخ السياسي ، حيث جعل أمر هذه المملكة موضع إعجاب كل من التفت ألف عام إلى الوراء ليدرس أمرها حين يستعرض تاريخ الإمارات العربية.

وهذا الذى جعل مؤرخى الأدب يتفقون على أن عهد سيف الدولة كان من أكثر نواحيه أزهر عصور الأدب العربى . . وحسب القارئ أن يذكر قول الثعالبي — وهو ثقة من شيوخ الأدب ويكاد يكون مؤرخاً أدبياً معاصراً — إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ، ليعرف أية مكانة رفيعة بلغ الأدب فى ذلكم العصر .

إن هذه الظواهر الجديدة التى تجلت فى عناية « الدولة الحمدانية » بالأدب وحرصها على مجد العرب بعد أن انتكست الأحوال وطغت العجمة على النواحي السياسية والأدبية جعلت الإمارات المجاورة تلتفت إلى أعمال سيف الدولة وإلى خططه وبرامجه ، وكانت الناس تهرع إلى حلب من كل صوب وكل بطم أن ينعم بخيرات سيف الدولة ويكون عضداً له ؛ وهكذا أصبحت حلب فى سنوات قليلة من أزهى عواصم البلدان الإسلامية . وكما ترى فى يومنا الصحفيين الأجانب يتلمسون أمر هذه الممالك الجديدة التى تبنى مجدها بيدها دون أن تلتفت إلى عواصف الأيام ، فقد كانت هذه الرغبة فى نفوس مؤرخى الإفرنج وأدبائهم قبل ألف عام . يدلنا على هذا ما كتبه مؤرخو الفرنجة عن الدولة الحمدانية ، ولا نغالى إذا قلنا إن مؤرخى الفرنجة كانوا أكثر عناية بهذه الدولة العربية من مؤرخى العرب . . . وإن الإنسان ليسمع آراءهم صافية مجلوة بروح الإنصاف والإعجاب . . . ومرد ذلك إلى عبقرية سيف الدولة التى تجلت قوية مخيفة فى معارك الحرب ، ومشرقة باسمه فى رحاب السلم حيث « فتح قصره — على حد رواية المستشرق ميشلمبرجر — إلى كل فنان وأديب موهوب ، فوفدوا عليه من جميع الأطراف ، من العراق ، من فارس ، من الشام ، من بيزنطية ، من البندقية وحنوى . . . وكان يستمع إلى الشعراء ويتعجب إلى الكتاب والمصورين ويمنح المؤرخين الشيء الكثير من عطاياه ومنحه فيعود هؤلاء إلى بلادهم حاملين إلى شعوبهم صورة رائعة من خلق الرجل العالى وشخصيته العجيبة » .

. . . انتهى من هذا إلى أن أميرنا الشاب لم يشأ بعد أن دفع عنوان الروم لأول مرة من هبوطه حلب وبعد أن حارب الإخشيديين — أن يزج نفسه فى حروب دامية مع

البيزنطيين قبل أن يوطد أركان مملكته ويبسط آفاق نفوذه . . فاتخذ الأدب طريقاً
ممهداً . ووفق فيما رى إليه بكثير من اللباقة والذكاء . . فكان أمره خلال إقامته
في حلب بين الغزو والحرب وبين الأدب والشعر . . . وله في الأمرين شأن أى
شأن ! . . .

سيف الدولة

حروبه وغزواته

١

شخصية سيف الدولة - مصادر البحث - قيصر الروم - تحقيق
معنى المستق - اضطراب الرواية العربية - الممارك الأولى - مديح الشعراء.

منذ توطد ملك سيف الدولة في حلب وأمن - إلى حد ما - خطر
الفتن الداخلية أخذ يعدّ العدة للقاء البيزنطيين ودفع هذا الخطر الخارجي الملهم .
الحق أن مهمته كانت شاقة جداً . . . ولكن سيف الدولة لم يكن
ذلك الرجل الوكيل الذي تعصف به الأهواء ، كان رجل قوة وعزم ، وصاحب
عقيدة وإيمان . . لقد شعر شعوراً قوياً بأن الجهاد في دفع طغيان الأجني فرض
من الفروض المقدسة . وسيف الدولة أمير شاب نشأ على حب المغامرة والعراك ،
وكان حرصه على صون هذه المملكة التي بناها بكثير من حبه وإيمانه وعروبته
مثاراً لأن يقضى أنخلد أيامه في الحرب والنضال . وماذا تريد من أمير شاب تسم
صوبلحان الملك وقد توفرت لديه كل وسائل الرفاه والنعيم فلا تغريه هذه الملذات
السحرية التي تشيع في بلاطه فينتفض انتفاضة الأشبال - كلما دعاه الواجب -
للقاء البيزنطيين في آكام طوروس وسهول الأناضول . نعم ، لم يكن سيف الدولة
كأولئك الأمراء الذين يركنون إلى بلهنية العيش وأرضهم مهددة بالغارات ،
ولم يكن كأولئك القواد الذين ينفخون روح الحماسة في صدور رجالهم
ويدفعونهم إلى الموت ثم يأوون إلى قصورهم بعيدين عن نيران المعارك حتى إذا
ما آتاهم النصر حصدهوه وهم في نشوة وخيلاء . بل كان سيف الدولة رجل عراك
وقتال . . كان يتقدم بجيشه وقلبه مطمئن . وبماذا ندل على بطولته أكثر من أن
نشير إلى لقائه البيزنطيين أكثر من أربعين مرة في حروب دامية عدا غزواته

المتعددة التي حمل فيها على رجال القبائل الذين كانوا يعيشون في أطراف المملكة ويتمردون كلما رأوا الأمير الحمداني منشغلا في قتال البيزنطيين . كان يناضل عن أنبل غاية بينما كانوا يحرون وراء أحسن غاية . وهذا الذي يزعجنا أن نوالى دراستنا لكشف خصائص هذا الأمير العربي وإبرازها واضحة رغم ما يعتور بحثنا من مصاعب . وهذى المصاعب التي أشير إليها هي فقد المصادر الكافية التي تتطلبها الدراسات الحديثة لا سيما في البيئة التي أعمل فيها . ومع ذلك فإن المصادر العربية التي تتحدث عن سيف الدولة والمصادر الإفرنجية التي تتحدث عن الأمير البيزنطى الذى اصطدم مع الأمير الحمداني في أكثر غزواته تضىء جوانب البحث بعض الإضاءة ، وقد اعتمدنا في بحث حروبه وغزواته على هذه المصادر العربية التي بين أيدينا وإلى بحوث المستشرق سيشلمبرجر — وهو خير من عرض إلى حروب البيزنطيين مع سيف الدولة بتوسع — وإلى غيره ، ثم إلى قصائد الشعراء اللذين رافقاه إلى ميدان القتال ووصفا غزواته : المتنبي وأبى فراس . ولا شك أن قصائد المتنبي في وصف المعارك التي خاضها سيف الدولة هي من القيمة التاريخية بمكان . ذلك لأن الشاعر في مثل هذه الظروف لا يستطيع أن يعتمد على الخيال وحده والحقيقة ماثلة أمام عينيه . وأكاد أميل — بعد أن أمعنت النظر في روايات المؤرخين — إلى أن قصائد الشاعر — في بعض النواحي — أصدق من روايات المؤرخين التي يعتور أكثرها الاضطراب والتشويش . ونقف عند هذه التوطئة لنبدأ وصف المعارك التي خاضها الأمير الحمداني . وقد يكون من الخير أن نعرف — قبل أن نبدأ وصف هذه المعارك — من هو هذا القائد البيزنطى الذى اصطدم مع سيف الدولة في حروبه وغزواته . . . تكاد تتفق الروايات العربية على أن حروب سيف الدولة كانت مع الـدمستق ! وحتى المتنبي يذكر « الـدمستق » في كثير من قصائده ، وعبثاً حاولنا أن نرى في المصادر الأجنبية اسماً للـدمستق فلم نجد . إنها تذكر نيسفور فوكاس وبارزاس فوكاس وغيرهما . إذن فمن هو الـدمستق ؟ وعلام يدل هذا الاسم ؟ أهو اسم قيصر الروم أم اسم قائده ، أم هو لقب ، أم صفة من الصفات ؟ لقد تبين لنا

بعد البحث أن معنى الدمستق في الألقاب البيزنطية هو « ضابط البلاط » لأن كلمة « دمستق » مشتقة من كلمتي Grand Domestique وهي الصفة التي كان يحملها نيسفور فوكاس القائد العظيم في عهد قيصر الروم قسطنطين السابع وكان لقبه Grand Domestique de Sekoler d'orient أي « ضابط البلاط في أيام الإمبراطورية البيزنطية »^(١) وطالما قد عرفنا أن الدمستق لم تكن إلا صفة ، وأن القائد الذي التحم مع سيف الدولة في حروب دامية هو نيسفور فوكاس فيحسن أن نلم لإمامة موجزة بسيرة هذا القائد البيزنطي قبل أن ندخل صلب البحث .

القائد البيزنطي

نيقفور فوكاس قائد بيزنطي عظيم . حارب في عهد قسطنطين السابع مدة طويلة كما حارب في عهد رومان الثاني . وفي السنة ٩٦٣ م - وهي السنة التي توفي فيها رومان الثاني - تسم نيقفور فوكاس العرش^(٢) وتزوج أرملة الإمبراطور المعروفة باسم « تيوفانو الحميلة » . وبطولة نيسفور فوكاس وحروبه مع سيف الدولة واسترداده بعض البلدان الإسلامية وغزوه قبرص وكنيكيا وسورية الشمالية ودخوله أنطاكية من الممهدات التي بوأت له عرش المملكة البيزنطية وأدنته قليلاً من قلب الملكة . ولم تقف حروب هذا الأمير البيزنطي الشجاع عند هذا الحد بل كان يحارب في نفس الوقت في جهات البلقان ووصل نفوذه إلى إيطاليا الجنوبية وحارب أوطون الأكبر - ملك ألمانيا - وأعظم أمراء النصرانية في القرن العاشر الميلادي ؛ وإذ توسع بحروبه في الشرق والغرب اضطر أن يزيد الضرائب وأن يمسّ أموال الكنيسة فأتُمير به من قبل أعزّ قواده ومن قريبه جان تسيمس

(١) ذكر الحافظ الذهبي في كتابه « تاريخ الإسلام » أن معنى الدمستق هو نائب البلاط في شرق قسطنطينية . وفسر الخضرى في كتابه « محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : الدولة العباسية » أن الدمستق عند الروم هو الرئيس الأكبر للجيش والبطارقة قواده . والصيغة الإفرنجية أدق وأضبط .
(٢) لقد عرضت بعض الروايات العربية إلى ذكر نيقفور باعتباره ملك الروم واكتفت بصفته حين كان قائداً معتبرة - الدمستق اسماً من الأسماء ومن هنا وقع الاضطراب .

وحتى من قبل امرأته ، ومات اغتيالاً في ١٠ ديسمبر سنة ٩٦٩ م .
هذا هو نيسفور فوكاس Nicephore Phokace الأمير والإمبراطور
البيزنطى العظيم الذى حارب سيف الدولة وكانت الحرب سجلاً بينهما
مدة عشرين سنة كاملة .

إذن ، فيجب أن ننفي من المصادر العربية اسم « الدمستق » كاسم
وأن لا نقبله إلا كصفة وأن نذكر دائماً اسمه الحقيقى كقائد من القواد
البيزنطيين فى بدء حروبه ثم إمبراطور عظيم له السيطرة الكبرى منذ عام ٩٦٣
— فى بيزنطية وفى قسم غير قليل من شرق أوروبا .

والآن ، وبعد أن عرفنا قيمة هذا الخصم القوى الذى حاربه سيف
الدولة نستطيع أن نلم إماماً موجزاً بهذه المعارك التى خاضها الأمير الحمدانى لأننا
لا نريد أن نتوسع بسرد المعارك سرداً جافاً بل نريد أن نستنبط منها هذه الأحداث
القوية من تاريخ حياته .

المعارك الأولى

إن أول معركة خاضها الأمير سيف الدولة كانت عام ٣٣٧ هـ . فى
هذه السنة ، بينا هو فى حلب ، بين رهط من أصفياه يفكر فى مصير
هذا الوطن ويحلم بأن يعيد مجد هذه الإمبراطورية الكبرى بعد أن غربت شمسها
على ضفاف الرافدين — بلغه أن البيزنطيين قد اقتربوا من مرعش . وبديهي أن
يهزهز هذا الخبر وأن يستنفر رجاله وجنوده وأن يسير إلى لقاء البيزنطيين ورد عدوانهم
المبين . ولكن البيزنطيين كانوا كثرة فلم يستطع أن يقاومهم فخذل وتراجع .
ودخل البيزنطيون « مرعش » دخول الغزاة الفاتحين ، فخربوا دورها وهدموا
قصورها ونهبوا أهلها ثم اتجهوا نحو طرطوس^(١) .

(١) ظفر سيف الدولة فى هذه السنة بمحمى « برزويه » وعاد إلى أنطاكية فأنشده المتنبي
قصيدته : « وفاؤك كالربع أشجاء طامسه » وفيها يصفه ويصف هول معاركه بقوله :

ولا شك أن هذا الفشل خلق في نفس سيف الدولة مناعة قوية لأن يمحو ذل أول انكسار منى به مع البيزنطيين وما أطل العام ٨٣٩ هـ حتى أخذ للأمر أهبطه : جمع رجاله وجنوده واستعد أن يضرب البيزنطيين في قلب الأناضول قبل أن يمتد طغيانهم إلى حلب . والحق ، لقد غامر الأمير سيف الدولة في هذه المعركة كثيراً ؛ فرغم إيغاله في بلاد الروم وإيقاعه بجنود نيسفور وفتح الحصون الكثيرة وأسر البطارقة والقواد ووصوله إلى نقطة غير بعيدة عن استانبول ^(١) — رغم كل ذلك فإن النتيجة لم تكن كما كان يحلم . . . لأن بارزاس فوكاس — أحد قواد نيسفور وابن عمه — لجأ إلى هذه الوسائل التي يلجأ إليها القواد حين تخونهم الشجاعة . لجأ إلى الحيلة فسد عليه الطريق وحصره في مضيق لا منفذ له . وما زال يقاوم حتى تراجع مع نفر ضئيل من رجاله إلى حوالى حلب بعد أن قضى على من معه من الأسرى ، ويصف الحافظ الذهبي في كتابه « تاريخ الإسلام » هذه المعركة بقوله : « وفي هذه السنة غزا سيف الدولة فسار في ربيع الأول ووافاه عسكر طرطوس في أربعة آلاف عليهم القاضي أبو حصين فسار إلى الفندق وأوغل في بلاد الروم وفتح عدة حصون وسبي وقتل ثم سار إلى سمندو ثم إلى خرشنة يقتل ويسبي ثم إلى بلد " صارخة " وبينها وبين قسطنطينية سبعة أيام فلما نزل عليها واقع الدمستق مقدمته فظهرت عليه فلجأ إلى الحصن وخاف على نفسه ثم جمع جيوشه والتقى مع سيف الدولة فهزمه أقبح هزيمة وأسرت بطارقته وكانت غزوة مشهورة وغنم المسلمون ما لا يوصف وبقوا في الغزو أشهراً . ثم إن الطرسوسيين قفلوا ورجع العربان ورجع سيف الدولة في مضيق صعب فأخذت الروم عليه الدروب وحالوا بينه وبين المقدمة فقطعوا الشجر وسبدوا به الطرق ودهدوها الصخور في المضايق على الناس . والروم وراء الناس يقتلون ويأسرون ولا منفذ لسيف الدولة

له عسكرا خيل وطيروا إذا رأى	بها عسكراً لم يبق إلا جماجمه
محاب من العقبان يزحف تحتها	محاب إذا استسقت سقتها صوارمه
مهالك لم تصحب بها الذئب نفسه	ولا حملت فيها الغراب قواده

(١) تتفق المصادر العربية والإفرنجية معاً أنه لم يبق بين سيف الدولة واستانبول غير مسافة سبعة أيام .

وكان معه أربعمائة أسير من وحوه الروم فضرب أعناقهم وعقر جماله وكثيراً من دوابه وقاتل قتال الموت ونجا في نقر يسير .

وهذه صدمة ثانية منى بها الأمير الحمداني بعد أن رافقه النصر . وهي صدمة قوية تكفى أن تضعضع غيره من الرجال . ولكن سيف الدولة كان أقوى من أن ينفذ اليأس إلى قلبه وقد جعلته هذه الصدمات أكثر يقظة وأثبت جناناً وأن يجعل هدفه غلبة البيزنطيين ورد طغيانهم مهما كلفه الأمر .

وظل في حلب عامين والبيزنطيون شغله الشاغل . كيف يرد غاراتهم ؟ هل يتاح له أن يوطد أركان مملكته ؟ كيف يدفع عنها هذا الخطر المحدق ؟ إنه يسمع مديح الشعراء فيزداد قوة ومضاء ! وكأنما وازع نفسه يضطرم بين جوانحه فيناديه أن استعد لعراك شديد . وهل لأحد في مثل هذه الظروف أن يعصى وازع النفس ؟ لقد تأهب للقاء خصمه والقضاء عليه . . ولكن لم يكد يأخذ للأمر عدته حتى بلغه أن البيزنطيين هاجموا مدينة « سروج » وأنهم خربوا مساجدها وسبوا أموالها . و « سروج » ليست بالمدينة الكبيرة التي تقلق بال الأمير ولكن قربها من حلب أهاب به أن ينقض عليهم قبل أن يقتربوا من الحدود . يركب فرسه الجموح على رأس فئة من رجاله ويتجه نحو « سروج » . ولا تكاد تبدأ المعركة ويحمى وطيس القتال حتى يكتب له النصر فيجلى البيزنطيون عن تلك المنطقة ثم يعرج على مرعش ويعيد بناء ما هدمه البيزنطيون وإلى ذلك أشار المتنبي بقوله :

فيوماً بخيل تطردُ الرومُ عنهمُ ويوماً بجودٍ تطردُ الفقرُ والجدُ با
سراياك تشتري والدمستق هاربُ وأصحابه قتلى وأمواله نهبي
* * *

أتى مرعشاً يستقربُ البعدَ مقبلاً وأدبر إذ أقبلتَ يستبعدُ القربا
* * *

كنى عجباً أن يعجبَ الناسُ أنه بنى مرعشاً نبأً لآرائهم نبأً
* * *

وإذ يرجع إلى حلب ونفسه ممتلئة من نشوة هذا الظفر تفاجئه الأنباء بأن
ديار مضر قد ثارت ! يا الله . . . إنه لم يكذب ينفض عن منكبيه غبار معركة
« سروج » حتى يتجه إلى « حران » وينكل بهذه القبائل الثائرة أشد تنكيل . .
وينتهي به الأمر بعد أن يضربهم ضربة قوية أن يأخذ من بني عقيل وبني قشير
وعجلان رهائن لكيلا تتجدد منهم هذه الفتن الداخلية التي كانت تؤلم نفسه
أشد الألم .

* * *

يرجع الأمير مع جيشه ونفسه ثملة من نشوة النصر . والتنكيل بالعدو الداخلي
أشقى للنفس من التنكيل بالعدو الخارجي . . . ولكن لا يكاد يتجه نحو حلب
حتى يبلغه أن البيزنطيين قد اعتزموا غزو حلب . وأنهم قد دخلوا ديار المسلمين .
فيستفرض لهذا الخبر وهو على أهبة القتال دائماً فيعبر الفرات إلى دلوص . ثم إلى
قنطرة صنجة ولا يزال حتى يدركهم في ملاطية . وتقع بينهم معارك قوية في هذه
السرود التي تمتد من حران إلى ملاطية ويستمر القتال أياماً . وتنتهي المعارك بظفر
الأمير وهزيمة البيزنطيين وقد تركوا عدداً غير قليل من الأسرى بينهم قسطنطين
فوكاس بن برزاس . وقسطنطين هذا شاب في ميعه العمر . نزل الأسر من نفسه
منزلاً صعباً فضاعت الدنيا في وجهه وعراه ذهول غريب . قومٌ غير قومه ووطنٌ
غير وطنه فاغتمٌ وكمد وحزن وما زال في كمد وحزن حتى قضى نحبه في
حلب . وقد تأثر سيف الدولة الأمير الشاعر من هذا المصير الحزين الذي
انتهى إليه قسطنطين الشاب . وسلم الجثة إلى مسيحي حلب الذين دفنوه في
إحدى كنائسهم باحتفال مهيب سادته الصمت والحزن العميق . ويقال إن
سيف الدولة أرسل إلى والد قسطنطين رسالة تعزية رقيقة . على أن لم نعثر على نص
هذه الرسالة فيما بين أيدينا من كتب ^(١) .

* * *

(١) لقد أشار كل من المتنبى وأبي فراس إلى أسر قسطنطين بقولهما :
لكل امرئٍ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا

* * *

لقد أخذ النصر يثاقي سيف الدولة في حروبه وكانت هذه الصدمة التي منى بها البيزنطيون، و وفاة قسطنطين في الأسر وانخذه الم مرة بعد الم مرة مدعاة لأن يستعدوا لقتال جديد . . ولم تدخل سنة ٣٤٣ هـ - أي بعد عام من تلك الهزيمة - حتى نشبت معركة ثانية كانت أشد هولاً من الأولى .

لقد نشبت نيران هذه المعركة في جوار قلعة « الحدث » وفي الروايات العربية أن سيف الدولة سار نحو حصن الحدث لبناء القلعة وما كاد يصل إليها ويباشر تخطيطها حتى نازله ابن النقاس - دمستق النصرانية (١) - في نحو خمسين ألف فارس وراجل من جموع الروم والأرمن والروس والبلغار والصقلب والخزرية . وأن سيف الدولة حمل عليه في نحو خمسمائة من غلمانه - أي من خاصة رجاله دون جنوده وظلت الحرب مستعرة من الصباح حتى العصر . وتتفق الروايات على أن سيف الدولة قتل نحو ثلاثة آلاف من رجاله وأسر كثيرين بينهم صهر قسطنطين وبعض البطارقة - أي القواد - حتى هزمهم شر هزيمة . ثم عاد إلى إتمام بناء « الحدث » وما زال حتى وضع آخر شرفة منها بيده . ويقول الثعالبي في وصف هذه الموقعة : « وسار سيف الدولة لبناء "الحدث" وهي قلعة عظيمة الشأن . فاشتد ذلك على ملك الروم فجمع عظماء أهل مملكته وحزهم بالصلب الأعظم . وعليهم فردوس الدمستق ثائراً بابنه قسطنطين في عدد لا يحصى حتى أحاطوا بعسكر سيف الدولة والتهبت الحرب واشتد الخطب وساءت ظنون المسلمين

سريت إلى جيحان من أرض آمد

فول وأعطاك ابنه وجيوشه

وما طلبت زرق الأسته غيره

المتنبى

وآب بقسطنطين وهو مكبل

وولى على الرسم الدمستق هارباً

فدى نفسه بآبن عليه كنفه

وقد يقطع المصو النفيس لغيره

أبو فراس

(١) هكذا في الروايات العربية والأصح برزاس فوكاس والد قسطنطين كما تسجله المصادر

الإفرنجية .

ثم أنزل الله نصره فحمل سيف الدولة بحرق الصفوف طلباً للدمستق . فولى هارباً
وأسر صهره وابن بنته وقتل خلق كثير من الروم .
ورجع الأمير الحمداني إلى حلب يسمع مديح شاعره أبي الطيب
الذى خاطبه بقصيدته الكبرى « على قدر أهل العزم تأتي العزائم » . وفي هذه
القصيدة يسمو المتنبي إلى أوج البلاغة ودقة المعنى وعمق التصوير ولا سيما حين
يصف شجاعته وبطولته بقوله :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووحبك وضاح وثغرك باسم

* * *

إن من* يعمن النظر بهذه المعارك التى خاضها سيف الدولة يرى أن الأمير
الحمداني كان يرمى في حروبه وغزواته إلى فكرة قومية بحتة لصون حمى الوطن
من طغيان الأجنيبي بينما كان البيزنطيون يثيرونها حرباً دينياً لاسترداد بلاد دخلت
في حوزة الإسلام . ويستطيع من يبحث « الحروب الصليبية » أن يرد بدء عهدها
إلى هذه الحروب لا إلى تلك التى أثارها بطرس الناسك والبابا أرباتوس الثانى فى
القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر أى إلى عهد السلطان صلاح الدين
الأيوبى .

٢

حماية الثغور - استئناف المعارك - المتنبي فى ساحة الجهاد
- ظفر تلو ظفر - أول انكسار - نجاة سيف الدولة .

ظلت بيزنطية سنوات لا هم لها إلا هذه « الدولة الحمدانية » التى صمدت
لعدوان البيزنطيين بقوة استطاعت ، بما أبداه الأمير سيف الدولة من البطولة ، أن
تحتفظ بالكيان العربى وأن تأخذ على عاتقها حماية الثغور الإسلامية . وحماية
الثغور مهمة لا يتولاها إلا الرجال الصناديد ، والثغر هو الموضع القريب من
أرض العدو الذى يخشى منه هجومه ، والحد الفاصل بين المتعادين ، وإذا أردنا

الدقة في التعبير المتعارف عليه في عصرنا هذا نستطيع أن نقول إن « الثغور » هي « الحدود » بمعناها الدولي الشامل . وقد تولى سيف الدولة هذه المهمة التي كانت تتولاها الخلافة الكبرى — بكثير من الاهتمام والحذر واليقظة ، وأطلق مؤرخو الإسلام على أميرنا الحمداني لقب « حامي الثغور الإسلامية » وأشار ياقوت في معجمه إلى هذه الناحية بقوله ^(١) : « ... ثم لم يزل هذا الثغر هو طرسوس وأذنة والمصيصة ^(٢) وما ينضاف إليها بأيدي المسلمين والخلفاء مهتمون بأمرها لا يولونها إلا شجعان القواد والراغبين عنها في الجهاد ، والحروب بين أهلها والروم مستمرة ، والأمور على هذه الحال مستقرة حتى ولى العواصم والثغور الأمير سيف على بن أبي الهيجاء بن حمدان فصمد للغزو وأمن في بلادهم واتفق أن قاباه ماوك أجلاذ ورجال أولو بأس وجلاد ، وبصيرة بالحرب والدين شداد » . ولم يضق الأمير بهذه المهمة . فقد رأيناه في السنوات التي بدأها بمحاربة البيزنطيين كيف كان يثيرها حرباً شعواء في سبيل فكرة قوية سامية ، فكرة الدفاع عن أرض الوطن وحصون تراث الإسلام .

* * *

ولقد أوضحنا في الفصل السابق كيف كانت المعركة التي خاضها عام ٣٤٣ هـ في جوار قلعة « الحدث » وهي من المعارك الكبرى التي منى فيها البيزنطيون بنحسائر فادحة في الأموال والنفوس ، وكيف كان اندحارهم مريعاً ، ولم يمر عامان حتى أعدت أميرنا المغوار العدة لحرب جديدة . كأنه كان يرقب هجمات البيزنطيين بعد انكسارهم الدامي المرة بعد المرة ، وهذا الذي أهاب به أن يشرف على الثغور قبل أن يهاجموه في أرض مملكته . والحق أنه لولا يقظته وتأهبه للقتال وصموده للأحداث لكانت « الدولة الحمدانية » أثراً من الآثار ولما كان لسيف الدولة هذا الذكر الداوي في فم الأجيال .

(١) معجم البلدان جزء ٣ ص ٧ .

(٢) أذنة — أي أطنة — بلد من الثغور قرب المصيصة المشهورة . المصيصة ، مدينة على شاطئ نهر جيحان قريبة من طرسوس وكانت من مشهور ثغور الإسلام .

ترك الأمير حلب عام ٣٤٥ هـ ووجهته أرض الروم فعبّر وجيشه وشاعره المتنبي الذي أحب أن يشارك الأمير لذة الجهاد وأن يشهد بنفسه هذه المعارك التي طالما نقل إليه الغزاة أخبارها فوصفها وصف الشعراء الملهمين لا الغزاة الفاتحين - نعم! عبروا نهر أرسناس ^(١) وما زالوا في طريقهم حتى اجتازوا حصن الران ، وهو حصن على الحدود قرب ملاطية ، ومنه إلى « تل بطريق » أي دخلوا منطقة البيزنطيين وظلوا فيها عدة أيام دون أن يجدوا أية مقاومة من الأهالي . وفي رواية بعض المؤرخين أن سيف اللولة أحرق البلد وقتل من وجد فيها عدا الأطفال والنساء . . . وإلى هذا أشار المتنبي بقوله :

قاسمها ^(٢) « تل بطريق » فكان لها أبطالها ولك الأطفال والحرم

ودوى الخبر في آذان البيزنطيين فلاحقوا بسيف اللولة وعلى رأسهم أحد بطارقهم ولديهم ثلاثة آلاف قوس . وما كاد يبدأ القتال حتى جادت السماء بمطر سخي فابتلت أوتار القسي وتعطلت عن الرماية ووقفوا كالمشلوحيين ولم يستطيعوا القتال فتفرق الجنود في أطراف المماكة ، وكان هذا التراجع مما أثار الحماسة في نفس الأمير العربي ورجاله فأوغلوا في أرض الروم يسبون كل ما أحلته لهم الحرب . وبلغ هذا الانكسار سمع نيسفور فوكاس فجهز حملة كبيرة تحت قيادة سبطه الذي يدعوه مؤرخو العرب « شمشقيق البطريق » وقد رأى أن يبدأ غارته من أطراف ديار بكر . وأقسم لنيسفور أن لا يرجع إلا وقد نخل سيف اللولة وكسره شر كسرة . وأشار المتنبي إلى هذا القسم بقوله :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندَمُ	ماذا يزيدك في إقدامك القسمُ
وفي اليمين على ما أنت واعدُهُ	ما دلّ أنك في الميعاد متهمُ
آلى الفتى ابنُ شُمشِقيقٍ فأحسنه	فنى من الضرب تُنسى عنده الكلامُ

(١) أرسناس : نهر في بلاد الروم يوصف ببرودة مائه .

(٢) أي السيوف .

ونعى للأمير تاهب ابن شمشقيق فابتسم ابتسامة الواثق من نفسه وسره أن يلتقى مع قائد من القواد لا مع شرازم لا يقودها رجل له مكانته وبطولته . . . وحول جيشه نحو بحيرة « سمبساط » ولم يصل إلى حران حتى لقيه وجوه بنى نمير فتقدموا إليه وسألوه العفو عن انتفاضهم وثورتهم وأعلنوا له خضوعهم والعمل تحت رايته . فكان ذلك تعزيزاً لجيشه وقوة له . ولحق بالبيزنطيين الذين استدرجوه إلى هوة عميقة وظنوا أن النصر سيكون حايضهم في هذه المعركة بعد أن أخذوا عليهم الدروب ، ونشب القتال ودامت المعركة أياماً وأسابيع في هذا المضيق الضيق الذى يعرف بدرب « باقسايا » فخذل البيزنطيون وقتل منهم أربعة آلاف رجل بينهم كبار الرجال والقواد ، وغنم الحمدانيون أشياء كثيرة من عتاد الحرب ومعداتها عدا الثمنائس الثمينة كالحلى والديباج وما زالوا يتعقبون العدو حتى توارى أمامهم فدخلوا « آمد » وأنشد المتنبي الأمير سيف الدولة قصيدته الكبرى « الرأى قبل شجاعة الشجعان » وفيها يصف هول هذه المعركة ويصف الأماكن التى اجتازوها وصفاً دقيقاً لعلّ أبلغ ما جاء فيها وصفه الجيش بقوله :

فى جحفل ستر العيون غباره ^(١)	فكأنما يبصرن ^(١) بالآذان
يرمى بها البلد البعيد «مظفر» ^(٢)	كل البعيد له قريب دان
فكأن أرجلها بتربة منبج	يطرحن أيديها بحصن الران
حتى عبرن بأرسناس سواجاً	ينشرن فيه عمائم الفرسان

وبعد أن يصف فى قصيدته هذه برودة ماء النهر وكيف أن قسماً من الجيش وعلى رأسه سيف الدولة استطاع أن يعبره وأن القسم الآخر لم يستطع إلا بهذه السفن التى أنزلوها النهر — يشير إلى وعورة الدروب التى كادت تفقدهم المعركة لولا بطولة الأمير وحماسة جنوده بقوله :

وعلى الدروب وفى الرجوع غضاضة^(٢) والسير ممتنع^(١) من الإمكان

(١) أى التحيل .

(٢) يريد بالمظفر سيف الدولة .

والطَّرْقُ ضَيْقَةُ الْمَسَالِكِ بِالْقَنَا
نظروا إلى زبر الحديدِ كأنما
وفوارس يجبي الحمام نفوسها
ما زلتَ تضربهم دراكا في الذرى
والكفرُ مجتمعٌ على الإيمانِ
يصعدنَ بين مناكبِ العقبانِ
فكانها ليست من الحيوانِ
ضرباً كأنَّ السيفَ فيه اثنانِ

وما يزال في وصفه حتى يخاطب سيف الدولة بقوله :

رفعتُ بك العربَ العمادَ وصيرتُ
قم الملكَ مواعدَ النيرانِ

وقفل سيف الدولة إلى حلب يجرر أذيال الفخار واستعدت المدينة للقاءه وهو في نشوة من الفرح . وأخذ الشعراء يعلنون قصائد المديح ، وجاشت نفس المتنبى فأنشده قصيدة ثانية يصف فيها هذه المعركة وقد غمز سبط نيسفور غمزات جارحة ثم وصف الجيش وهو يعبر نهر أرسناس بقوله :

وجاوزوا أرسناساً معصمينَ به
وما يصدك عن بحرٍ لهم سعةُ
عبرتَ تقدمهم فيه ، وفي بلدٍ
صلبتهم بخميسٍ أنت غرته
فكان أثبت ما فيهم جسومهمُ
وكيف يعصمهم ما ليس ينصمُ
وما يردك عن طودٍ لهم شممُ
سكانه رمم مسكونها حممُ
وسمهريته في وجهه غممُ
يسقطنَ حولك والأرواح تنهزمُ

ويظل يصف هول المعركة حتى ينتهي إلى مخاطبة الأمير الحمداني بقوله :

ألقِ إليك دماءُ الروم طاعتها
نفتُ رقاد « على » عن محاجرهِ
القائم الملك الهادي الذي شهدت
فلو دعوت بلا ضرب أجاب دمُ
نفسٌ يفرح نفساً غيرها الحلمُ
قيامه وهلهاء العربُ والعجمُ

• • •

كان يعلم سيف الدولة أن هذه الانتصارات المتوالية ستثير أحقاد البيزنطيين وأنهم سيوقظونها حرباً دينية مريعة . . ولكن حلاوة النصر جعلته لا يفكر كثيراً بما يفاجئه به الغد ولا سيما أنه نذر نفسه للقتال ورد غارات العدو وحماية الثغور

من أى خطر مداهم .. ومرت سستان وليس فى أطراف المملكة ما يبعث فى نفسه المخاوف . وما أطل العام ٣٤٩ هـ حتى نقل إليه أن البيزنطيين قد هبوا هبة كبرى لغسل عار هذه الانكسارات المتوالية ، وأنهم قد حوّموا حول ثغور المسلمين وتعدّوا حدود طرسوس والرها وقتلوا وسبوا دون أن يلقوا أية مقاومة. وكان لابد له وقد جاءته هذه الأخبار من أن يرد هذه الغارة .. وليس ذلك ما يخيفه ولا سيما أن التوجه نحو أرض الروم ولقاء العدو وخوض المعارك قد أصبح من الأمور الغريزية فى نفس سيف الدولة ورحاله الأشداء الذين هبّاهم لهذه الحوادث . فلا يكاد يرتفع صوته ويعلن الجهاد حتى ينضوى تحت لوائه أشبال العرب وكلهم فارس مغوار وبطل صنديد .

* * *

سار سيف الدولة وجيشه إلى خرشنة^(١) ، وخرشنة هذه بلدة قريبة من ملاطية وهى من ثغور الروم . أى أراد الأمير الحمدانى أن يضرب البيزنطيين فى منطقة حدودهم وأن يحول دون توغلهم فى بلاد الإسلام ولا سيما أن مطامعهم نحو احتلال حلب واسترداد الشام تكاد تكون جليلة واضحة . نعم ، اتجه الأمير الحمدانى نحو خرشنة بعد أن فتح عدة حصون بيزنطية وقد مكّنه البيزنطيون أن يتوغل فى بلادهم وما زالوا حتى طوقوه فى هوة عميقة ، ورغم كل ما بذله رجال سيف الدولة من الحنكة والبطولة ومقاومة العدو فإن النصر لم يحالفهم هذه المرة فخسر الأمير المعركة وأضاع جيشه كله وكان يربو على الثلاثين ألفاً وقد نجا هو وثلاثمائة من خائن رجالة بكثير من الجهد والمشقة .

أشار ابن مسكويه فى كتابه « تجارب الأمم » إلى هذه المعركة بقوله :
« وفى هذا العام - ٣٤٩ هـ - غزا سيف الدولة فى جمع كثير فآثر فى بلدان

(١) جاء ذكر هذه المدينة كثيراً فى شعر المتنبى وفى شعر أبى فراس الذى بقى فيها مدة أسيراً وقد خاطبها بقوله :

إن زرت خرشنة أسيراً فلّم حلت بها مفيراً

- وفى رواية أميرا -

الروم آثاراً عظيمة وأحرق وفتح حصوناً وحصل في يده سبي كثير وأسارى وانتهى في غزوه إلى خرشنة فلما أراد الخروج أخذ الروم عليه المضايق فما تهيأ له أن يتخلص إلا بجهد عظيم هو ونحو ثلاثمائة غلام وهلك باقي أصحابه أسراً وقتلاً وارتجع منه السبي كله والأسارى والغنيمة وأخذت جميع خزائنه وسلاحه ، وقتل من الوجوه الذين كانوا معه حامد بن النمش وموسى بن سياكان والقاضى أبو حصين وكان معه من المسلمين ثلاثون ألفاً وخرج أهل طرسوس من طريق آخر فسلموا ، ويعللون سبب انكساره ونجاة الطرسوسيين أن سيف الدولة كان صلب الرأى ، أقرب إلى «ديكتاتورى» هذا العصر منه إلى الرجل الذى ينزل عند رأى غيره ، أى أنه كان لا يعتمد إلا على الخطط التى يرسمها هو بنفسه وهذا الذى جعله يفشل فى هذه المعركة دون أن يصغى إلى نصيحة الطرسوسيين وهم أعلم منه — على ما يظهر — بطبيعة تلك المناطق ، ومن يدرى فقد تكون أنفته وبطولته وهذه الانتصارات الطويلة التى حازها فى السنوات العشر التى تصرمت من سنى جهاده هى التى جعلته لا يهرب من أمام العدو بل يقاتلهم قتال الأبطال لوثوقه من الظفر ولكن جلسه لم يتحقق هذه المرة فنجا هو بأعجوبة بعد أن خسر المعركة وأضاع جيشه الذى كان عدته ومناط آماله فى القتال .

وتشير الرواية الأجنبية إلى هذه المعركة كما يلي ^(١) : وفى سنة ٩٦٠ م انهزم سيف الدولة شر هزيمة أمام العدو وعاد إلى حلب برفقة ثلاثمائة فارس فقط . وقد أسر البيزنطيون عدداً كبيراً من رجاله منهم أبو العشائر أحد أقرباء الأمير الذى مات فى القسطنطينية والشاعر المشهور أبو فراس ^(٢) ومن جملة القتلى كان

(١) عن كتاب *Alep, autrefois et aujourd'hui*

(٢) تتفق الروايات العربية حين تعرض إلى أسر أبي فراس — أن أسره كان عام ٣٥١ هـ بينما تذكر الرواية الإفرنجية أن هذا الأسر هو فى عام ٣٤٨ — ٣٤٩ ونحن نرجح أنه أسر مرتين مرة سنة ٣٥١ هـ ومرة سنة ٣٤٨ هـ أو قبل هذا التاريخ . ودليلنا أن أبا فراس قد أرسل وهو فى الأسر عدة قصائد إلى القاضى أبي حصين — قاضى حلب — وكانت تربطه به مودة وثيقة — وإذ علمنا أن أبا حصين قتل عام ٣٤٩ هـ كما أثبتته الروايتان العربية والإفرنجية صح عندنا أن أسر أبي فراس كان قبل هذه المعركة . هذا ما وصل إليه تحقيقنا ولا يمنع أن نرجع عن هذا الرأى إذا جامعنا ما ينتقسه .

حصين الرقي ، قاضى حلب وقد كان الأسرى الحلبيون عديدين « . ورغم التباين في عرض أخبار هذه المعركة فإن الروايتين العربية والإفرنجية تتفقان في أن النصر لم يأت سيف الدولة وأنه منى في هذه المعركة بانخذال مريع فرجع إلى حلب يفكر من جديد بالثأر لكرامته وصون الوطن من هجمات البيزنطيين .

* * *

وقد وقفت الحرب سنة وبعض السنة وأخذ الفريقان يستعدان لمعركة حاسمة . وقد يكون سيف الدولة هو الذى لجأ إلى هذا الانكماش ليتمكن من تنظيم جيشه الجديد لأنه يعلم أن خصمه نيسفور فوكاس يتأهب للقضاء عليه وهذا ما يشير إليه المسيو بوران في كتابه « حلب : في عصورها القديمة والحديثة » — والذى اعتمد في بحث هذه الناحية على مصادر رومانية : « وفي هذه الأثناء كان نيسفور يدبر خطة يستطيع التخلص بها ، دفعة واحدة من أمير حاب الشديد المراس . وكان هدفه أن ينقذ كليكيا وسورية وفلسطين والعراق وأن يبعد حدود المملكة حتى الدجلة ورمال الجزيرة العربية ، وقد فطن أن أول ما يجب أن يقوم به هو الاستيلاء على كليكيا وأن يجعلها مقره ومركز قيادته . لأنه تحقق أن كليكيا هي بمثابة حصن طبيعي يستطيع من يستولى عليها أن يسيطر على آسيا الجنوبية من جهة الشمال ، وسورية من جهة الجنوب . غير أن جميع مضائق الأمانوس وطوروس وكذلك كليكيا كانت حتى عام ٩٦١ م في حوزة أمير حاب » .

فهل تحققت آماني نيسفور؟ وهل استطاع أن يثأر لهذه اللماء التي أهرقها العرب في أراضي كليكيا وفي مضائق طوروس ؟ هذا ما نريد أن نتناوله في فصل قادم .

٣

الدولة الرومانية الشرقية - لحظة سريعة عن الأدوار التي تتابعت من عهد
قسطنطين الكبير إلى محمد الفاتح - الأسرة المكدونية - ملوك بيزانس
وحياتهم الخاصة - الحب والمآسى في زوايا القصور - الصراع بين الكنيسة
والقصر - الجيش البيزنطى في القرن العاشر - نظرة عامة .

* * *

لترك سيف الدولة وقد عاد إلى حلب جزع النفس مما منى به من
خذلان وفشل ، لتركه يفكر في تنظيم جيشه من جديد ، ولنتقل من حلب إلى
القسطنطينية . . إلى عاصمة القياصرة نتعرف إلى أولئك البيزنطيين الذين اشتبكوا
بمحروب دامية مع الحمدانيين . ففي دراسة تاريخهم والإلمام بسيرة ماوكهم وقوادهم
وتعرف حالة الجيش والعناصر التي تتكون منه وآلات الحرب وعدد القتال وعلاقة
بيزنطية بالدول المجاورة - إن معرفة هذه النواحي تساعدنا على تفهم طبيعة تلك
الحروب التي خاضها الأمير سيف بكثير من الشجاعة والبطولة والإقدام .
لقد ألمعنا في الفصل الأول من هذا البحث إلى ملوك البيزنطيين دون أن نتناول
ذلك بالإسهاب الذى يقتضيه سياق البحث وهذا ما نريد أن نحاوله الآن .

* * *

لثون الفيلسوف ، قسطنطين السابع ، رومان الثانى ، تهوفانو الحميلة ،
نيسفور فوكاس هم القياصرة الذين يتردد ذكرهم أكثر من غيرهم في هذه الحروب
التي دارت رحاها بين البيزنطيين والحمدانيين في القرن العاشر الميلادى . فمن أية
أسرة تحلدوا ؟ وفي أى دور من أدوار الدولة الرومانية الشرقية كانوا ؟

تحدث كتب التاريخ بإسهاب طويل عن هذه الإمبراطورية البيزنطية التي
ظلت قائمة عشرة قرون كاملة على ضفاف البوسفور ! أى من عهد قسطنطين
الكبير الذى هجر رومة وخرج على آلهة الرومان الباطلة واعتنق المسيحية وجعل
من القسطنطينية رومة ثانية - إلى دخول السلطان محمد الفاتح مدينة إستانبول

وتقويضه ملك الرومان . وقد مرّ خلال هذا العهد ستة أدوار تاريخية قد يكون من المفيد أن نمر بها مروراً سريعاً لنقف عند الأسرة المكلونية التي تحدّر منها من ذكرناهم من القياصرة .

فالدور الأول : يبدأ من سنة ٣٩٥ م — وهي السنة التي مات فيها « تيودتيوس » بعد أن قسّم الدولة الرومانية بين ولديه هوربويوس وأركاديوس إلى سنة ٥٦٥ م ^(١) .

والدور الثاني : من سنة ٥٦٥ م إلى سنة ٧١٧ م وهو الدور الذي جلست فيه على عرش الرومان الأسرة الأيسوريانية نسبة إلى أيسورية وهي إقليم من القارة الآسيوية . ومما يجدر ذكره في هذا الدور أن « هيرقل » ملك الروم الذي أرسل إليه النبي محمد (ص) كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام هو من ملوك هذه الأسرة . وفي هذا الدور أيضاً أغارت جيوش العرب على الكثير من ممالك آسيا فافتحوها بما كان لهم من الأساطيل البحرية التي استولوا بها على جزيرتي قبرص ورودوس في خلافة معاوية بن أبي سفيان .

والدور الثالث : من سنة ٧١٧ م إلى سنة ٨٦٨ م أي من صعود الأسرة الأيسوريانية على عرش المماكة إلى تغلب الأسرة المكلونية بحكم الإمبراطور باسيلوس الأول .

والدور الرابع : من سنة ٨٦٨ م إلى سنة ١٠٥٧ م أي من صعود الأسرة المكلونية على العرش حتى تغلب أسرة كومنين .

والدور الخامس : من سنة ١٠٥٧ م إلى سنة ١٢٠٤ م ويمتدّ هذا الدور من عهد إسحق الأول كومانينوس إلى سقوط الدولة الإغريقية واستيلاء الصليبيين على القسطنطينية .

(١) ومن قياصرة هذا الدور يوستنيان الذي يعد عصره من أرق عصور الإمبراطورية الشرقية بعد قسطنطين وقد حكم ٣٧ سنة . وكانت حدود مملكته تنتهي في الغرب بالبحر الأدرياتيكي وفي الشرق بصفاف دجلة وتمتد حدودها الشمالية إلى أعلى بلاد التتر وتنتهي في الجنوب إلى بلاد الحبشة .

والدور السادس : من سنة ١٢٠٤ م إلى سنة ١٤٥٣ م وفي هذه السنة فتح الأتراك القسطنطينية بعد حروب طويلة وكان ذلك آخر عهد البيزنطيين في الشرق. هذه هي الأدوار الستة التي مرت في حياة الإمبراطورية الرومانية في الشرق . والذي يهمننا منها الدور الرابع . دور الأسرة المقلونية حيث جرت في عهدها حروب سيف الدولة ، تلك الحروب العنيفة التي عرف القراء مقدماتها وسيعرفون نتائجها .

* * *

الأسرة المقلونية

بلغت الإمبراطورية البيزنطية في عهد الأسرة المقلونية أوج المجد وذروة السيادة . وكان همّ هذه الأسرة أن تحتفظ بهذا الملك العريض رغم ما كان ينتابه من هزات عنيفة ، لقد كانت الأحداث الخارجية قوية وكانت الفتن الداخلية أقوى . ومع ذلك فقد استطاعت أن تحتفظ إلى حد ما بأبهة الملك وعزّ السلطان . ويجمع مؤرخو الفرنجة على أن الأسرة المقلونية قد حفظت مجد بيزانيس ، رغم غارات العرب المتوالية من الجنوب وهذه الحروب الدامية التي كان يثيرها البلغاريون من الشمال ، واستطاعت إلى ذلك أن تفرض دينها ومدنيتها على البلغاريين ، وأن تسترد من العرب كريد وقبرص وقسما من شمالي كليكيا ، وأن تجعل من أرمينيا وجبالها الشاغحة سداً منيعاً في وجه العرب الذين كانوا يطمعون أن يقضوا على هذه الإمبراطورية بكاملها . ولولا الفتن الداخلية التي كانت تشغلها ، وهذا الصراع القوي بين الكنيسة والقصر ، وهذه الشهوات التي كانت تطفئ على رجال الحكم لكانت فتوحاتها امتدت إلى أكثر مما ذكرناه .

واسيليوس

لقد كان رأس هذه الأسرة واسيليوس — أو باسيل الأول — وهو رجل من عائلة فقيرة تمكن بدهائه ومغامرته أن ينال حظوة عند ميخائيل الثالث آخر قياصرة

الأسرة الأيسوريانية ولكن هذه الخطوة قد انقلبت نقمة عليه ، وأراد الملك أن يقضى عليه ولكن نفوذه كان قد اشتد فتمكن أن ينجو من هذه المكيده بمهارة ، وأن يقضى هو بدوره على الملك ، وأن يعتلى العرش ويدير شئون المماكة بكثير من العزم والحزم والدهاء . وقد جنح واسيليوس إلى البطش والقوة فأطفأ نيران الفتن المذهبية وسعى جهده أن يقضى على خلافات الكنيسة فوق في الأولى بعض التوفيق ولم يوفق في الثانية أى في توحيد الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية معاً . وحارب واسيليوس المسلمين سنين طويلة انتهت به إلى ظفـره في كثير من المواقع فاسترد قيسارية « قيصرية » وانتصر على الأغلبة في صقلية ومنعهم من دخول « دالماسيا » .

ليؤن السادس

وبوفاة واسيليوس ارتقى العرش ليؤن السادس الملقب بالفيلسوف . لقد كان هذا الإمبراطور ذا ثقافة واسعة ، دفعته ثقافته وإلمامه التام بتاريخ العقائد والآداب والرياضة أن يحاول إصلاح قوانين المملكة ونظاماتها ولكن هذه الإصلاحات لم تتم لأن حروبه مع الروس ومع البلغار معاً قد حالت دون أن ينفذ برنامجه الإصلاحى .

ولهذا الإمبراطور قصة طريفة يحسن أن نلم بها لأن لها علاقة بهذا الصراع الذى كان يشتد بين القصر والكنيسة من جهة ، وبهذا الترف بل بهذا الانغماس فى الشهوات الذى يعده المؤرخون من أكبر العوامل فى انهيار مملكة الرومان من جهة أخرى ، وخلاصتها أن أباه وأمه قد اختارا له الفتاة « تـهـثوفانو » فتزوجها على كره منه لأن قلبه كان مشغولاً بحب فتاة غيرها ، كان يحب « زوى » ابنة القائد « زاثوجيس » ورغم كل الوسائل التى عملت للحيلولة بينهما فقد كان يجتمع بها ويقضى معها ساعات طويلة . وطبيعى أن تثير هذه الصلات الغرامية حتى زوجته الشرعية وغضب أبيه ولكن نداء القلب كان ألصق بالنفس من حتى الزوجة وغضب الأب ! ورأت الأم أن يزوجوا « زوى » من أحد أفراد البلاط

وتم زواجها . ورغم كل ما عملوه من الحواجز فإن العلاقات لم تنقطع بين العاشقين وكان ذلك من أكبر العوامل التي أثرت في تهو فانو فاعتصمت وشحب لونها وما زالت في حرقه وغصة . وفي لوعة وكمد حتى قضت نحبها وهي في شرح الصبا . وبوفاة تهو فانو لحاً القيصر إلى كبار البطارقة ليسهلوا له زواجه بزوى ولكن البطارقة وقفوا ضد هذا الزواج ، ومع ذلك فقد تم بالرغم عنهم وعن الكنيسة ، وأصبحت زوى التي أحبها كثيراً سيدة القصر ، وكانت كلمتها هي النافذة في كل شيء . ولكن الأقدار لا تجرى على وتيرة واحدة فلم تكد تبسم لهما السعادة حتى انتزعها الموت من بين يديه فحزن عليها حزناً بالغاً . ومرت الأيام ، وتأتها الشهور وهو يذكر فجيعة بزوى . وأحب أن ينسى هذه الفتاة فتزوج فتاة أناضولية ساذجة . وقضى معها أياماً حلوة عذبة . ولكن هذه الأيام العذبة لم تدم أكثر من عام واحد . لأن الموت قد داعب هذه الفتاة التي لم تكد تنها بمجد الملك وعز السلطان حتى اخترم شبابها كما اخترم شباب زوى وانتقم لتهو فانو التاعسة البائسة .. وازداد حزن القيصر . ولكن ما يجديه الحزن ؟ لذلك كان يستسلم لقضاء الله ويعتمد فلسفته في الصبر . وهداه قلبه إلى فتاة تشبه زوى كل الشبه فاتصل بها وكانت بينهما علاقات غير شرعية ، وضجت الكنيسة من هذه العلاقات ووقف البطريق نيقولا في وجه القيصر ، ولكن ليون كان أقوى من الكنيسة فلم يلتفت إلى هذا الصخب الداوى وظلت علاقته بزوى وثيقة ، وحملت منه ، عندئذ قرر أن يتزوج منها كما تزوج من تلك دون أن يعبا بمعارضة الكنيسة . وبينما هو في هذا القلق الفكرى إذ يكشف العيون مؤامرة واسعة النطاق تدبر ضد القيصر عرف من أعضائها البطريق نيقولا . ورأى ليون أن الفرصة مؤاتية لأن ينتقم . وخشى البطريق نيقولا بطش القيصر وأن ينتقم من الكنيسة في شخصه فسرعان ما خمدت معارضته وتقرّب إلى القصر وأصبح من دعاة القيصر ومن أكبر مؤيديه . وبدأ يتردد على القصر ويبارك القيصرة ويدعو للجنيين بالنمو والحياة ! واستجاب الله دعوته فولدت زوى ! ! وتحققت أمنية ليون في أن يكون له ولدٌ يرث هذا الملك العريض . وتوفى ليون الفيلسوف دون أن يحدث في

عهده سوى هذه المحاولات التي بدأها بتوحيد الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية وهذه النزوات التي أثارت عليه حقد الكنيسة عدا حروبه مع البلغار والروس مما لم نجد فائدة من تفصيله في هذا البحث .

قسطنطين السابع

ونودي بقسطنطين السابع ملكاً وهو في المهد . وأقام مجلس الشيوخ عمه ألكساندروس وصياً عليه . وأخذت اللسائس تعمل عملها في طرد أمه من القصر فطردها ألكساندروس . ولا شك أن ذلك كان بإيعاز البطريرق نيقولا . وبوفاة ألكساندروس عادت « زوئي » إلى القصر . فعاد البطريرق يخاصمها بشدة ، واتجأت إلى الحزب الذي كان يناهض البطريرق . ولكن حزب الكنيسة كان أقوى ، وظل البطريرق نيقولا ينفث سمومه حتى تمكن من طردها . وكان ابنها لا يزال في فجر طفولته فأخذت زوئي تبكي وتنحب ، وارتمت بين يدي ابنها متوسلة أن تبقى إلى جانبه في القصر ففاضت عاطفة الابن وضم أمه إليه . وكانت هذه العواطف مثاراً قوياً لأن ترك زوئي في القصر رغم كل ما عملته الكنيسة على طردها .

وشب قسطنطين ، ولكنه لم يكن كأبيه . وإن كان مؤرخو الفرنجة يجمعون على أن عهدهما كان أزهى عهود الأسرة المكلونية رغم ما انتابه من هزات وأزمات . وما هو جدير بالذكر أن انتصارات سيف الدولة على البيزنطيين كانت في عهد قسطنطين السابع ، ففي عهده وقعت معركة « الحداث » الكبرى واندهر ابن الشمشقيق ، وكسر شر كسرة مما فصلناه في فصل . ماض وكما شغلت الإمبراطورية البيزنطية مع العرب من جهة الجنوب فقد شغلت في عهد قسطنطين السابع بحروبها الدامية مع البلغار في الشمال .

رومانوس الثاني — تهتوفانو الحميلة

وبوفاة قسطنطين السابع خلفه ابنه رومانوس . وقد حذا حذو أسلافه في الدفاع عن القسطنطينية وإعلاء مجد بيزانس . ورومانوس هذا شاب جميل ،

ريتق الصبا قد اقترن بملكة يتحدث المؤرخون كثيراً عن جمالها وسحرها وصباها ، تلك هي تهوفانو الجميلة التي لعبت دوراً خطيراً في سياسة القصر . لقد كانت تبعد من ترتاب بنياته وتدفى من تأنس منه الإخلاص والوفاء . ولكن القدر لم يرأف به فتوفى وهو في عنفوان شبابه ، ووقع هذا المصائب من نفس تهوفانو موقعاً أليماً . وما كاد يدفن رومانوس حتى اتجهت الأطماع إلى العرش ولكن تهوفانو كانت ملكة حريصة ، يقظة الشعور ، يههما مستقبل بنينا ، وأن تظل هي على رأس هذا الملك المترامى الأطراف .

نيسفور فوكاس

وكان نيسفور فوكاس القائد البيزنطى الشجاع الذى حارب سيف الدولة وجهاً لوجه - أكثر الطامحين بهذا العرش ، وكان ذا نفوذ واسع وليس له إلا أن يعلن نفسه قيصرًا حتى تنقاد له الجماعات . ولكن نيسفور كان يضع مصلحة وطنه فوق مطامحه . ورأى من الحكمة - وكثيراً ما شغلت تهوفانو قلبه بنظراتها الساحرة - أن يطلب يدها وأن يصون هذا الملك بزواج وثيق ، وقبلت تهوفانو أن تزف إلى نيسفور ، أى أن هذا الزواج كان سبيله السياسة لا الحب وسراً ، القائد الشجاع بهذه النتيجة وأخذ حبه يزداد ويقوى ، وكان لا يصبر على فراق تهوفانو ، ووصل به الحال أنه كان يقودها معه إلى ساحات القتال . ومن يدري فربما وصلت معه إلى أبواب حلب وشهدت هذه الحروب الدامية التى خاضها مع سيف الدولة . وبعد أن شغله الأمير الحمداني بحروبه أصبح يذهب وحده إلى ساحات القتال ويترك الملكة فى القسطنطينية حرصاً على راحتها وصباها ، وكان يتردد على القصر جان تسيمس Zimskes سبط نيسفور . وفى رواية ابن أخته ، وهو شاب جميل أحبته الملكة وهامت به هياماً قوياً وانتهى الأمر أن قرر الاثنان الغدر بنيسفور فى سبيل هذا الحب .

وعاد نيسفور من حروبه فى سورية بعد أن سجل عدة انتصارات على سيف الدولة ، عاد يحمل إلى تهوفانو أكاليل ظفرو ومحوه عار هذه

الانكسارات التي سجلها عليه سيف الدولة، وما كان يظن أن جهاده في سبيل إعلاء البيزنطية سيكافأ بمؤامرة تدبر له في زوايا القصر على يد تهوفانو التي أحبها وأخلص لها الحب .

وتقدمت الوفود إلى نيسفور تزف إليه التهاني ، ولكن — ما كل ما يتمناه المرء يدركه — فما هي إلا أيام حتى كانت المؤامرة قد تمت فقتل في قصره غدرًا ، وانتهت حياة هذا القائد البيزنطي بهذه المأساة الأليمة .

ونرى أن نضيف بهذه المناسبة، إلى هذه الحقيقة التاريخية، الرواية العربية التي تذكر الحادث بالنص الآتي :

«... ثم تزوج تقفور — أي نيقفور — ملك الروم بامرأة الملك الذي كان قبله على كره منها . وكان لها ولدان ، فأراد تقفور أن يخلصهما ويهديهما للبيعة ليستريح منهما لثلا يملك الروم في أيامه أو بعده ، فعلمت أمهما بذلك ؛ فأرسلت إلى الدمشق ليأتي إليها في زى النساء ومعه جماعة يثق بهم في زى النساء ؛ فجاءوا وباتوا عندها ليلة الميلاد ، فوثبوا عليه وقتلوه ، وأجلس في الملك بعده ولدها الأكبر . وتم لها ما أرادت » ^(١) مع أن الذي خلفه في الحكم هو سبطه لا ابن تهوفانو .

أحلام تهوفانو ونهايتها المحزنة

وظنت تهوفانو أن أحلامها قد تحققت وأصبح جان تسيمس « زيمسكس » صريع هواها ولم تعلم أن جان كان يطمع بالعرش أكثر مما يطمع بقلب الملكة الجميلة . وأسدل الستار على الفاجعة، وتقدم جان إلى بطريق أيا صوفيا طالباً إليه أن يبارك ارتقاءه العرش، ووجمت الكنيسة إزاء هذا الطلب، وأنكر جان أن يكون له ضلع بهذه الجناية، وحصر التهمة بتهوفانو فاشتطت الكنيسة أن ينفصل عنها فتزل عند إرادتها وأعلن نفسه ملكاً ، وكان أول ما عمله أن أبعد تهوفانو إلى

(١) النجوم الزاهرة الجزء الرابع .

« جزيرة الأمراء » — الجزيرة الحميلة التي تبعد عن إستانبول ساعة وبعض ساعة — فشق ذلك على تهوفانو وأمضتها هذا النفي، ولم تكن تنتظر هذه الإساءة ممن أحسنت إليه وأن تنهار أحلامها هذا الانهيار الأليم . وبعد شهر فرت تهوفانو من المنفى وعادت إلى كنيسة أيا صوفيا، وعلم « جان » بفرارها فأمر أن تبعد حالا إلى أرمينيا ولكنها توسلت أن تجتمع إلى جان قبل نفيها، فسمح لها بذلك ولم تكذب تنظر إليه وتستعرض هذا الماضي القريب وما مرّ بها من حالات حتى خانها البيان وانفجرت بالبكاء ثم ثارت عاطفتها الأنثوية وأخذت تقرّعه تقرّيعاً مرّاً فلم يحتمل القيصر عتابها وأصدر أوامره بإخراجها من القصر وأن تقصى عن إستانبول حالا . وأرسلت إلى أرمينيا حيث أمضت أنصر أيامها بعيدة عن أولادها ولم يسمح لها بالعودة إلا بعد وفاة جان تسيمس J. Zimes فرجعت وهي في أسوأ حال ودخلت القصر مهيفضة الجناح، دامعة العين، كسيرة الفؤاد، وقضت أيامها الأخيرة في إحدى زوايا القصر وما زالت في عزلتها المرة حتى قضت دون أن يشعر بها أحد . أما جان فقد شغلته مشاكل الإمبراطورية عن الحب والنساء وظل يحارب الروس الذين طمعوا بالاستيلاء على الآستانة — سبع سنوات كاملة عرف كيف يقضى على أحلامهم . وقد أوصى قبل وفاته أن توزع نصف ثروته على الفقراء، وأن يبني بنصفها الآخر مستشفى فخم يتناسب ووضخامة صيته .

وجاء بعد جان تسيمس عدة قياصرة، ولكل قيصر قصة مشجية، وإذ كانت الحروب الحمدانية تقف عند نيسفور فوكاس فقد رأينا أن نقف عند هذا الحد من تاريخ الأسرة المقلونية .

* * *

ويحسن بنا الآن وقد أوجزنا تاريخ هذه الدولة البيزنطية وتحدثنا عن ملوكها وعن هذه المآسي التي كانت تنشق من زوايا القصور بشكل أقرب إلى القصة منه إلى الواقع — يحسن أن نشير إلى قوتها كدولة عظيمة، وبذلك نكون قد أعطينا القارئ صورة واضحة عن هذا الخصم القوي الذي حاربه الأمير الحمداني الشجاع .

الجيش البيزنطى

كان الجيش البيزنطى على جانب عظيم من القوة والتنظيم ، وكان يشرف على تدريبه ، فى الفترة التى نحن بصدددها ، قواد عظام لعل أبرزهم نيسفور فوكاس وبارزاس فوكاس ، وكان عدده يزيد على المائتى ألف مقاتل ، ولم يكن أفراد من البيزنطيين الخالص بل كانوا خليطاً من أمم مختلفة وجنود مرتزقة— من بيزنطيين وسلافيين وأرمن وبلغار وروس وصقالبة وعرب ، حتى القيادة لم تكن تحصر بالبيزنطيين وحدهم بل كان يحوزها رجالات من الروم والأرمن والعرب ، والذى نعتقده أن نصيب العرب من هذه القيادة ضئيل جداً وإن أثبتته بعض مؤرخى الإفرنج .

وقد كانت وسائل الدفاع وخطط القتال منظمة جداً حتى إن أنباء القتال لم تكن بمعزل عن القيادة العامة فى القسطنطينية بل كان الاتصال وثيقاً ، وسيلهم إلى ذلك « العلامات النارية » وهى عبارة عن إشعال النيران على قمم الجبال والتراسل بواسطتها ، وكان للجيش البيزنطى عدة مراكز منظمة بين جبال طوروس وعاصمة الملك ، أى كانوا يعتمدون فى مخبراتهم الحربية على هذه « العلامات البرقية » — إذا جاز لنا هذا التعبير — وكانت أنباء القتال تصل إلى القسطنطينية من حدود طوروس فى ثلاث ساعات وبالعكس .

وكان فى كل منطقة من مناطق الحدود ما يقرب من أربعة آلاف جندى لحمايتها ، وكان يعتمد إلى تغيير هذه الفرق العسكرية كل أربعة عشر يوماً مرة . وكثيراً ما كانت الفرق الاستطلاعية تخترق الحدود لكشف قوات العدو حتى إذا شعرت بالخطر اتصلت بالقيادة العامة وطلبت الأمداد بواسطة « العلامات النارية » .

ولم تكن كثافة الجيش البيزنطى وكثرة مقاتليه هى كل قوته بل كان لديه من العدد الحربية ما يعد فى ذلك من أروع آلات التدمير كانت لديه « النار اليونانية » هذه الآلة المدمرة التى تتألف عناصرها من زيت النفط والكبريت والقار

وغيرها من المواد الملتببة التي كانت تحدث « دخاناً كثيفاً وانفجاراً عظيماً وتنشق منه نار شديدة حامية تندلع ألسنتها صعوداً وهبوطاً في نفس الوقت ، وتضطرم اضطراماً سريعاً هائلاً ، ولا تنطفئ عند ملامسة الماء بل تشتد وتحتدم ، ولا يخمد أوارها سوى الرمل والحل . وقد احتفظ البيزنطيون طويلاً بسر هذا السلاح الهائل واستأثروا باستعماله في محاربة أعدائهم قرونًا طويلة » ^(١) وكانت لديهم الدبابات — وقد ذكرها مؤرخو العرب بهذا الاسم واستعملها جيش المسلمين في حصار الطائف — والدبابة « أداة من أدوات الحرب يدخل المحاربون في جوفها ويدفعونها إلى جدار الحصن فينقبونها وهم في داخلها يحميهم سقفها وجوانبها من نبل العدو » ^(٢) وكان لديهم أسطول كبير في البحر وغير ذلك من شتى عدد القتال . وبالإجمال فإن الجيش البيزنطي كان على جانب عظيم من القوة والتنظيم أعدّ ليحفظ أكبر إمبراطورية في الشرق ، وهذا الذي جعلهم يحتفظون بمملكة بيزانس رغم الإغارات القوية التي كانت تتناهم من كل طرف .

* * *

ونخلص من هذا العرض إلى أن الأسرة المكلونية هي التي حاربت الدولة الحمدانية في عهد إمبراطورية بيزانس ، وأن حروبها لم تكن مع العرب بل كانت مع الروس والبلغار ، وأن الصراع بين الكنيسة والقصر وانغماس القيصرية بالشهوات وفرض الضرائب قد خلق لها الكثير من الفتن والاضطرابات الداخلية ، وأنها كانت قوية بجنودها ورجالها وعددها ومخترعاتها وأسطولها ووسائل مواصلاتها . بينا الجيش الحمداني لم يكن بهذه القوة ولا بهذه المنعة ، وكان كل سلاحه السيف والرمح والمستوفى وهو عمود من حديد مربع الشكل طوله ذراعان ، وله مقبض مستدير . وثمة مسألة يجب أن نشير إليها وهي أن مشاكل البيزنطيين لم تكن أقل من مشاكل الحمدانيين ولكن الفرق أن البيزنطيين كانوا إمبراطورية

(١) عقد الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه « مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام » فصلاً طريفاً عن تاريخ « النار اليونانية » وتطوراتها أخذنا منها الفقرة المدرجة أعلاه .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم حسن .

كبرى ذات نفوذ وقوة وجند عظيم ، وكان الحمدانيون أسرة صغيرة ، ومع ذلك فقد استطاع أميرها المغوار أن يرد هجماتهم وأن يصون هذه البقعة من مطامعهم وأن يحتفظ باستقلالها السياسى رغم كل ما عمله البيزنطيون للقضاء على هذه الدولة العربية الفتية .

٤

هجوم نيسفور فوكاس للانتقام من سيف الدولة

لقد تساءلنا ، حين انكسر سيف الدولة لأول مرة عام ٣٤٨ هـ ونحن نعرض إلى أمانى نيسفور فوكاس وتدبيره هذه الخطة المدمرة للقضاء على خصمه : هل استطاع أن يثأر لهذه الدماء التى أهرقها العرب فى مضائق طوروس وأراضى كليكية ؟ وما نحن أولاء نترك للحوادث أن تجيبنا عن هذا السؤال بعد أن ظلت انتصارات سيف الدولة عشر سنوات كاملة كادت تصل به إلى أبواب استانبول .

* * *

مرت سنة ٣٥٠ هـ دون قتال اللهم إلا بعض مناوشات بسيطة جرت بين البيزنطيين وجماعات العرب من ساكنى طرسوس . وقد يكون للطبيعة أثرها القوي فى وقف القتال لأن المؤرخين يتحدثون عن اشتداد البرد اشتداداً عظيماً كان من نتيجته أن هطلت الثلوج كثيراً وجمد نهر الفرات مما تعذر معه القتال ، وما أطل ربيع سنة ٣٥١ هـ حتى زحف البيزنطيون على مدينة « عين زربي » وكانت من مدن الثغور ولم يكن سيف الدولة قد استعد للقائهم بعد أن أضاع جيشه ، ورأى البيزنطيون أن الفرصة مؤاتية لأن يغيروا على هذه البلدان الواقعة على الحدود . فجهز نيسفور فوكاس جيشاً عظيماً يتراوح عدده بين ١٦٠ ألف جندي ومائتى ألف . وإذا عرفنا أن هذا العدد يشكل أكبر وحدات الجيش البيزنطى قدرنا مبلغ ما أثارته انتصارات سيف الدولة فى نفوس البيزنطيين من خوف وقلق . فالواقع أن الزحف البيزنطى يبدأ من هذا التاريخ ، ولم يكتف نيسفور بكثافة

هذا العدد من المقاتلين بل زود جيشه بهذه العدد والمدمرات وما لا بد منه لتذليل هذه العقبات التي تعترض تقدم الجيش : « ثلاثين ألف صانع للهدم ولتطريق الثلوج ، وأربعة آلاف بغل عليها حسك الحديد يطرحه حول عسكره بالليل — أى ما يشبه الأسلاك الشائكة في عصرنا هذا — وخركاهاات عليها لبود عسكرية » عدا الدبابات والنار اليونانية التي كانت أفعل مدمرات الجيش البيزنطى في هدم المدن وحصد النفوس . أى أن الجيش البيزنطى كان يتبع نفس الخطط والأساليب العسكرية التي تتبعها الجيوش الحديثة في غزواتها وفتوحاتها . نهي لا تكتفى بكثافة جنده وكثرة مدافعها وقنابلها وطياراتها وغازاتها السامة بل تصحب معه عدداً غير قليل من كبار المهندسين والعملة لتعبيد الطرق ونسف الجبال وحفر الآبار . . . وهذا ما صنعه البيزنطيون في حروبهم مع سيف الدولة . بهذا الجيش اللجب الكامل العدة والعدد انقضّ نيسفور فوكاس على « عين زربة »^(١) هذه البلدة الواقعة في سفح جبل ، فحاصرها وأحاط جنوده بالجبل من جميع أطرافه وما زالوا يقاتلون أهالى هذه البلدة الصغيرة الآمنة التي قاتلتهم وصدت عن حماها ما وسعها القتال حتى وهن عزمها وعجزت عن الدفاع . ورأى السلطان أن من الحكمة — وجيش سيف الدولة بعيد عنهم وليس لديهم من جنده إلا فئة من حرس الحدود — أن يستسلموا حقناً للدماء وضناً بالمدينة من أن تحرق أو تدمر . ويصف ابن مسكويه صاحب تجارب الأمم هذه الواقعة بقوله : « وفيها — أى في هذه السنة — ورد الروم « عين زربة » في مائة وستين ألفاً وهى في سفح جبل ، والجبل مطل عليها ، فلما جاءه الدمستق في هذا الجمع العظيم أنفذ قطعة من جيشه إلى الجبل ونزل هو على بابها فملك جيشه الجبل ، فلما رأى أهل عين زربة أن الجبل قد ملك عليهم وأن جيشاً آخر ورد

(١) والذي نرجحه أن « عين زربة » كانت من مدن الثغور الحصينة ، يدلنا على ذلك أن نيسفور لم يستطع أن يدخلها بسهولة رغم كثافة جيشه ، وأن بعض جنوده قد دخلوها بالحيلة ولولم يستسلم له الأهالى لاضطر إلى حرقها أو تهديمها . وفي معجم البلدان أن الروم هدموا هذه البلدة مرتين : مرة في عهد الرشيد ومرة في عهد سيف الدولة وأن سيف الدولة أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم حتى أعاد عمارتها ، وهذا يؤكد الرأي الذي ذهبنا إليه . ولولا ذلك لما اهتم بعمارتها وتحصينها هذا الاهتمام .

إلى باب المدينة وأن مع الدمستق دبابات كثيرة ، وأنه قد أخذ في نقب السور طلبوا منه الأمان فأمنهم وفتحوا له باب المدينة فدخلها فوجد الذين في الجبل قد نزلوا إلى المدينة فندم على إعطائهم الأمان ؛ فنادى في البلد من أول الليل بأن يخرج جميع أهله إلى المسجد الجامع ، وأن من تأخر في منزله قتل ، فخرج من أمكنة الخروج فلما أصبح أنفذ رجاله في المدينة وكانوا ستين ألف رجل ، وكل من وجدوه في منزله قتلوه . فقتلوا عالماً من الرجال والنساء والصبيان والأطفال وأمر بجمع ما في البلد من السلاح . فجمع منه أمر عظيم وكان في جملة أربعون ألف رمح ، وقطع ما في البلد من النخل فقطع نحو خمسين ألف نخلة ، ونادى فيمن حصل في المسجد الجامع من الناس بأن يخرجوا عن البلد إلى حيث شاءوا ، وأن من أمسى ولم يخرج قتل ، فخرج الناس مبادرين وتزاحموا على الأبواب فمات بالضغط جماعة من الرجال والنساء والصبيان ، ومروا على وجوههم حفاة عراة لا يدرون أين يتوجهون فماتوا في الطرقات ومن وجد في المدينة آخر النهار قتل وأخذ ما خلفه الناس من أمتعتهم وأموالهم . وهدم السوران اللذان على المدينة وهدمت المنازل ، وبقي الدمستق مقيماً في بلدان الإسلام واحداً وعشرين يوماً ، وفتح حول "عين زربة" أربعة وخمسين حصناً منها بالسيف ومنها بالأمان . وحسب القارئ أن يعلم أن بين هذه الحصون التي فتحت بالأمان حصن أمر أهله « بالخروج منه فخرجوا فتعرض بعض الأرمن للنساء اللواتي خرجن منه فلحق رجالهن غيرة عليهن فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق منهم وأمر بقتل الجميع وكانوا أربعمائة رجل ، وقتل النساء والصبيان ولم يترك إلا جارية حدثت أو من يصلح أن يسرق » ، وإذا كانت الحصون التي افتتحت بالأمان قد تعرضت لهذه الفظائع والأهوال فما هو حال التي فتحت بالسيف وتعرضت للتهديم والتدمير ؟

لقد استطاع البيزنطيون في هذه المعركة الثانية أن يثأروا لضحاياهم بعد هذه الحملة الكبيرة التي جهزوها لقتال الأمير الحمداني الذي أقلقهم في عقر دارهم مدة عشر سنوات كاملة . ولكنهم لم يستطيعوا أن يثأروا منه بل من هذه البلدة الآمنة القوية برجالها والغنية بخيراتها فكانت النساء والأطفال وأشجار النخيل

طعمة لشهوة الدم والثأر التي استيقظت في نفوسهم قوية جامحة بعد أن نالهم من غارات سيف الدولة ما نالهم ، ولا شك أن خبر هذه المعركة وما انطوت عليه من بطش وفتك قد نقل إلى مسامع الأمير الحمداني ، وأن هذه المآسي الدامية قد حزّت في نفسه وآلمته ألماً شديداً أو قل أثارت حميته ومروءته وشجاعته حتى أصبح لا يستطيع المقام في عاصمة ملكه دون أن يسرع إلى ساحة القتال ليلقي هذا الخصم القوي بجيشه العظيم ، ولكن هل كان سيف الدولة قد أخذ للأمر عدته؟ وهل استطاع أن يلم وحدات جيشه ؟ الذي نفهمه من سير الحوادث أن سيف الدولة قد لقي عناء كبيراً في جمع الجند، وأنه لم يستطع أن يفرض نفسه عليهم كما كان يفرضها في السابق . لقد جمع ما استطاع جمعه من وحدات جيشه بكثير من الجهد وأخذ يغري المتطوعين بالهبات والعطايا « ونادى بالرعية : من لحق بالأمير فله دينار » فهل هذا المبلغ عن يوم أو عن أسبوع أو عن شهر ! وهل عجز عن إثارة الناس في رد عادية الأجنيّ فلوّح لهم بالمال أو أن هذا النداء هو لتلك الخثالة المرتزقة من الجنود الذين لا تخلو منهم أمة فأراد أن يستثير حماسهم بالمال بعد أن خمد من نفوسهم « حسّ الدفاع عن الوطن » ؟

على أن الأمر الذي لا ريب فيه أن انكسار سيف الدولة في مضايق « خرشنة » ونجاته بأعجوبة بعد أن أضاع جيشه كله ، ودخول البيزنطيين « عين زربة » واقتحامهم الثغور بجيش عظيم - لا ريب أن هذه الأحداث مجتمعة قد خلقت في نفوس الحمدانيين بعض الوهن والذعر . والحرب بركان من السعير ، لا تحمل في أطوائها إلا الدم والنار وهذه النفوس التي تذهب طعمة لها فهل يجازفون - وهم قلة - بقتال جديد ويزجّون أنفسهم في أتون محرقة كما يريد الأمير ! ! أخذت الدعاوات تعمل عملها . وكادت الآراء تتشطر شطرين ولكن الوطن أصبح مهدداً بغارة العدو . والإنسان مفطور على حب وطنه ، ولا يستطيع أن يكون « إنساناً التزعة » حين تدهم أرض الوطن يد العدو . إذن ، فلا مجال للفلسفات وبسط الآراء . وأخذ الأمير ينفخ في النفوس : ما قيمة حياة سلبت كرامتها ؟ وهل لأمة كرامة إذا سلب الوطن حرّيته ؟ وهل تصان الأوطان بغير المهج وإراقة الدم ؟ . .

دخلت « عين زربة » في حوزة نيسفور ، وأعلن — وقد أدركه الصوم — أنه سيعود إلى القتال بعد الفطر . وتفهم من هذه الرواية أن الحرب كانت في الربيع ، « وزعم أنه يخلف جيشه في ” قيسارية “ ولكن لم تكن هذه المزاعم إلا خدعة إذ ليس من المعقول أن يركن إلى الهدنة ليعطى خصمه الفرصة بعد أن جهز هذه الحملة الكبرى التي أعدها لفتح سورية والقضاء على سيف الدولة نهائياً . ويصف بول بوران هذه الفترة ، ويسميا فترة استراحة بقوله : « بعد أن رسم نيسفور فوكاس منذ عام ٩٦٢ م خططه الحربية بأكملها ، انقضت على كليكية كالصاعقة ، وفي برهة ٢٢ يوماً استولى على ٤٥ بلداً وحصناً — والرواية العربية تذكر ٥٤ حصناً ولا نعلم إذا كان هذا من تحريف الأرقام لأن العدد متقارب إلى حد ما — فوق العدو في ارتباك عظيم ، أما نيسفور فإنه استفاد من حيرة العدو وذهب ليستريح في ” قيسارية “ . وفي خريف السنة نفسها اجتاز جبل طوروس ثانية ، ومعه جيش مؤلف من مائتي ألف محارب ، واتجهت نيته نحو حلب . وبعد أن استولى على كليكية اجتاز الأمانوس في أواخر تشرين الثاني ، ولم يستطع سيف الدولة أن يدافع عن مضائق الأمانوس لأنه أخذ على حين غرة » .

تطايرت الأنباء إلى سمع سيف الدولة أن البيزنطيين أصبحوا على أبواب عاصمته ، وطبعى أن تثير هذه الأخبار في نفسه شتى الهواجس وأن يقلق ويفكر في دفع هذا الخطر المداهم . لقد انتفض كالسهم وانطلق على جواده يقرع في سمع الميامين من جنوده البواسل أن هبوا لدفع هذا الخطر فإن أرض الوطن مهددة بنيران العدو . وترك العاصمة تتأهب لدفع الخطر وأسرع إلى لقاء العدو قبل أن ينقض على المدينة . وكان البيزنطيون قد وصلوا إلى إعزاز ، والتقى بهم وجهاً لوجه . ولكن لم يبدأ القتال حتى شعر أنه يحاول المستحيل . أليست مجازفة كبرى أن يقاتل ثمانين ألف بيزنطي بأربعة آلاف عربي ؟ ، ولكن « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » بهذا الإيمان القوى تقدم إلى صد البيزنطيين ، فلم يهن ولم يضعف ، وقاتل بشجاعة نادرة وما زال حتى أسفرت المعركة عن قتل أكثر من معه فارتد إلى حلب ولم يدخل العاصمة بل خيم بظاهاها ، وإذا هو يفكر

بالخروج من هذا المأزق علم أن البيزنطيين توجهوا نحو العمق فجهز فتاه « نجا » في ثلاثة آلاف مقاتل وأرسله للقتال وما لبث أن لحق به . نعم ، لم يصبر « فسار » بعد الظهر بنفسه ولم يكذ يقطع فرسخاً عن حلب حتى أخبره بعض العرب أن الروم لم يبرحوا " جبرين " وأنهم على أن يصبحوا حلب . ، وعاد إلى العاصمة « وبذل خزائن السلاح للرعية » ودعاهم جميعهم إلى الجهاد في سبيل الله والوطن وإنقاذ العاصمة من هذا الخطر . ولكن نيسفور كان قد انقضّ عليها بثمانين ألف جندي بين فارس وراجل فنشب القتال واستبسل جنود سيف الدولة وكانت المعركة من المعارك الكبرى ، تطايرت فيها الرؤوس وانتثرت الأشلاء وخضبت الأرض بدم الشهداء . واستطاع سيف الدولة بفروسيته الحارقة أن ينقذ نفسه وأن يتجه نحو بالس - الرقة ^(١) فلحقه ابن الشمشقيق في عشرين ألف فارس ولكن دون أن يستطيع القبض عليه ، وهذا ما حزّ في نفس عدوه وأدخل الحسرة في قلب نيسفور . وإلى هذا أشار شلمبرجر بقوله ^(٢) :

« كان سيف الدولة عظيماً في انتصاره . كما كان عظيماً في انكساره . وكانت إمبراطورية البيزنطيين هذه التي ملكت العالم القديم تخافه متصراً وتجعله منكسراً ، ففي سنة ٩٦٢ م قامت على أبواب حلب معركة بين الجيش الذي يقوده قيصر الرومان والجيش الذي يقوده سيف الدولة الأمير . أما كيف كان القتال وهذه الملحمة فلا يستطيع وصفه غير الذي شهد المعركة وأطل على ساحتها وميدانها ، ولكن المؤرخ البيزنطي يعطينا الصورة الصادقة لبسالة الأمير وعنفوانه وكبريائه ، ونصف لنا هذه الصورة كيف كان الأمير يثير حماسة الإمبراطور ويلهب شعوره حتى اضطر قيصر البيزنطيين إلى مصارحة قواده : لا أريده قتيلاً بل أريده أسيراً فأياكم كانت له القدرة على أسره منحتة مقاطعة كاملة » .

(١) بين حلب والرقة تقع على ضفة الفرات الغربية .

(٢) هذه النبذة من بحث للمستشرق شلمبرجر عنوانه « حلب تنافس بيزنطية » .

دخول نيسفور إلى حلب - إغارته على سيف الدولة وتهديمه قصر الحلبة -
دفاع الحليين عن أرض الوطن - هدم القصور وحرق الجوامع ونهب الكتب

نخلت المدينة من أميرها الشجاع وفقدت بتروحه عنها بعض آمالها الكبار
فغمرها يأس قاتم وذهول عميق وحيرة ملحة فما عسى أن تعمل؟ لقد انتثر فرسانها
وتفرق جيشها ولم يبق فيها غير الشيوخ والنساء والأطفال وبعض الحرس، فهل
تستسلم لهذه القوى الباطشة تفعل فيها ما يشاؤه القدر . . .

اقرب البيزنطيون من البلدة وحوّموها حولها فاعتصم الأهالي في الداخل وأغلقوا
الأبواب واستعدوا للقتال بهذه الروح القوية التي أيقظها الأمير الحمداني في
نفوسهم والتي انقلبت في هذه الظروف العصيبة وهجاً ودماء . ولكن أتستطيع أن
تقاوم هذا الجيش اللجب وقد أربى عدده على الثمانين ألف فارس عدا المشاة
وشتى عدد القتال؟ في الواقع ، أنها لن تستطيع المقاومة ، ولكن عزّ على كرامة بني
حمدان أن يطأ الأجنبي أرض الوطن فتقدموا للذود عن حماه وأسفرت المعركة
عن قتل ثلاثمائة ونيّف بينهم غير واحد من كبار الحمدانيين^(١) وظل البيزنطيون
حول المدينة لم يستطيعوا دخولها . وإذ كان قصر الأمير خارج البلد اتجهوا نحوه ،
وما دخله نيسفور حتى بهره ما رأى فيه من زخرف وصناعة ، ومن جمال وروعة ،
ومن ثروات ونفائس وعتاد ، ولكن هذا البهر والإعجاب لم يبقيا على القصر كأثر
نفيس من آثار الحمدانيين بل أعمل فيه الهدم والتخريب فتركه بعد أن سلب
كل ما قدر على نقله - طلالاً بالياً وتتفق الروايات على أن الأشياء التي نقلت من
القصر تفوق الحصر . ولكن المؤرخين يذكرون بين هذه الأشياء « أربعة ملايين

(١) قتل في هذه المعركة كل من أبي طالب بن حمدان وابنه وداود بن علي وأسروا كاتب
سيف الدولة الفياضي وأبا نصر بن حسين بن حمدان .

درهم فضة ، آلافاً من البغال ، حصناً من نجد ، أفراساً عربية ، ستة آلاف درع ، ٣٧٠ حملاً من الأقمشة الصوفية البديعة ، ٣٠٠ من الأقمشة الحريرية الناعمة ، ١٠٠ حمل من الأسلحة ، أحزمة مذهبة ، عدا السيوف والدروع والأواني الذهبية والفضية وما يقرب من ألني جمل^(١)؛ ولم يكتف بكل هذه النفائس والثروات الضخمة بل أشعل النار في القصر إمعاناً في الحقد والضعف والانتقام . وبذلك شنى القائد البيزنطي بعض غله من سيف الدولة ولكنه لم يحقق رغبة الإمبراطور بالقبض عليه حياً ولا رغبته بأن يقضى عليه ميتاً ! وانكفاً إلى المدينة يحاول دخولها على رأس جيشه ولكنه لم يستطع فأرسل أحد رسله ينبئهم بما آل إليه القصر وأن يتدبوا اثنين لمقابلته وللمفاوضة معه لدخوله المدينة سلباً . وقد لجأ إلى هذا الأسلوب لما عجز عن دخولها حرباً . فخرج إليه شيخان وتبلغا الرسالة واستمهلا يوماً لمشاورة الأهالي « فلما كان الغد أتى الحاجب - رسول البيزنطيين - فقال ليخرج إلينا عشرة منكم لنعرف ما عمل عليه أهل البلد . وكان رأى أهل البلد على الخروج بالأمان ، فخرج العشرة وطلبوا الأمان وتدخل الروم^(٢) ، ولكن البيزنطيين خشوا أن يكون وراء هذا الاستسلام مكيدة حربية . » قال الدمستق : صبح ما بلغني عنكم ؟

قالوا : ما هو ؟

قال : بلغني أنكم أقمت مقاتلتكم في الأزقة مخفين ، فإذا خرج الحرم

(١) عن بوران ص : ٤٥ - ٤٦ ، وتعدد الرواية العربية هذه الأشياء كما يلي : « وظفر الدمستق - نيسفور - بداره وهي خارج مدينة حلب فوجد لسيف الدولة من الورق ثلثمائة وتسعين بكرة فأخذها ووجد له ألفاً وأربعمائة بغل فتسلها ووجد له من خزائن السلاح ما لا يحصى كثرة فقبض جميعها وأحرق الدار والربض » ابن مكسويه - وفي رواية ابن ظافر : ملك الروم دار سيف الدولة بظاهر حلب وذرعها ستة آلاف ذراع وأخذ له منها ما لا يحصى من الأموال : شرح ذلك ثلثمائة بكرة ، مائة عين ، ومائتي ورق وثلثمائة جمل من البز الفاخرة : ومن الديباج الفاخر بما كان ادخره من عهد « رومانوس » ، خمسون حملاً من أواني الذهب والفضة ما لا يحصى ؛ ومن الخيل ثمانمائة رأس ومن السلاح والمناطق والتجايف والسيوف مائة حمل ، ومن الجمال نحو ألني جمل ، ونقل سقوف الدار معه لأنها كانت مذهبة .

(٢) تاريخ علي بن محمد الشمشاطي « واقعة حلب » .

والصبيان ، ودخل أصحابي للنهب اغتالوهم .

قالوا : ليس في البلد من يقاتل .

قال : فاحلفوا . . .

. . . فحلفوا ^(١)

ورغم هذه الأيمان فقد خشى البيزنطيون دخول المدينة . وتحقق لهم أن الاستسلام كان رأى فئة قليلة دون الأكثرية التي كانت ترى الاستمرار في الدفاع والمقاومة . وصمم نيسفور على دخول المدينة عنوة ، « وكان كل شيء قد أعد للهجوم ، فقد استطاعت الجيوش البيزنطية أن تفتح بعض المنافذ في أسوار المدينة من الجهة الجنوبية والشرقية والغربية ولكنها اضطرت أن ترتد إلى الوراء أمام دفاع الأعداء وفي اليوم الثاني - ٢٣ كانون الأول - كانت جميع المنافذ قد سدت حتى فكر نيسفور بالانسحاب » ^(٢) ، « وقاتل أهل حلب من وراء السور فقتل من الروم جماعة بالحجارة ، وسقطت ثلثة من السور على قوم من أهل حلب فقتلهم ، وطمع الروم في تلك الثلثة فأكبوا عليها ، ودفعهم أهل البلد ، فلما جنهم الليل اجتمع المسلمون عليها فبنوها وأصبحوا وقد فرغوا وعلوا عليها وكبروا ، وبعد الروم قليلا إلى جبل هناك يعرف بجبل جوشن » ^(٣) .

* * *

تراجع البيزنطيون إزاء صمود الحليين ودفاعهم القوي ، وشعر الشعب بشيء من العزة والكرامة القومية . واستطاع بتضامنه أن يدفع عنه أكبر قوة حربية في ذلكم العصر . ولكن المدينة كانت في عزلة عن حوّلها فضاقت بهذا الحصار وهددتها المجاعة وانتهى الأمر أن شبت شبه ثورة فهجم الرعاع على منازل الأغنياء يحاولون النهب والسلب ، واضطر الحرس أن يتركوا مراكز الدفاع ليطفثوا هذه الثورة الداخلية ، وفي رواية أن الحرس اشتركوا في النهب « وذهب رجال

(١) تاريخ بن محمد الشمشاطي « واقعة حلب » .

(٢) بوران .

(٣) ابن مسكويه .

الشرطة بحلب إلى منازل الناس وخانات التجار ينهبونها وقيل للناس الحقوا بمنازلكم فإنها قد نهبت ، فتنزلوا عن السور وأخلوه ومضوا إلى منازلهم مبادرين ليدفعوا عنها فلما رأى الروم السور خالياً ^(١) والبلد في ثورة دامية ، والرعاك يقتتلون في سبيل الأهواء الدنية دون هذه الغايات المثلى اقتحم نيسفور وجنوده الأبواب ودخلوا المدينة ونفوسهم مليئة بالقسوة والانتقام . وتتفق الروايات على أن البيزنطيين أعملوا القتل والنهب والتدمير ستة أيام كاملة من السبت إلى يوم الأحد لثلاث بقين من ذي القعدة ٣٥١ هـ

بعد كل هذه المقاومة خضعت المدينة لبطشهم وفي نفسها ثورة من التمرد . واعتصم أكثر العلويين والهاشميين والوزراء والكتاب وجمهور من الأهالي في القلعة وأخذ البيزنطيون ينهبون ما وسعهم النهب ، فروّعوا النساء وأرعبوا الأطفال وأطلقوا الجنود تعيث وتفسد وترتكب أفظع الموبقات « فوضعوا السيف في الناس وقتلوا كل من لقيهم ولم يرفعوا السيف إلا بعد أن كلّوا وضجروا ، وكان في البلد من أسارى الروم ألف ومائتا رجل فتخلصوا وحملوا السلاح على المسلمين ، وكان سيف الدولة قد أعد من الروم سبعمائة رجل ليفادي بهم فأخذهم الدمستق وسبي من البلد ومن المسلمين والمسلمات بضعة عشر ألف صبي وصبية وأخذ من خزائن سيف الدولة وأمتعة التجار ما لا يحصى ويوصف كثرة . فلما لم يبق معه شيء يحمل عليه أحرق الباقي بالنار . وأخرب المساجد » ^(٢) .

* * *

ظلت العاصمة تسعة أيام كاملة بيد نيسفور ، وخلا له الجحش بتروح سيف الدولة عنها فصالح وجال ، ولم يطفى شهوة الانتقام من نفسه ما أخذه من مال وأثاث وما حملة من ذهب وفضة ومن دمقس وحرير بل أطفأ بعض هذه الشهوة الوضيعة بهدم القصور وحرق الجوامع والكتب وقتل النفوس وترويع النساء وسبي الأطفال . وظلت القلعة منيعة . ورغم كل ما عمل لاقتحامها ظلت

(١) ابن مسكويه .

(٢) ابن مسكويه .

بيد الحمدانيين ولم تمتد إليها يده . فساء ذلك ابن أخت نيسفور وهو شاب متحمس فخاطب خاله بقوله :

« هذا بلد قد حصل في أيدينا ، وليس من يستطيع أن يدفعنا عنه فبأى سبب ننصرف عنه قبل فتح القلعة ؟ »^(١) .

قال له الدمستق^(٢) : « قد وصلنا إلى ما لم نكن نقدره ولا يقدره الملك وقتلنا وسبينا وأسروا وأحرقنا وهدمنا وخلصنا أسراونا وأخذنا من أردنا أن نفاذى به فدية وغنمنا غنيمة ما سمع بمثله ، والرأى أن ننصرف عنهم فإن طلب النهايات والغايات ردىء »^(٣) .

ولكن مطامح الشاب كانت أوسع من أن تحد فأصر على مهاجمة القلعة وقال : « لا أنصرف أو أفتح القلعة . فلما ألع قال له : اعمل ما تشاء هذه هي القلعة . اذهب وخذها . ولم يتردد الشاب لحظة بل اجتاز الطريق المؤدى إلى باب القلعة على رأس فرقة مهاجمة . ولم يكد يحاول الدخول حتى رماه أحدهم بحجر كبير كاد ينقض فوقه فأدار الشاب ظهره ليتقيه ، عندئذ فتح أحد الجنود الحلبيين الباب ، وبطعنة رمح بين إبطيه أرداه قتيلاً^(٤) » فحزن نيسفور وانتقم لمصرع هذا القائد الشاب بأن قتل أكثر من ألف ومائتى أسير على مرأى من الحلبيين إمعاناً بالحقد والانتقام .

وداخل نيسفور بعد هذه الأحداث فرع كبير ، ويش من افتتاح القلعة وخشى من مفاجآت غير منتظرة فقرر الانسحاب مكثفياً بهذا النصر الذى اقتصر على الترويع والقتل والنهب والتدمير . وإذا أخذ يتراجع ألقى هذه الكلمة فى أذن السكان :

(١) بول بوران .

(٢) أى نيسفور .

(٣) ابن مسكويه .

(٤) يرى المستشرق الشيخ ماريوس كازار أن هذه الرواية فيما يتعلق بقتل ابن أخت نيسفور غير حقيقية . ونحن نجاريه برأيه لأن ابن الشمشقيق أى زه مسكس قد عاد إلى القسطنطينية وجرى بينه وبين الملكة التى تزوجها نيسفور علاقات غرام وتآمر معها على قتله . وعليه فيكون الذى قتل هو أحد قواد الفرق لا ابن أخته .

«إني ذاهب . . ولكن لأعود قريباً . فازرعوا أراضيكم لأنها دخلت في حوزتي . وسأرجع في العام المقبل لأحصد ما زرعتموه . وآمل أن لا تخيبوا أملى^(١)» .

وهكذا انسحبت الجيوش البيزنطية وتراجع نيسفور دون أن يمضي في تحقيق أغراض هذه الحملة الكبرى التي أعدها قيصر الروم ليضع حداً لغزوات العرب المتوالية التي كان يثيرها سيف الدولة وليعيد هذه البلاد إلى النفوذ البيزنطي الذي تقلص عنها ثلاثة قرون كاملة . ويرجع السر في تراجعهم إلى عاملين : أولاً إلى إنشغال نيسفور بالعرض واهتمامه بالأسلاب ، وثانياً — وهو الأهم — إلى خوفه من سيف الدولة أن يهاجمه على رأس حملة كبيرة في قلب عاصمته .

وانطلق خبر انسحاب البيزنطيين في طول البلاد وعرضها واتصل بسيف الدولة — وكان في قنسرين — فأسرع إلى عاصمة ملكه دافع العين ، حزين النفس لهذا المصير الذي صارت إليه حلب ، لقد اعتاد أن يدخل العاصمة ونفسه مليئة بنشوة النصر ، وأن يستقبله شعبه بالأهازيج والأغاريد ، وأن ينشده الشعراء — وهو على صهوة جواده — أجمل آيات المديح فإذا يسمع الآن ؟ إنه يسمع عويلًا وبكاء ويلمس وحشة وخراباً . نعم ، إنه يسمع بكاء المدينة الحزين وقد سادها صمت عميق وذهول مخيف . فإذا يعمل ؟ أيستسلم لليأس والبكاء شأن المستضعفين ! لا . إن اليأس لا يجسر أن ينفذ إلى قلوب العظماء ، فليفكر بمجابهة الأخطار المفاجئة ونفسه أقوى عزيمة وأمضى سلاحاً في ميدان الكفاح والنضال .

آخر أيام سيف الدولة

انسحب نيسفور فوكاس وجيشه من حلب في ٣١ كانون الأول سنة ٩٦٢م وكان لا بد له وهو في طريقه إلى بيزنطية من أن يقضى على هذه البلاد التي اتخذها المسلمون معقل قوية ومراكز حصينة لغزو بلاد الروم . وكانت « المصيصة » و « طرسوس » من أقوى هذه المعاقل ، عرف أهلها بالصبر والجهاد وبقوة العزيمة والجلاد . اعتمدتهم سيف الدولة في كثير من غزواته وحروبه فكانوا سنده المكين ودرعه الحصين .

اتجه نيسفور إلى « المصيصة »^(١) وحاصرها حصاراً قوياً ولكنه لم يستطع أن يدخلها لأن أهلها دافعوا عنها دفاع الكماة الأقوياء ، وقد بلغ سيف الدولة هذا الموقف الذي وقفته مقاطعات الحدود فأكبر هذه البطولة واستفزته هذه الأنباء ولكن أين رجاله وأين جيشه ؟ أما الجيش فقد فنى في الدفاع عن عاصمة ملكه . وأما رجاله فهم في هذه القلاع البيزنطية يقضون أمض ساعات الأسر . . . وأما هو فقد نزل به المرض وكاد يقعه . . . ولكن النفوس الكبيرة لا يقعدها عن مطامحها وتحقيق رسالتها شيء . . . ها هو ذا ينفر إلى طرسوس مع غلامه « نجا » على رأس فلول من الكتائب الحمدانية . . . تدفعهم الحماسة وهذا الانكسار الأليم الذي نزل بهم في قلب الوطن . لقد وصلوا إلى الحدود بعد إعياء شديد . وما كادت تلوح لهم طرسوس حتى انضموا للطرسوسيين . . . كانت المعركة في إبان احتدامها ، فرأى سيف الدولة وهو الخبير في فنون الحرب وفي معرفة هذه الدروب أن يشطر الجيش إلى معسكرين ، وهكذا كان : اتجه الطرسوسيون إلى جهة ، واتجه « نجا » مع جنوده إلى الجهة ثانية . . . وصمد سيف الدولة يصون الحدود . وما زالوا

(١) مدينة على شاطئ جيجدان قريبة من طرسوس ذات سور وخمسة أبواب وهي من مشهور

ثغور الإسلام - معجم البلدان ج ٨ -

يكرّون وراء البيزنطيين حتى أجلوهم عن بلاد الإسلام . . وفي رواية تناقلها مؤرخو العرب أنهم وصلوا حتى مدينة قونية . . ولم يستطع سيف الدولة أن يبرح طرسوس خلال فترة الجهاد - لشلل نزل به - فرجع إلى حلب منهوك القوى حتى أشاع خصومه والطامعون بمركزه أنه قضى نحبه ، وكان هبة الله حاكم حرّان وابن أخيه ناصر الدولة - هو الذي أطلق هذه الشائعة بغية أن يستقل بتلك المقاطعة التي ضجت من إرهابه فثارت عليه ، وظن بعض المؤرخين أن الثورة كانت ضد سيف الدولة ولكن الواقع أن الثورة كانت على هؤلاء العمال الذين أزهقوا الرعية بالضرائب الباهظة في سبيل أغراضهم ومطامعهم دون أن يرتفعوا بتفكيرهم إلى تحقيق هذه الرسالة القومية التي كانت أولى أغراض الأمير الحمداني . ورأى أن يرسل غلامه « نجا » إلى « حرّان » لإخماد هذه الثورة والقضاء على تمرد ابن أخيه هبة الله . ولكن « نجا » بدلاً من أن ينفذ أوامر سيده فرض على أهالي حرّان الكثير من الضرائب والإتاوات وأنزل بهم الظلم والجور الأليم . . « وصادروهم على ألف ألف درهم ووكل بهم حتى أدّوها في خمسة أيام بعد الضرب الوجيع بحضرة عيالاتهم وأهليهم فأخرجوا أمتعتهم فباعوا كل ما يساوي ديناراً بدرهم لأن أهل البلد كلهم كانوا يبيعون ، ليس فيهم من يشتري لأنهم مصادرون فاشترى ذلك أصحاب نجا بما أرادوا وافتقر أهل البلدة » ^(١) .

لقد أرسله سيف الدولة ليقمع ظلماً فاقترف ما هو أبشع من الظلم ، يقول ابن الأثير : ^(٢) « ولما اجتمعت عند " نجا " هذه الأموال قوى بها وبطر ، ولم يشكر ولي نعمته بل كفره وسار إلى " ميافارقين " وقصد بلاد أرمينية وكان قد استولى على كثير منها رجل من العرب يعرف بأبي الورد فقاتله ، فقتل أبو الورد وأخذ نجا قلاع وبلاد (خلاط ، وملاذكرد ، وموش) وحصل له من أموال أبي الورد شيء كثير فأظهر العصيان على سيف الدولة » ، وقد ضاق الأمير الحمداني بثورة غلامه عليه بعد ثورة ابن أخيه وأن يصل بهما الغرور إلى هذا

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٨٠ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٨٠ .

الحد . نعم ، شقّ على سيف الدولة الأمير الشاعر ، القوى الإحساس
وأخذ الدمع يطفر من عينيه ، وكيف لا يبكي وهو يشهد هذه المآسى المفجعة
تنصب عليه : خصم عنيد يقهره في عاصمة ملكه ، ورجاله ينقضون عليه ،
ومرض هزال يهدده فلا يقوى على مغالته ومع ذلك ورغم كل هذه الفواجع
والأحداث لم يستطع أن يصبر على هذه الإهانة يوجهها إليه غلامه « نجا » فلحق
به وما كاد يصل إلى ميفارقين حتى فر من وجهه « فلك سيف الدولة بلاده
وقلاعه التي أخذها من أبي الورد واستأمن إليه جماعة من أصحاب نجا فقتلهم »
وكانه أراد أن يجمع هذه الثورة بمثل هذه الشدة والعنف ، وهذا الذي حفز أخا
نجا أن يستأمن إليه فأمنه وأكرمه وأحسن إليه . ثم رأى سيف الدولة أن يعتمد إلى
الملاينة بعد هذه القسوة وأن يسلك الكياسة في إخضاع نجا . . فأخذ يرأسله ،
يرغبه تارة ويرهبه أخرى : وما زال به حتى رجع تائباً فأكرمه سيف الدولة وأعادته
إلى مركزه السابق . . ولكن لم يلبث « نجا » في خدمة سيده حتى قتل ! ... ترى
هل أغرى سيف الدولة غلمانه بقتله فقتلوه ؟ . . الذي نميل إليه أن سيف الدولة
لا يعتمد إلى هذا العدوان بعد أن طمأنه على حياته . ولكن قد تكون امرأة
سيف الدولة هي التي حرّضت الغلمان على قتله وفي نفسها من الموجدة عليه
ما لا سبيل إلى نسيان إغارته على ميفارقين بعد أن عاث في حرّان وديار مصر . .
وكانت زوجة الأمير في ميفارقين فأمرت بإغلاق أبواب المدينة في وجهه وصدته
عن غشيانها بكل ما كان لديها من قوة وحذق وتدبير . . يقول يحيى بن سعيد :
وسار سيف الدولة إلى ميفارقين وأرسل إلى نجا يأمره بالمسير إليه ، وآمنه
على نفسه وماله . وسار نجا إليه فصطح عنه وأقام عنده وشرب بين يديه فلما
سكر شتم الغلمان وغلظ عليهم في القول فاغتاظوا عليه ، وكانت حرمة سيف الدولة
أشدّ غيظاً لحصاره لها ، وشتمه إياها فصاح سيف الدولة على نجا وأمر أن يقام
من بين يديه فوثب الغلمان عليه بالسيوف فقتلوه » (١) .

(١) وفي رواية أن نجا أغلظ الكلام لسيف الدولة فهاج ذلك غلاماً له اسمه « نجاح » فضربه
بسيف على رأسه فقتله ، وقد هال الأمير سيف الدولة الذي وقع مغشياً عليه فأمرت زوجة سيف الدولة
أن يجر برجل نجا ففعل ذلك إلى أن أخرج من قصرها وطرح في مجرى ماء ينصب عليه الماء والأقذار .
وبقي فيه إلى الغد حتى انصهر ثم أخرج وكفن ودفن وكان ذلك سنة ٣٥٤ هـ .

لم تكن هذه الأحداث الداخلية لتصرف سيف الدولة عن خصومه الطبيعيين . . ولكن أننى له أن يثار لكرامة هذا الوطن وقد خلا العرين من الأسود ، ومطامع البيزنطيين لم تخمد بل ازداد اضطرامها ولا سيما بعد أن أجلاهم الطرسوسيون عن ديار الإسلام ولحقوا بهم حتى قونية . . . وها هو ذا نيسفور يعود إلى الثغور ليوالى هجماته فينقض على « المصيصة » بجيش ضخم يحاول فتحها فلا يستطيع رغم « نعبه نيفاً وستين نقباً في سورها » . وجاء سيف الدولة في هذه الفترة خمسة آلاف متطوع من الحراسانيين — جاءوا في الفترة التي كانت فيها الحرب مشتعلة في الحدود . وطبعي أن يوجههم سيف الدولة إلى « المصيصة » ليتعاونوا مع أهلها على دفع هذا الطغيان ، وما كاد يصل سيف الدولة مع هذه النجدة حتى كان القتال قد وقف فانسحب البيزنطيون لقلعة المؤونة بعد أن لجأوا إلى أخس الصفات البشرية التي يعتمد عليها المحاربون حين يخسرون المعركة : أحرقوا القرى والرساتق الواقعة على الثغور وكان هذا أنفذ سلاح بيد نيسفور . ولا نعلم كيف أضاع سيف الدولة هذه الفرصة ولم ينقض عليهم مع الجنود الحراسانيين ؟ أتري أن انسحابهم كان قبل وصوله وأن عددهم لم يكن ليشجعه على ملاقاته نيسفور بجيشه العظيم الذي يعد مائتي ألف مقاتل ؟! ورأى الحراسانيون — بعد وقف القتال — أن مهمتهم قد انتهت ولا سيما و « المصيصة » ترزح تحت كللك من الجوع ، وكانت الأوبئة والأمراض تحصد النفوس حصداً فاستأذنوا سيف الدولة بالعودة إلى بلادهم ، فأذن لهم وودعهم وهو في جيش من الحيرة والاضطراب والذهول .

* * *

مرت فترةٌ سكون هي أشبه بهدنة غير رسمية ، ورأى نيسفور أن لا يزج بجيشه في أتون من الكوارث فعمد إلى سياسة اللين والود واتخذ ضواحي « المصيصة » مركزاً له « وهادى سيف الدولة ببغال ودواب وثياب رومية وصياغات ذهب ، وقابله سيف الدولة بهدايا فصار سبباً لمقام الدمستق في بلدان الإسلام ثلاثة أشهر لا ينازعه أحد ولا يمكنه فتح « المصيصة » وانصرف عنها لأن

البلد لم يحمله ووقع في أصحابه الوباء فاضطر إلى الانصراف^(١). والذي نميل إليه أن سيف الدولة اتخذ من هذه الهدايا وسيلة لتبادل الأسرى عليه يستطيع أن يلم فلول جيشه ويقف في وجه البيزنطيين قبل أن تتلاشى مملكته وينهار صرح آماله بعد هذا الجهاد الطويل. ويظهر أن نيسفور حسب لهذه النتائج حساباً فلم يغادر هذه المناطق وانتقل من « المصيصة » إلى قيسارية وظل سنة يتنسم أخبار الثغور الإسلامية حتى إذا تحقق له ضعفها وعدم قدرتها على الدفاع قرر أن يقوم بحماته الكبرى للقضاء على هذه الدولة العربية الفتية التي شغلت بيزنطية عشرين عاماً كاملاً. وكان أول عمل قام به أن انقضّ على « المصيصة » ففتحها عنوة بالسيف وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف ونقل كل من بها إلى بلاد الروم وكانوا نحواً من مائتي ألف إنسان^(٢)؛ وإذ قضى على « المصيصة » اتجه إلى طرسوس فحاصرها حصاراً شديداً، وبدى أن يذعن الطرسوسيون - وقد أصبحوا وحدهم في قلب المعركة - إلى حكم القدر ويستسلموا إلى طاغية الروم بعد هذا الجهاد الكبير وأن يضطر عامل سيف الدولة ابن الزيات ومولاه رشيق النسيمي إلى تسليم المدينة صلحاً فدخلها نيسفور بصلف بيزنطي، يملئ إرادته القاسية على هذه البلدة التي أتعبته كثيراً ووقف طويلاً دون تنفيذ برامجه . . .

وما شروطه هذه ؟ ... تتفق الرواية العربية بأنه اشترط :

- أولاً : أن يترح أهالي طرسوس عن البلد .
- ثانياً : أن لا يأخذوا معهم إلا ما يستطيعون حمله .
- ثالثاً : أن تؤول جميع الدور والضياح إلى البيزنطيين .
- رابعاً : أن يترك كل من أحب المقام في طرسوس دينه وأن يعتنق النصرانية .
- خامساً : أن يدفع كل من شاء المقام - وهو على دينه - جزية .

وفي معجم البلدان عن أحمد بن الطيب السرخسي أن خلقاً كثيرين

(١) ابن مسكويه .

(٢) ابن مسكويه ص ٢١٠، والذي نميل إليه أن الرواية العربية تبالغ حين تروى نقل مائتي ألف إنسان من المصيصة إلى بلاد الروم ولا تحدد الرواية الإفرنجية عدد الذين نقلوا في هذه المعركة .

قد تنصروا وأقام نفر يسير على الجزية وخرج أكثر الناس يقصدون بلاد الإسلام وملك نيسفور البلد « وأحرق المصاحف وخرّب المساجد وأخذ من خزائن السلاح ما لم يسمع بمثله مما كان قد جمع من أيام بني أمية إلى هذه الغاية » .

لقد نزع الطرسوسيون عن وطنهم بقلوب واجفة وعيون دامعة ونفوس جزعة وركبوا البحر وجاز البعض هذه الطرق الوعرة والجبال الشاهقة وما زالوا في سيرهم حتى هبطوا أنطاكية . وقد أثارت هجرة الطرسوسيين الخوف في قلوب أهالي أنطاكية فكان أول عمل قاموا به أن طردوا عامل سيف الدولة واتصلوا بنيسفور على أن يؤدوا إليه أربعمائة ألف درهم عدا ثلاثين درهماً كجزية عن كل شخص في السنة .

وقعت هذه الأحداث بين عامي ٣٥٣ و ٣٥٤ هـ بينما كان سيف الدولة في ميفارقين، وطبعي أن تثير في نفسه هذه الأنباء شتى الأحاسيس المحزنة . لقد عزّ عليه أن تزخر خزائنه بالمال وصفوة رجاله في الأسر . وما قيمة المال في نظر سيف الدولة إذا لم يستخدمه في مثل هذه الغايات النبيلة ؟ — وهو الذي كان ينثر الدنانير على شعرائه بالآلاف والآلاف — فطلب من نيسفور هدنة يتبادل خلالها الطرفان الأسرى فقبل نيسفور وأطلق سيف الدولة من عنده من البطارقة — أي القواد — كما أطلق نيسفور عيون رجال سيف الدولة وكان بينهم أبو فراس ومحمد بن ناصر الدولة وغيرهم من رجاله وغلماؤه . ثم ابتاع حرية ألفي أسير بمائة وستين ألف دينار أي دفع عن كل أسير ثمانين ديناراً ^(١) وإذ انتهى من الفداء عاد إلى عاصمة ملكه مع رجاله وجنوده . . ولكن الثورات الداخلية كانت قد اندلعت بشدة . فثار مروان القرمطي في السواحل . كما ثار الأنطاكيون بتحريض رشيق النسيمي الذي كان قد سلم طرسوس إلى البيزنطيين وانضم إليه جماعة من الديلم وساروا إلى حلب يريدون انتزاعها من قرعويه غلام سيف الدولة الذي دافع عنها دفاع الأبطال . ولكن سيف الدولة لم يقف مكتوف اليدين فانقضّ على هؤلاء الخونة وصان حلب وحواليها من عبثهم؛ وكأنما هذا التخاذل المريع في صفوف

(١) ولما نفذ ما معه من المال اشترى الباقين ورهن عليهم بدنته «درعه» والجوهر المدونة المثال .

العرب قد أطمع البيزنطيين في هذه البلاد ولا سيما بعد أن ملكوا الثغور فعاودوا الكرة وساقوا هذه الجيوش المرابطة على الحدود والمهياة لهذه الغزوة الكبرى ولدخول حلب مرة ثانية - هذه المدينة التي اعتبروها قنطرة البلاد الشامية ، واكن سيف الدولة صمد لهم ودافع عن لؤلؤته الغالية دفاع المستميتين ، فظلت الجيوش البيزنطية تعيث وتفسد مدة خمسين يوماً في الضواحي دون أن تستطيع دخول حلب . ولكن كل شيء كان ينبئ أن بطولة هذا الأمير العربي قد انتهت عند هذا الحد فقد عاجله المرض وألح عليه . وما زال يقاوم ويدافع حتى اخترمت المنية حياته يوم الجمعة لخمس بقين من صفر سنة ٣٥٦ هـ فقضى مدافعاً عن فكرة قومية سامية ، وعن وطن أحبه ورفع مكانته . وهكذا فقد ودع حياة ملئت بالجهاد والبطولة ، عاش نصف عمره في طرد الروم من حدود آسيا الصغرى . ولم يكن بين الملوك - على حد الرواية العربية - من هو أغزى منه ، ويتفق المؤرخون على أنه « جمع من نفض الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئاً ، وعمله لبنة بقدر الكف وأوصى أن يوضع خده عليها في لحده . فأنفذوا وصيته » نعم ، انتهت حياة هذا البطل العربي بهذه الحاتمة المحزنة ، كسره البيزنطيون في عاصمة ملكه ، وتفرق عنه أنصاره ورجاله ، وانتفضت المقاطعات ثائرة ، وهداه المرض وهو في إبان كهولته ، وكأنما شهد غروب هذا المجد السامق فكان ذلك من الأسباب التي عاجلت بانطفاء هذه الشعلة التي أضاءت ربع قرن كامل ، وبوفاة سيف الدولة تلاشت المملكة الحمدانية ، ولم يقو ابنه أبو المعالي شريف على توطيد ما عجز عنه أبوه فأفسح المجال أمام البيزنطيين ليوغلوا في ديار الشام وفي أراضى العراق بعد أن « كان عبور الفرات في الجهات الواقعة أسفل جبل طوروس مستحيلاً على الإغريق منذ أيام هرقل . ولكن زه ميسكيس استطاع أن يكتسح كثيراً من المدن العريقة في الشهرة ، من أمثال الرها ، وديار بكر ، وميافارقين ، ونصيبين الواقعة عند حدود الإمبراطورية القديمة على نهر دجلة ^(١) » ويصف فاسيل

(١) ابن مسكويه ج ٢ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ يحيى بن سعيد ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ،

١٥٨ ، ١٥٩ - وأبو الفدا ص ١١٨ .

أف أثر هذه الغزوات بقوله : « لم يبلغ قط إخضاع العرب وإذلالهم في وقت من الأوقات مثلما بلغه في عهد نقفور فوكاس . فقد انتزعت من أيديهم كليهما وجزء من بلاد سورية . واعترف شطر كبير من بلاد الدولة العباسية بالتبعية للإمبراطورية البيزنطية » ^(١) .

(١) الفاطميون في مصر .

الحمدانيون وبنو بويه

بنو بويه - انتزاعهم السلطة من العرب - إهانتهم الخليفة العربي -
استنثارهم بالأموال - عدم نجاتهم الحمدانيين حين اشتباكهم بحروب
بزنطية .

كانت مصر وسورية والعراق ، في أوائل القرن الرابع ، تحكم بثلاث إمارات
مستقلة ، فصر وقسم من بلاد الشام كانت بيد الإخشيديين ، وحلب إلى حدود
الموصل وديار بكر بيد الحمدانيين ، والعراق وفارس والأهواز بيد بني بويه . . .
ولا نشير إلى بقية المقاطعات الإسلامية فقد كانت محكومة أيضاً بأمراء متغلبين .
وإذا بحثنا ألوان هذه الإمارات من الناحية القومية انتهينا إلى أن الحمدانيين هم
وحدهم الذين كانوا يحكمون هذه البلاد بروح عربية . أما بنو بويه وهم
من الديلم ، وأما الإخشيديون وهم من الأتراك ، فكانوا يحكمون تلك المقاطعات بترعة
أعجمية وإن ظهروا بمظهر إسلامي بعيد كل البعد عن الصبغة العربية . فمن هم
بنو بويه ؟ وما صلاتهم بالحمدانيين ؟ وما حكم التاريخ عليهم حين تقاعسوا عن
نجدة الحمدانيين خلال حروبهم مع الروم ؟ هذا ما نريد أن نلمع إليه في هذا
الفصل :

بنو بويه

يذكر المقرئ في كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » قصة طريفة
عن نشأة بني بويه لا نبيح لأنفسنا أن نرويها كما رواها المقرئ ولكن نروي
بعضاً منها ، فهو يحدثنا كيف كان بنو بويه معوزين لا حول لهم ولا طول ،
حتى إن منجماً تنبأ لهم بالملك العريض والجاه الطويل والمال الكثير فما كان من
أبي شجاع ، جد الأسرة إلا أن خاطب أولاده بقوله : « اصفعوا هذا ، فقد أفرط

بالسخرية بنا ^(١) « فصفعوه وهو يبكي ويطلب الرأفة وهم يضحكون منه ويهزأون به ، ثم أمسك عن الضرب فقال لهم المنجم : اذكروا لي هذا إذا قصدتكم وأنتم ملوك وأعطاءه أبو شجاع عشرة دراهم !

* * *

ولأبي شجاع هذا ثلاثة أولاد هم :

أبو الحسن على الذى لقب فيما بعد بعماد الدولة
وأبو على الحسن الذى لقب فيما بعد بركن الدولة
وأبو الحسين أحمد الذى لقب فيما بعد بمعز الدولة

وكانوا جميعهم من رجال القوة والبطش . خرجوا فى جملة من خرج من بلاد الديلم تحت قيادة « ما كان بن كابي » الذى لم تكد مطامحه وفتوحاته تمتد حتى اصطدم به « مردويج » أحد قواد الفرس الذى قد استولى على ما بيد « ما كان » من طبرستان وجرجان وبذلك أخفق حلم بنى بويه وخاطبوا « ما كان » الذى صمم على الانهزام بقولهم « نحن فى جماعة . وقد صرنا ثقلاً عليك وعيالا ، وأنت مضيق ، والأصلح لك أن تفارقك لنخفف عنك مؤونتنا ، فإذا صلح أمرك عدنا إليك » ^(٢) فأذن لهم . ورأوا ، وهم فى حالتهم هذه ، أن يلتحقوا به « مردويج » ملك طبرستان وجرجان والرى وهمدان وكل تلك المناطق فأكرمهم واتخذهم بعض قواده ولم يكتف بذلك بل قلّد عماد الدولة - وهو الأخ الأكبر . بلاد الكرج ، فأحسن السيرة وافتتح قلاعاً ظفر منها بذخائر كثيرة ، وما زال يدير الأمور بالكياسة والسياسة تارة ، وبالقوة والبطش تارة أخرى حتى استمال الرجال إليه وقصده الناس من كل صوب وشاع ذكره فى الأقطار . وخشى « مردويج » أن يقوى نفوذ عماد الدولة فاستدعاه ولكنه لم يلتفت إليه ، وانتقل من كرج إلى أصبهان وقاتل المظفر محمد بن ياقوت حتى هزمه وملك أصبهان سنة ٣١١ هـ وبدأت القصص

(١) كتاب السلوك للمقرئى جزء ١ ص ٢٥ .

(٢) « السلوك لمعرفة دول الملوك » جزء ١ ص ٢٦ .

—إثر هذه المعارك التي قادت إلى النصر—تحاك بلباقة حول بطولته وشجاعته وكيف هزم عشرة آلاف رجل بتسعمائة من رجاله ، وبلغت سيرته خائفة بغداد فاستعظمه وما زال نفوذه يمتد ، والنصر يحالفه في كل خطوة من خطواته حتى ملك شيراز وفارس . وكان أخوه ركن الدولة — الحسن — قد استولى على كارزون فأصبحت كل تلك المقاطعات أو أكثرها بيد بني بويه. ومن هنا بدأت تتكوّن دولة الديلم التي ملكت العراق والأهواز وفارس وتغلبت على الخلفاء العباسيين حتى أصبحت الكلمة العليا لهم في شئون الملك واستنفاد موارد الدولة . .

وقد رأى عماد الدولة ، والخلافة بيد العباسيين ، أن يمنح إلى السياسة وأن يتصل بالخليفة ليتاح له دخول بغداد ، لأن بلاد فارس — على سعتها — لم تكن لتحقق مطامحه ومطامع إخوته فاتصل بالخليفة الراضى بالله محمد بن المقتدر وبوزيره أبي علي بن مقله ينبئهما بأنه على الطاعة، ويطلب أن يكون أميراً على هذه المقاطعات على أن يبذل ألف ألف درهم .. فأجيب إلى ذلك، وسيّرت له الخلع واللواء . . . فلم يكذب يابس الخلع وينشر اللواء حتى نسي وعوده للخائفة واعتبر نفسه صاحب الملك والسلطان . . وهذه إحدى غايات الخليفة العباسي الذي أضنى على متغلب ذي مطامع هذه الصفة الرسمية التي زادت نفوذه في كل بلاد الديلم . . وكانت أولى أعماله التي كشفت عن دناءة مطامحه أنه قتل الرسول الذي حمل إليه اللواء والخلع ولم يؤد المال الذي فرضه على نفسه^(١) .

وما شجع عماد الدولة أن يقترب هذه الفعلة النكراء أن الدسائس في بغداد كانت على أشدها ، وكانت العناصر الأجنبية تعمل في السر والعلن على تهديم هذا الملك الضخم وتقويض دعائمه . وكان بطش الأتراك من أكبر الخوافز التي دفعت بعض البغداديين أن يتصلوا بعماد الدولة وأن يحبّبوا إليه بغداد ، وكان في طليعة الذين أطمعوه بهذا الاستيلاء أبو عبد الله محمد البريدي والوزير أبو علي

(١) كانت تعليمات الرسول ألا يسلم الخلع واللواء إلا بعد قبض المال ، فلما وصل خرج عماد الدولة إلى لقائه وطلب منه تسليمها ، فذكر له الشرط فأخذها منه قهراً (ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٧) .

محمد بن علي بن مقله صاحب الكلمة الحاقلة المروية على لسانه : « إنني أزلت دولة بني العباس وأسلمتها إلى الديلم ، لأنني كاتبت الديلم وقت إنفاذي إلى أصبهان وأطمعهم في سرير الملك ببغداد » .

ولا شك أن هذه العوامل مجتمعة كانت أكبر ممدد لأن يحقق البويهيون أطماعهم فما إن وثق معز الدولة بأن دخوله بغداد لن يأتي أية مقاومة حتى تقدم على رأس جيش لحب ودخل بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة دخول الفاتحين^(١) وبدخوله دعر قوم وابتهج آخرون، ولكن سرعان ما عاودهم الدعر جميعاً حين انقض الجنود على دار الخلافة ينهبون كل نفيس ويعيثون بكل أثر .

أصبح الأمير البويهى هو الحاكم المطلق في بغداد ، خلع المستكفي بالله وأقام مكانه المطيع لله الفضل بن المقتدر بعد أن قص من أجنحته حتى حرمة من وزير يبعثه بعض هجساته ! .. وهكذا ، فقد استحال الخليفة أشبه بصنم في متحف ، لا رأى له ولا نفوذ ، أقصى أمنيته أن لا يمثل به كما مثل بأسلافه^(٢) ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل فكر هو وأصحابه أن يبطلوا الدعوة في المساجد لبني العباس وإقامتها للمعز لدين الله أبي تميم معد الفاطمي ولكن بعض أصحابه قد نهاه عن ذلك وانتشر قواده في كل مكان يبسطون نفوذهم وسلطانهم ويفرضون بطشهم وجبروتهم ، وظلت إمارة الأمراء في عهده ، وظل مسيطراً على العراق والخلافة ٢١ سنة ، تجبي الأموال باسمه إلى أن مات في بغداد سنة ٣٥٦ هـ . . ولا نكون مسرفين في القول إذا أطلقنا على معز الدولة — هذا الرجل المتغلب — لقب ديكتاتور ، لقد كانت ديكتاتوريته تقوم على الظلم والبطش والنهم بينا ديكتاتوريات العصر الحاضر

(١) لقد دخل معز الدولة بغداد لأول مرة سنة ٣٣٢ هـ فحاربه توزون الأمير التركي وهزمه وما زال يتحين الفرص حتى دخلها يوم السبت في الحادي عشر من جمادى الأولى سنة ٣٣٤ .

(٢) لقد قتل من التسعة والخمسين خليفة ببغداد ثمانية وثلاثون ، وعذبوا بالجوع والسجن وغير ذلك حتى إنهم أخرجوا الخليفة القاهر من السجن مفقود العينين ، يسأل الناس عن قوته على أبواب المساجد بقوله : « يا معشر الناس . أنا بالأمس كنت خليفتم ، واليوم أسألكم ما في يدكم » فيتصدق عليه .

مثلاً - إلى قيامها بذلك - تعمل على تشييد ملك وتقوم ببعض الأعمال العامة لتستر طغيانها بستر شفاف . . وهكذا ، فإن حوادث التاريخ تقص علينا أحداث مريعة عن انتقال السلطة من العرب إلى الأعاجم ، وعن قيام بني بويه في بغداد ، وفرضهم الإتاوات والضرائب ، واقترافهم أبشع ألوان الظلم وإرهاق الرعية بشتى ضروب التعذيب . بينا كان الحمدانيون العنصر الوحيد الذي يهتز ألماً لتزول هذه الأحداث ، وكان الخليفة العباسي على علم بهذا الشعور الذي كان ينبض به قلب سيف الدولة . ولكن ماذا يستطيع أن يعمل الحمدانيون وقد صمدوا وحدهم يردون أعظم غارة حربية تستهدف بلاد الشام . كان يؤلم الخليفة أن يقف البويهيون هذا الموقف المزرى من الحمدانيين الذين كانوا يطمعون أن تصل إليهم نجدات الخليفة لصده هذه الغارات الأجنبية على تخوم الممالك الإسلامية الكبرى . وفي المعركة التي دارت رحاها على أبواب حلب بين نيسفور فوكاس وسيف الدولة عام ٣٦١ هـ - ٩٦٢ م اتصل الأمير الحمداني بالخليفة العباسي وطلب إليه أن ينجده لكيلا يفسح المجال للبيزنطيين أن يمحضوا في غزوتهم الكبرى فإذا كانت النتيجة ؟

يصف الذهبي صاحب « تاريخ الإسلام » هذه الحادثة بقوله (١) :

« . . وذاع الخبر في بغداد فأغلق الناس الأسواق ، وذهبوا إلى باب الخلافة ومعهم كتاب يشرح مصيبة حلب وضجوا . . فخرج إليهم الحاجب وأوصل الكتاب إلى الخليفة فقرأه ثم خرج إليهم وأفهمهم أن الخليفة بكى ونقل إليهم كلماته بنصها :

(لقد غمى ما جرى وأنتم تعلمون أن سيني معز الدولة ، وأنا أرسله في هذا) . ولكن الشعب العراقي الذي تربطه ببلاد الشام أواصر القرى والدم واللغة والحس المشترك ، إن هذا الشعب لم يرض هذا الجواب فضج وطلب إلى الخليفة أن يخرج إلى الجهاد بذاته .

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه ص ٢٠١ .

(لا نقنع إلا بخروجك أنت ، وأن تكتب إلى سائر الآفاق وتجمع الجيوش ، إلا فانهزل لنولى غيرك) « وهذه نزوة صارخة من شعب متألم يشعر أى كارثة تنزل بالأقطار الإسلامية إذا لم تتوحد الصفوف وتصمد للخطر متكاتفه الجهود لصد الهجمات . . وفاتهم — على ما يظهر — أن الخليفة الذى يوجهون إليه هذه الكلمات هو شبح من الأشباح . . ولا شك أنه كان يحس إحساسهم ولكن السلطة لم تكن بيده . . وقابل الشعب هذا الجواب بكثير من الهزء . . ولا نزيد شيئاً على ما أجاب به الخليفة فكل حرف من حروف جوابه ينطق بضعفه وبمستولية البويهيين الكبرى . . ولا ينقذ سمعتهم التاريخية أنهم رعو الأدب وقربوا الشعراء وأغدقوا على العلماء ، فشأنهم ، فى ذلك ، شأن حكومة باطشة تستخدم الصحف المأجورة لتبرير عملها فى خنق الحريات ومطاردة الأحرار . . وما كان التاريخ ليعفيهم مما اقترفوه من إثم !

ملاحم من شخصيات عاصرت سيف الدولة

المتنبي

أبو فراس

الفارابي

ابن نباتة الخطيب

الصنوبري

المتنبى

ولد المتنبى في السنة التي ولد فيها سيف الدولة ، وفي رواية أن سيف الدولة ولد قبله بعامين . ومهما يكن فإننا نستطيع أن نعتبر ولادتهما في سنة واحدة ، ومن غرائب الأقدار أن يعيشا عمراً متقارباً وأن لا يفصل بين موتهما غير سنة وبعض سنة .

* * *

لسنا نريد أن نؤرخ حياة المتنبى في هذا الفصل ، فالمتنبى سفر خالد من تراثنا الفكري ، وقد كتب عنه الكاتبون مجلدات ضخمة ، وهو لا يزال يستهوى الباحثين لأن يدرسوا حياته ويكتبوا عنه أسفاراً ومجلدات أضخم . ولكن التصاق حياته بحياة سيف الدولة يجعلنا نلم إلمامة موجزة بسيرته وبجوانب من نواحي عظمته وأيامه في بلاط سيف الدولة :

ولد شاعرنا أحمد بن الحسين ، في الكوفة ، عام ثلاثمائة وثلاثين هجرية . والواقع أن الدراسات الأدبية لم تهدينا إلى شيء ملموس عن طفولته ، ولكن هذا لا يمنع أن نفترض فيه توقد الذهن وفرط الذكاء . ويظهر أن أباه — رغم زراية مهنته — كان يقدر ما للحياة الفكرية من أثر في تكوين الرجل ، فبعث بابنه إلى مكاتب تلك الأيام يتعلم القراءة والكتابة ويلم بثقافة ذلك العصر . ولكن سرعان ما تدهمه الحوادث فيهجر الكوفة مع أسرته إلى بادية « السماوة » فراراً من تغلب القرامطة الذين أعمالوا النهب والسلب في وطنه وفي هاتيك الأطراف . ونتجاوز حياة طفولته وصباه وملازمته الوراقين وأخذ الأدب عن كبار الأدباء كأخذه اللغة صافية عن أعراب البادية الأقحاح — نتجاوز هذه الناحية ، ناحية أحمد الطفل الناشئ ، إلى شاعر في العشرين من عمره ، يتقد صدره بهذه الشعلة القوية ، شعلة الشعر التي حفزته أن ينتقل من الكوفة إلى بغداد إلى الشام يمدح هذا وذاك ، ولا نعلم أكان يتخذ الأمراء والملوك وسيلة لقول الشعر أم كان يتخذ مدحهم وسيلة للإثراء والمجد أم هما معاً ؟ على كل فإن تفوقه في الشعر ، وحدة

ذكائه وكثرة مطامحه ألهبت في نفسه روحاً جديدة لعلها روح العظمة التي دفعته وهو في اللاذقية أن يعلن نبوته وأن يصطاد زعامة من زعامات الفوضى التي كان المتغلبون يتقاسمون بها دون ما حساب فصورت زعامته نبوة، ولكن يالها من نبوة جرته إلى السجن عامين كاملين لم يطلق أمير حمص سراحه إلا بعد أن استوثق من توبته ورجوعه إلى حظيرة الإيمان ! . .

ترك المتنبي اللاذقية بعد هذه الصدمة الأليمة ، وأخذ ينتقل من شواطئ البحر المتوسط إلى صرود لبنان إلى أرض الشام حتى هبط على سيف الدولة في حلب فرأى فيه عنصراً قوياً من عناصر العظمة فأحبه وأخلص له الحب وظل تسع سنوات كاملة في حماه ينعم بهباته وعظفه . ولكن الرجل الموهوب لا بد أن يكثر حاسدوه — وشاعرنا من هذا النفر — فما زال منافسوه يكيّدون له المكاييد ويؤلبون عايه الأمير حتى ترك حلب إلى مصر حيث انصل بكافور الإخشيدى ومدحه بقصائد قوية . ولكن للمتنبي رغبات وطمحات ، وكافور لم يحقق هذه الرغبات ولم يكن من جهة ثانية كسيف الدولة لا بسمو نفسه ولا بأعطياته ولا بكرم محتده ولا بصباحة وجهه فخابت آمال المتنبي فيه وانقلب المدح إلى هجاء لاذع ثم انسل في جوف الليل إلى بغداد ومنها إلى الكوفة . ولكنه لم يلبث فيها كثيراً لأن المدن الصغيرة تضيق بعظماء الرجال فسافر إلى بلاد فارس يمدح ابن العميد حيناً وعضد الدولة حيناً آخر . وإذا امتلأت نفسه من الأمراء والماوك وزيارة البلدان رجع إلى وطنه يحمل الأموال الكثيرة والهدايا الثمينة والكتب النفيسة . وما اقرب من بغداد حتى دأبته فاتك الأسدى على رأس شزيمة من رجاله فقتاوه وكان قد أشرف على الخمسين .

* * *

هذه نبذة عن نشأة المتنبي وسيرته . ولا شك أن الانتمال من بلد إلى بلد، ومن وطن إلى وطن في ذلكم العهد هو لون صريح من ألوان المغامرة والطموح والاعتداد بالنفس . وقد عاش المتنبي عمره وهو يحمل في صدره عزم الشباب : نفساً طموحة ، وروحاً مغامرة ، وقلباً قلقاً وثاباً ، وحنوناً بالمجد والتعالى والعظمة، وإيمان

الواثق من نفسه ، وما إلى ذلك من هذه الألوان التي تتلاقى ظلالها في حياة العصاميين الذين يرتفعون بنفوسهم من الضمعة إلى قمة المجد وذروة العلاء . . هذا هو المتنبي ، وهذه أظهر خصائص نفسيته .

* * *

كان المتنبي حين فرض سيف الدولة إمارته على حلب ، في العقد الثالث من عمره ، أى في السنة التي تتفتح فيها آمال الشباب قوية زاخرة ، وكان قد مرّ بألوان مريرة من بؤس الحياة وشظف العيش ، ذاق الفقر وذاق الهوان ، ناضل وكافح وما زال حتى انتهت به أطماعه ومطامحه — كما قدمنا — إلى غيابات السجن ، ومع كل ذلك ظلّ باسم الثغر ، ثبت الجنان ، لا تهزّه الأحداث ، يطمح إلى ما يوائم هذه النفس التي وصفها ووصف هذه المنازع التي تضطرم في ضميره بقوله :

يقولونَ لي ما أنت في كلِّ بلدةٍ وما تبتغي؟ ما أبتغي جَلَّ أن يُسمَى
إذا فلَّ عزمي عن مدَى خوفٍ بعده فأبعد شيءٍ ممكنٍ لم يجد عزماً
ولاني لمن قومٍ كأنَّ نفوسهم بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظمًا

دخل أبو الطيب عاصمة الحمدانيين وبه بعض الهيبة والذعر ، لأن بلاط سيف الدولة كان يعج بأكابر العلماء والأدباء والشعراء من الفارابي الفيلسوف إلى ابن خالويه النحوي إلى ابن جني اللغوي إلى أبي ذر الصنوبري إلى البكتامري إلى كشاجم إلى ابن نباتة إلى ابن أبي الفياض إلى أبي الفرج العجلى إلى كثير من الشعراء والقضاة والفنانين . . ولكن وثوق المتنبي من نفسه ، وطمعه بالمجد والشهرة ، ونزعته العربية الصميمة هي التي جعلته يقتحم هذا الميدان وأن لا يعدّ نفسه غريباً . لقد رأى في بلاط سيف الدولة حياة تختلف عما ألفه من حياته السابقة : بذخاً وثراء ، وأدباً وفناً ، وفروسية ومجداً ورأى في سيف الدولة رجلاً يختلف عن خبرهم من الرجال . ورأى إلى هذا نزعات قومية تضطرم اضطراباً ، وحياة فكرية تموج بالقوة والازدهار ، هذه الظواهر مجتمعة قد فتحت أمام عينيه

آفاقاً جديدة نقاته من حال إلى حال : من حياة القلق والضجر إلى الرغد والاطمئنان . لقد سبّح أبو الطيب بهذا الفيض الذي غمره به سيف الدولة حتى كاد يضيق به . ولا عجب في ذلك ، ففي نفوس الشعراء هذا البرم والملل من الركود والركون إلى لون واحد من ألوان الحياة . والمتنبى المغامر تتنافى طبيعته وهذه الحياة الرتيبة ذات النغم الواحد . كيف البقاء في حلب والاكتفاء بهذا الأفق الضيق ؟ لم لا يشارك أميره لذة الظفر في حروبه وغزواته ؟ وما قيمة العلم بالشيء إذا لم يعمل به ؟ لقد أعده الأمير لحياة الطعان والعراك منذ اتصاله به ، سلمه للرواض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة وأصبح المتنبي الشاعر ابن الطعن والعراك . وبعد .. فالوطن يتطلب منه هذا الجهاد ، والعروبة تقتضيه هذا الحق . وإذا أظهر هذه الرغبة إلى أميره صحبه معه وكان به جد فخور ؛ ولا حاجة إلى الإلماع إلى هذه الغزوات التي شهدها المتنبي ، وهي بعض الغزوات التي شهدها أميره ، والتي وصفها وصف الشاعر الذي امتزج بها وبنيران المعارك دمه وحسه فحسبنا أن نردد ما قلناه من أن شعره في سيف الدولة ، ونريد في غزواته ومعاركه ، هو أقوى شيء ، من ناحية الوصف ، في ديوانه . لأنه مسّ الواقع في الصميم وعبر عن نزعة الكفاح في نفسه . . نعم ، لا حاجة إلى الإلماع إلى هذه الناحية من فن المتنبي الذي ينضح بالقوة والدقة وعمق الخيال ، فهذا الخيال المرهف الذي صهر في نيران المعارك هو الذي جعل لشعره هذا الأثر القوي في النفوس . وما خاض المتنبي معركة إلا وقف مبهوتاً من شجاعة الفرسان وهول القتال فوصف الجياد ووصف السلاح ووصف وحدات الجيش ولم تفته حتى برودة مياه الأنهر التي عبرتها جيوش الأمير ووثبته على فرسه من ضفة إلى ضفة وغير ذلك مما تلمس فيه أثر نفسه وحسه . وهذه القصائد هي عندى وللذين يحبون أن يدرسوا عصر الحمدانيين أصدق من روايات المؤرخين التي يعترى أكثرها الاضطراب والتشكيك ! . . .

شهد المتنبي هذه المعارك الدامية التي كانت تخط مجداً جديداً للعرب ولم يكن كأولئك الشعراء الذين ينعمون بالترف دون أن يزجوا أنفسهم في هذا المعترك . وكأن المتنبي وقد طمأن نزعة النضال في نفسه ، وعاد يزهر على خصومه

بجهاده — عاد ليشهد من جديد هذه المعارك التي كانت تثور بين الأدباء والشعراء في بلاط سيف الدولة والتي كان ضرامها الدس والحقده عليه . لا شيء إلا لعبقريته وهذه الخطوة التي خصه بها الأمير فأوغر بذلك صدر الكثيرين ممن ضمهم البلاط — ولا شيء كالحسد يقرض نفوس الأدباء والشعراء والفنانين — كيف يتاح لهذا الكوفي الوضيع الأصل أن ينال هذه الخطوة عند الأمير؟ ولم يخصه بعطفه ويغمره بعطاياه؟ هل في شعره هذه القوة التي تجعله في طليعة من يصطحبهم في غزواته وحروبهم، وفي صيده ولطوه، وفي سمره وليالي أنسه . وبدأت المؤامرات تحاك حوله وبدأوا يلدسون عليه ويصورون شعره شعراً مبتذلاً . أجماه مسروق ، لا يستحق هذا الإكبار والإجلال . وكان في طليعة هذا النفر النامي الشاعر وابن خالويه مؤدب سيف الدولة وأبو فراس ابن عمه ، وكان أبو فراس أكثرهم حقداً عليه . وكلمته التي خاطب بها سيف الدولة وتأليبه عليه الشعراء تدل على مدى هذا الحقده : « إن هذا المتشدد — يريد المتنبي — كثير الإدلال عليك وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره » .

ولكن المتنبي لم يكن من الضعف والميوعة بحيث يهرب من أول تعريض به ، فصمد لهم وكون حوله جماعة من محبيه وظل طيلة مدة إقامته الشاعر الفذ الذي لا يدانيه شاعر في الخطوة والرعاية .

هذه الخصومات التي بدأت بين الشعراء والأدباء أدت إلى أن يكون في حاب مدرستان أدبيتان : مدرسة قديمة ومدرسة حديثة وأن يبدأ النضال قوياً بين المدرستين . وأن تتباين وجهات النظر في فهم الأدب والشعر ، وأن يكون على رأس الفئة القديمة ابن خالويه وأن يتزعم المتنبي الزمرة الثانية ، يناقش خصومه ويرد إرهاباتهم بجرأة وفهم ، وحين يفحمهم بالأدلة والبراهين يلجأون إلى أخس الصفات البشرية ، ولا يتحرج ابن خالويه — هذا الشيخ الوقور — أن يخرج من كمه مفتاحاً من حديد ويقذفه في وجه المتنبي فيشج رأسه ويسيل دمه . وكان ابن خالويه قد عجز عن مقارعة الحجة بالحجة ، ومصارعة الفكر بالفكر ، فاعتمد على

التزق والحمق ، وهذا منتهى الضعف والغيظ وانتكاس الخاق .
ولا نتوسع هنا بعرض هذه الخصومات وهي تتجدد في كل عصر فلا يكاد يلمع ذكر الموهوب ويبرر ضوؤه عيونهم حتى تبدأ وخزات خصومه والعاجزين عن بلوغ مكانته بالدس والكيد .

إن هذه السنوات التي قضها المتنبي في حلب والتي لقي فيها المجد والغنى وهناءة العيش ، ولقي إلى هذا الكيد والدس ، وعرف خصائص النفس البشرية على ألوانها المتباينة هي التي خلقت منه هذا الشاعر الفذ الذي فرض موهبته وشعره على الأجيال فرضاً . وإذا كانت البيئة هي التي تلون العبقريات بأصباغها فلا شك أن بيئة حلب ، في القرن الرابع الهجري — حيث كانت الحياة الفكرية والحياة القومية تعجان بالفيض والقوة والازدهار — هي التي عملت عملها في نفسه وجعلت لشعره — في هذه الفترة من حياته — طابع الصدق والإخلاص .

لقد أكبر المتنبي في سيف الدولة الفكرة العربية والطموح والفروسية وطلب المجد ، وهي صفات تقمصت في المتنبي ، وهذا الذي وحد بين نفسيهما وقرب بين روحيهما وواءم بين نزعاتهما ، وهذا الذي حفزنا أن نهز ذلك الاتجاه الذي يقرره مؤرخو الأدب بأن خلود سيف الدولة مرده إلى المتنبي ، وأنه لولا أبو الطيب لكان الأمير الحمداني نسياً منسياً . فالواقع أن كليهما عظيم ، وأن أثر سيف الدولة في تكوين عبقريته لا يمكن إنكاره ، وإذا أردنا أن لا نغبط المتنبي قلنا إن كل واحد كان متمماً لخلود الثاني ، وفي هذا إنصاف الأدب وإنصاف التاريخ معاً .

أبو فراس الحمداني.

« لما أدركت أبا فراس حرفة الأدب ، وأصابته عين الكمال أسرته
الروم في بعض وقائعها ، وهو جريح وقد أصابه سهم بقى نصله في فخذه ،
وحصل مشخناً بخرشنة ، ثم بقسطنطينية وتناولت مدته بها لتعذر المفاداة .
وقد قيل : على كل نجح رقيب من الآفات ، وكانت تصدر أشعاره في
الأسر ، والمرض ، واستزاده سيف الدولة ، وفرط الحنين إلى أهله وإخوته
وأحبابه ، والتبرم بحاله ، عن صدر حرج وقلب شجي ، فتزداد رقة ولطافة
وتبكي سامعها ، وتعلق بالحفظ من سلاستها . »

« الثعالبى »

أبو فراس الحمداني ابن عم سيف الدولة وأحد قواده وولاته . شاعر وجداني
قوى العاطفة ، زاخر الإحساس ، فياض الشعور ، خاض غمرات القتال وذاد عن
حمى الوطن بحماسة وإيمان ، ووهب نفسه للمجد وللمكرمات وهو القائل :

فلا تصفن الحربَ عندي فلإنها طعامى مذ بعثُ الصبَا وشرابى
وقد عرفتُ وقعَ المسامير مهجتي وشقق عن زُرُق النصول إهابى
ولحجتُ في حلو الزمان ومره وأنفقتُ من عمرى بغير حساب

وقع أسيراً بيد البيزنطيين فكتب في الأسر أجمل قصائده وأرق الآيات
الزاخرة بالألم واللوعة ، وبالشوق والحنين .
وسنلم في هذا الفصل إلمامة موجزة بسيرته لالتصاق حياته بحياة ابن عمه .

مولده ونشأته

نشأ أبو فراس في خضمّ الزعازع العصبية التي نشأ فيها سيف الدولة ،
ولا نعود إلى وصف صورة العصر الذي عاش فيه أبو فراس فقد كشفنا عن هذه
الصور في الحديث عن سيف الدولة . إذن ، فلنحصر حديثنا عن أبي فراس

الشاعر القائد ، ولنصف جوانب من حياته ، ولنبدأ بمولده ونشأته .. فتى ولد وأين نشأ ؟

في الواقع أننا لا نعلم شيئاً عن نشأة أبي فراس غير أنه ولد في منبج سنة ٣٢٠هـ وأنه فقد أباه طفلاً وربى يتيماً تحت أكناف والدته وفي ظلال رعايتها . وكذلك لا نعلم شيئاً عن أدوار طفولته ولا عن الدين لقنوه فن الرمي والفروسية وهو في فجر شبابه - وهما من مفاخر العرب آنئذ ، ولا تزال عند الكثير من القبائل العربية حتى يومنا هذا ؛ لسنا نعلم من ذلك شيئاً لأن القصاص والرواة بخلوا علينا بالكثير من حوادثه فكان حظه ، من هذه الناحية ، غير موفور بالنسبة إلى غيره من أنداده المعاصرين ومن هم دونه في الحسب والأدب . لذلك فسنحاول « الافتراض » أحياناً والرجوع إلى نصوص التاريخ أحياناً أخرى في حديثنا عن نشأته التي لا تختلف عن نشأة غيره من أولاد الأمراء الذين ينشأون في حجر النعم والرفاه وبين عظمة الملك وعز السلطان ، وعلى هذا فلنتقل إلى منبج ، إلى وطنه الذي تغنى بمحاسنه كثيراً ، ولتقف وقفة عند « أكناف المصلى » و « الجوسق الميمون » ولنسمع خرير مياه النهر وحفيف أوراق الأشجار ، ولنستمل محاسن تلك الحدائق الزاهرة والحنائن الغناء التي يحيم ظلال أشجارها الربوع والتي يصفها بقوله :

تلك المنازلُ والملا	عبُ لا أراها الله مخلا
حيثُ التفتَ وجدتَ ما	ءٌ سابحاً ووجدتَ ظلاً
وتحلَّ بالجسر، الجنا	ن وتسكن الحصنَ الملقى
تجلو عرائسه لنا	هرج الذباب إذا تجلَّى
وإذا نزلنا بالشوا	جير اجتنتنا العيشَ سهلا
والماء يفصلُ بين رو	ض الزهر في الشطين فصلا

لندكر هذه المنازل ، وهذه المغاني التي كان يرتادها مع صحبه يسمعون غناء القيان ويطربون طرباً بريئاً ملء النفوس ، ولتخيله على الجسر وقد اتكأ على

بساط سندسى يحدث خللانه بما ينطوى عليه فؤاده اليقظ من ذكريات الحب تارة وذكريات المجد تارة أخرى ويستوضح شيوخه حوادث الماضي وعبر الأيام ، ويعرض عليهم بواكير قصائده التي أخذ يقرضها ، تلك القصائد التي كان يتزع فيها نزعاً من يرى نفسه رب البيت وسيد الدار مفاخرأ بما لقومه من سمة المجد وعز السيادة ؛ لنذكر كل ذلك ، ونمر بعهد طفولته إلى عهد شبابه ؛ ولنذكر انتقاله إلى حلب ؛ واتصاله بابن عمه سيف الدولة الذي كان معجباً به إعجاباً دفعه إلى تفضيله على سائر بني عمومته من قومه ، هذا التفضيل الذي استحال إلى اصطناعه لنفسه واصطحابه في غزواته وما زال به يقدمه حتى استخلفه على عماله ؛ لنذكر هذا الشاب الرزين الطامح إلى ذروة الملك والذي استطاع وهو في بلهنية الصبا أن يقود جيوش سيف الدولة في الحرب وأن يرأس كتابه في السلم . والذي تكلفت هامته بأكاليل الظفر في كثير من الوقائع فحبته القلوب حبها ، وانطلقت الألسن تذكره بالحمد والثناء وتعجب أيما إعجاب بشجاعته ، ثم لنذكر نشوات الظفر التي كانت تهز جوانب فؤاده الطروب فينطلق لسانه بقول الشعر في وصف المعارك والميادين التي خاضها بقلب ثابت قوى ، لنذكر كل ذلك ولنتخذ من هذه الذكرى صورة بارزة عن هذه الشخصية العذبة ، ثم لنبحث عن رأي القدماء فيه . وعن رأي معاصريه بصورة خاصة ، ولنسجل رأي أبي منصور الثعالبي وهو خاتمة المترسلين في العصر العباسي وأكثر الأدباء آثاراً وأغزرهم مادة ، ورأيه في أبي فراس أنه « كان فريد دهره ، وشمس عصره أدباً وفضلاً وكرماً ومجداً وبلاغة وبراعة وفروسية وشجاعة » ولنسجل إلى جانب هذا رأي صاحب ابن عباد الذي ازدهر الأدب في عهد بني بويه بفضلته والذي سئل عن رأيه بأبي فراس ، فقال : بدئ الشعر بملك وختم بملك : يعنى امرأ القيس وأبا فراس ، لنذكر هاتين الروايتين ، ولنضرب عرض الحائط بما يرويه الرواة عن المتنبي الذي كان يشهد لأبي فراس بالتقدم والتبريز ، والذي كان — كما قيل — يتحامي جانبه فلا ينبري لمباراته ، ولا يجترئ على مجاراته ، وإنه لم يمدحه ومدح من دونه من آل حمدان نهياً له وإجلالاً ، لا إغفالاً ولا إخلالاً...!!! . لنضرب بهذه

الرواية التي تروى عن المتنبي عرض الحائط . ذلك لأننا نعلم كثيراً عن الحفاوة التي كان يلقاها المتنبي من سيف الدولة في بدء اتصاله ، ونعلم أن هذه الحفاوة كانت تثير حفيظة أبي فراس ، وأن التنافس كان على أشده بين الشاعرين ، نعم ، لنهمل هذه الرواية ولنعد إلى رواية الثعالبي وإلى رواية الصاحب بن عباد وكلاهما سيد من أسياد البيان وأمير من أمرائه المبرزين ، ولنقبل حكمهما مع قليل من الاحتياط ، أي لنأخذ من الثعالبي وصفه بسمات الكرم والفروسية والمجد لأنه يعرف منها ما لا نعرفه نحن لقرب عهده به ، ولنحكم على شعره غير متأثرين بتلك الأقوال التي أضافها إلى رأيه بأن شعره « سائر بين الحسن والجلودة والسهولة والجزالة والعلوبة والفخامة والحلاوة ، ومعه رواء الطبع وسمّة الظرف وعزة الملك » — لنترك هذا الوصف المتناسك الأجزاء ولتلمس شعره بذوقنا الأدبي ليكون حكمنا قريباً من الحقيقة ، غير بعيد عن الواقع .

ويجمل بنا الآن قبل أن نعرض إلى شعره أن ندون كلمة عن أسره وعن حملته إلى بلاد الروم وإلى « القسطنطينية » لما لذلك من الأثر البين في شعره الذي رق وجزل واصطبغ بصبغة عليها مسحة من الروعة والجمال بعد أن اكتحلت عيناه بمراى الروميات .

أسره

يروى ثقات المؤرخين وغيرهم ممن عرضوا إلى وقائع الدولة الحمدانية وإلى غزوات سيف الدولة بصورة خاصة — أن أبا فراس وقع أسيراً في أيدي الروم في سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ٣٤٨ هـ ، وأن سيف الدولة فداه في سنة خمس وخمسين ! وفي رواية أنه أسر مرتين .

الأولى : « بمغارة الكحل » سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة وأن الروم لم يتعلوا به « خرشنة » وهي قلعة بلاد الروم .

والثانية : « بمنبج » في شوال سنة إحدى وخمسين وأن الروم حملوه إلى « القسطنطينية » فأقام في الأسر أربع سنين .

وفى ترديد الروايتين على علاقتهما ما يدفعنا إلى الشك بهما ، لأننا إذا قبلنا أن أبا فراس بقى فى الأسر أربع سنوات — وهذا هو المتداول بين المؤرخين — رغم هذا البيت الوارد فى سياق قصيدته التى أرسلها من الأسر والذى يبين أنه بقى عامين لا أربع حيث يقول :

أُقِمْتُ بِأَرْضِ الرُّومِ عامين لا أرى من الناس محزوناً ولا متصنعاً

بالرغم من ذلك فنحن مضطرون إلى أن نعتبر أن مدة أسره لا تزال غامضة لم يكشف عنها المؤرخون وأن كلامهم لا يتعدى الافتراض . وقد أوضح « بروكلمن » فى البحث الذى كتبه لدائرة المعارف الإسلامية عن أبى فراس أن الرومان أسروه سنة ٣٤٨ هـ — ٩٥٩ م ، وحملوه إلى « خرشنة » بالقرب من الفرات وأنه تمكن من الهرب — كما روى — بوثة خطيرة ! ؟ ثم قبض عليه سنة ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م وقادوه إلى الأستانة حيث ظل مسجوناً فيها أربع سنوات .

وبذلك نلتقى مع المؤرخين الذين ذكروا أنه بقى فى الأسر أربع سنوات ؛ وإلا فتكون مدة بقاءه سبع سنوات وهذا ما لم يجر به قلم مؤرخ .

ويظهر لنا من تشدد القوم بعدم فك أساره أنه كان من القواد الخيفين الذين عرفوا أن يضربوا جيوش الروم ضربات قاضية ، وهذا الذى جعلهم ، مع إكرامهم له ، وتقديرهم لبطولته — وهذا نوع من المجاملات السياسية — أن يحتفظوا به كأعظم رهينة يحتفظ بها العدو من عدوه !

وما زال فى الأسر يشكو آلام الغربة ولوعة النوى حتى تنوظر فى الهدنة وفداه سيف الدولة فعاد إلى وطنه وهو أمضى عزيزة وأثبت جنائاً ، وأوفر قوة وأكثر تحدثاً عن نفسه وعن قومه منه قبل أسره .

وقد كتب فى الأسر أجمل قصائده وأرقها وعرفت هذه القصائد بالروميات ، وهى — وإن اختلفت أغراضها ومراميها — ذات نغم حزين واحد سواء هذه التى بعثها إلى سيف الدولة أو إلى أصدقائه أو إلى أمه أو التى ناجى فيها نفسه فى وحدته وغربته وهى مزيج من الحنين والنجوى ومن الفخر

والعتاب والشكوى . وسنشير إلى هذه القصائد في حديثنا عن شعره . وحسبنا هنا أن نقف وقفة قصيرة عند قصيدتين من قصائد العتاب التي وجهها إلى سيف الدولة حين أحس منه فتوراً في افتدائه في هاتين القصيدتين يصف غربته أدق وصف وكأنما هذا الأسر قد أيقظ في نفسه هذا التشاد الذي كان بين أبيه وبين عمه على الملك فكتب إليه حين طال به الأسر وكاد يقنط من اهتمام سيف الدولة بافتدائه يقول :

« مفاداني إنه تعلمت عليك ، فأذن لي في مكاتبة أهل خراسان ومراسلتهم ليفادوني ، وينوبوا عنك في أمري » . فأجابه سيف الدولة بكلام خشن وقال له : « ومن يعرفك بخراسان ؟ » فكتب إليه أبو فراس هذه القصيدة التي يكشف فيها عن نوازع نفسه قال :

أسيف الهدى ، وقريع العرب ،	إلام الخفاء ؟ وفيم الغضب ؟
وما بال كبتك قد أصبحت	تنكبن مع هذى النكب
وأنت الكريم ، وأنت الحليم	وأنت العطوف ، وأنت الحذب
وما زلت تسعفني بالجميل ،	وتترلني بالمكان الخصب
وتدفع عن عاتق الخطوب	وتكشف عن ناظرى الكرب
وما غص منى هذا الإسار ،	ولكن خلصت خلوص الذهب
فقيم يقرعني بالحمو	ل مولى به نلت أعلى الرتب ^(١)
وكان عتيداً لدى الجواب	ولكن ، لهيته ، لم أجب ^(٢)
فلا تنسب إلى الحمل ،	عليك أقمت ، فلم أغرب
وأصبحت منك فإن كان فضل	وإن كان نقص ، فأنت السبب
وإن خراسان إن أنكرت	علاى ، فقد عرفها حلب
ومن أين ينكرنى الأبعلون	أمن نقص جد ؟ أمن نقص أب ؟
ألست وإياك من أسرة ؟	وبيني وبينك فوق النسب :

(١) مولى : أى سيف الدولة .

(٢) عتيداً : مهياً .

ودادٌ تناسب فيه الكرام ، وتربيةٌ ، ومحَلٌ أشبُ (١)
 ونفسٌ تكبرُ إلاّ عليك ، وترغب ، إلاّك ، عمن رغب
 فلا تعدلن ، فذاك ابن عمـ لك ، لا بلّ غلامك ، عما يجب !
 وأنصفُ فتاك ! فإنصافهُ من الفضل والشرف المكتسبُ
 وكنت الحبيب ، وكنت القريب ليالى أدعوك من عن كُتبُ
 فلما بعدت ، بدت جفوة ، ولاح ، من الأمر ، ما لا أحب
 فلو لم أكن بك ذا خبرة لقلت : « صديقك من لم يرغب »

لقد عز على سيف الدولة أن يطلب أبو فراس الإذن بمكاتبة أهل خراسان لتفديته . وهذا الذى دعاه أن يجيبه بهذه اللهجة القاسية المريرة التى نهت الشاعر إلى هفوته فكتب هذه القصيدة التى التوت فيها المقاصد والترعات من استعطاف إلى تفاخر إلى اعتذار إلى شكوى إلى رجاء ! وإنا لتساءل هل أهمل سيف الدولة ابن عمه ولم يعمل على تخليصه ؟ هل نسيه وهو من أعظم قواده فى الحرب ؟ لا نظن . . ومن يدري ؟ فقد تكون مشاغل سيف الدولة فى دفع الخطر عن أرض الوطن هى التى أقعدته عن تخليص ابن عمه . لأننا رأينا فى الفصول السابقة أنه لم يترك وسيلة إلا بذلها فى سبيل جنوده وقواده وبديهي أن يهتم بابن عمه أكثر . ولكن طبيعة الشعراء هى البرم بكل شىء ، وقد ضاق أبو فراس بالأسر واشتاقته المعارك والرجوع إلى ميادين القتال كما شاقه أكثر فراق أمه التى قضت أيامها موصولة الأنين ، قد قرحت الدموع جفניה فكان نشيجها يصل إلى سمعه فيثيره رغم بعد الدار . وهناك ، على ضفاف البوسفور ، كان يكتب القصيدة تلو القصيدة ، وكان من جراء ذلك أن ظفر الشعر العربى من وراء هذا الأسر بمقطوعات عاطفية سامية ، وظفر بقصيدة من أجمل قصائد اللوعة والحنين ، وأريد بها قصيدته « أراك عصي الدمع شيمتك الصبر » فهى من السمو وصدق العاطفة وتصوير منازع الأفئدة والشكوى بمكان عظيم .

ولا نريد أن نسترسل فى الإلماع إلى « روميّاته » فلنكتف بما قدمناه ولتثبت

(١) أشب : محكم ، ملف .

هذه القصيدة التي أرسلها زفرة من الزفرات الحرى حين بلغه أن والدته قصدت سيف الدولة ، من منبج ، تكلمه في المفاداة ، وتتضرع إليه ولكنها لم تلق عنده ما رجت من حسن الإيجاب ، ووافق ذلك عنفاً من الدمستق بأبي فراس ومن معه من الأسرى ، وزيادة في إرهابهم فكتب إلى سيف الدولة هذه القصيدة التي يشيع في كل مقطع من مقاطعها ثورة من الحزن والألم ، قال :

يا حسرة ما أكاد أحملها !	آخرها مزعج وأولها !
عليلة بالشام ، مفردة ،	بات بأيدي العدى معلها ^(١)
تمسك أحشاءها على حرق	تطفئها ، والهموم تشعلها
إذا اطمأنت وأين؟ أو هدت	عنت لها ذكرى تقلقلها !
تسأل عنا الركبان ، جاهدة	بأدمع ما تكاد تمهلها :
« يا من رأى لى بحصن خرخشة	أسد شرى ، فى القيود أرجلها !
يا من رأى لى الدروب شامخة	دون لقاء الحبيب أطولها !
يا من رأى لى القيود موثقة ،	على حبيب الفؤاد أثقلها »
يا أيها الركبان ، هل لكما	فى حمل نجوى ، يخفّ عملها
قولاً لها ، إن وعت كلامكما	وإن ذكرى لها ليذهلها :
« يا أمتا ! هذه منازلنا ،	تركها ، تارة ، ونترها !
« يا أمتا ، هذه مواردنا ،	نعلها ، تارة ، ونهلها
أسلمنا قومنا إلى نوب ،	أيسرها فى القلوب أقتلها
واستبدلوا ، بعدنا رجال وغى	ودون أدنى علای أمثلها »
يا سيداً لا تعدّ مكرمة	إلا ، وفى راحته ، أكملها ^(٢)
ليست تنال القيود من قدمي	وفى اتباعى رضاك ، أحملها
أنت سماء ، ونحن أنجمها !	أنت بلاد ، ونحن أجبلها !
أنت سحب ، ونحن وابله !	أنت يمين ، ونحن أنغلها .

(١) العليلة هى أمه والمعلل أى المعزى والمسل ، والمقصود هو . .

(٢) يا سيداً : يخاطب سيف الدولة .

بأى عذر ، رددت والهة ،
 جاءتك تمتاحُ ردّ واحد لها
 سمحت منى بمهجة كرمت ،
 إن كنت لم تبذل الفداء لها
 تلك المودّات كيف تهملها ؟
 تلك العقود التي عقدت لنا
 أرحامنا ، مذاك ، لم تقطعها ؟
 أين المعالي التي عرفت بها
 يا واسع الدار ، كيف توسعها ،
 يا ناعم الثوب كيف تبدله
 يا راكب الخيل لو بصرت بنا
 رأيت في الضرّ أوجهاً كرمت
 قد أثر الدهر في محاسنها ،
 عليك ، دون الورى معوّها (١)
 ينتظرُ الناس كيف تغفلها !
 أنت ، على بأسها ، مؤملها
 فلم أزل في رضاك ، أبذلها !
 تلك المواعيدُ كيف تغفلها ؟
 كيف ، وقد أحكمت تحللها
 ولم نزل دائماً نوصلها !
 تقولها دائماً وتفعلها ؟
 ونحن في صحرة نزلها ؟
 ثيابنا الصوف ما نبذلها !
 نحمل أقيادنا وننقلها
 فارق فيها الجمال أجملها !
 تعرفها ، تارة ، وتجهلها !

* * *

لا يفتح الناسُ باب مكرمة
 أينبرى ، دونك ، الأنامُ لها
 وأنت ، إن عنّ حادثٌ جلّ ،
 منك تردى بالفضل أفضلها !
 فإنّ سألنا سواك عارفةً
 لم تبق في الأرض أمة عرفت
 نحن أحق الورى برأفته !
 صاحبها المستغاثُ يقفلها
 وأنتَ قمقامُها ومقلها (٢)
 قلبها المرتجى وحوّها (٣)
 منك أفاد النوال أنولها
 فبعد قطع الرجاء ، نسألها
 إلّا وفضل الأمير يشملها
 فأين عنا ، وكيف ، معذلها

(١) معوّها : اتكأها . يعاتب سيف الدولة على ردّ أم الأسير التي لا اتكال لها في الورى .
 إلّا على سيف الدولة .

(٢) القمقام : السيد . المعقل : الملجأ .

(٣) قلبها . . . : رجل قلب حول : بصير بتقليب الأمور : حكيم .

يا منفقَ المال ، لا يريد به إلاّ المعالي التي يؤثّلها
أصبحتَ تشري مكارماً فضلاً فداؤنا ، قد علمت أفضّلها ؟
لا يقبل الله ، قبل فرضك ذا ، نافلةً عنده تنفّلها^(١)

شعره

ونستطيع الآن ، وبعد أن ألمعنا إلماعاً إلى صورتين من تاريخ حياته المليئة بعناصر القوة والشباب ، أن نعرض إلى شعره الذي اصطبغ بألوان عليها مسحة زاهية من العواطف الجياشة ومن الأمانى الزاخرة بمعانى الحياة بعد أن أسر وبعد أن شرّده النوى ؛ وبدهى أن نلمس هذه المسحة الرقيقة العذبة في شعر أبي فراس بعد أن صهرت الآلام نفسه واكتحلت عيناه بمراى بلاد الروم الساحرة وبمراى الروميات بصورة خاصة. نعم ؛ بدهى ذلك لأن الحزن والأسى وألم الوحدة وغصة الاغتراب ، أضف إلى هذا ذكرى الوطن وما كان له فيه من صولة ومجد ومن ذكريات ونخاطر ، كل ذلك مما يصهر « الشاعرية » فى أتون الإبداع والجزالة ، ويجعل الشعر — بحكم هذه العوامل — صورة من صور النفس المتباينة الألوان ، وزفرة من زفرات القلب ، وحرقة من حرقات الأفئدة المكلومة . ولا شك — ولم يكن كسائر الأسرى بل كان موفور الكرامة ، مفضلاً على غيره بكثير من الأمور ، ومحافظاً على سربال الإمامة — لاشك أن جمال الروميات واختلاطه بالقياصرة ، ورؤيته آثار العمران ومطارف النعيم ؛ وما إلى ذلك مما هو أقرب إلى الحضارة منه إلى البداوة — كان من الوسائل التي أنضجت شاعريته الحصبة بمعانى الوحي والإلهام .

ومع تسليمنا بأن هذه الظواهر الحسية كان لها أكبر أثر فى شاعريته ، فلسنا ننكرها عليه قبل أسره — وشعره قبل أسره — هو صورة من صور البداوة القرية من نعيم الحضارة التي انتقلت إلى حلب من دمشق ومن بغداد بصورة خاصة !

(١) النافلة : ما يفعل من الخير فوق الواجب . المعنى : أن الله لا يقبل منك فضائل قبل أن تم الواجب وهو فداء أبي فراس .

وعلى هذا فنستطيع أن نقول إن شعره بدوى قبل الأسر ، حضرى بعده ، وإذا أردنا التوسع قلنا إن على شعره الغرامى مسحة من روح البداوة الصافية ومن رقة الحضارة الزاهية أى أنه كان مزيجاً من لونين : من روعة البداوة ومن رقة الحضارة . وكان فوق ذلك - ذا صور متشابهة لأن ذكريات الوطن ومن فيه من أهل فقد عشرتهم ، وصحب فقد الائتناس بحديثهم ، ثم ما يكتنف الأسر من شقاء وآلام ، كل ذلك مما أثار عوامل الوجد فى فؤاده فبكى بكاءً حزيناً صادقاً ليس كبكاء بعض الشعراء الندائين . ولا أدل على صدق بكائه وحنينه من هذه المقطوعة التى ناجى بها وحدته بعد أن سمع - فى يوم من الأيام - حمامة تنوح على شجرة بالقرب من سجنه ، فأشجاه الصوت وذكر كل شىء يخفق به قلبه وما هى إلا هنيهة حتى أنشد :

أقولُ وقد ناحتُ بقربى حمامةٌ	أيا جارتا لو تشعرين بحالى !
معاذ الهوى ما ذقت طارقةَ النوى	ولا خطرتُ منك الهموم ببال
أيا جارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننا	تعالى أقاسمك الهموم تعالى
تعالى ترى روحاً لدى ضعيفة	تردد فى جسم يعذب بالى
أحملُ محزونَ الفؤاد قوادمُ	على غصنٍ نائى المسافة على ؟
أضحك مأسورٌ وتبكى طليقة	ويسكت محزونٌ ويندب سالى ؟
لقد كنتُ أولى منك بالدمع مقلةً	ولكن دمعى فى الحوادث غالى

بمثل هذه الدموع السخينة كان يبكى أبو فراس : وهى دموع حرى ترينا صدق العاطفة التى تختلج فى صدر هذا الشاعر الأمير الشاب الذى كان يحرك فؤاده تجاوب الرياح وابتسام البدر ونوح الحمام وسكون الليل وكل عامل من تلك العوامل الطبيعية التى تفيض على الحياة .

ولقد لاحظنا أن قصائده إلى أمه كانت غيرها إلى سيف الدولة .

كان يستعطف سيف الدولة استعطافاً ويذكره بحقوق الرحم وبما بينهما من العهود ، ولكن قصائده إلى أمه كانت تفيض بما بنفسه من الآلام ؛ وما فى أعماق

قلبه من الحرقه والجراحات . كان يذكر لها وحدته وغدر الدهر به وجفوة الصبح
والخلان ؛ وميلهم مع النعماء حيث تميل ، يذكر لها هذا ولا يلبث أن يرشق
الدهر بسهامه ويراه من أكبر الأعداء وغير ذلك مما تشعر به النفس في مثل هذا
الموقف .

كتب إلى أمه يوماً — وقد ثقل من الجراح التي نالته ويش من نفسه — يعزّيها
ويخفف من لوعتها بقوله :

مصابي جليلٌ ، والعزاء جليلٌ	وظني بأن الله سوف يزيلُ
جراح تحامها الأساءة مخافةٌ	وسقمان : بادٍ منهما ودخيلُ
وأسر أقاسيه ، وليلٌ نجومه	أرى كلَّ شيءٍ غيرهنَّ يزولُ
تطولُ بي الساعات وهي قصيرةٌ	وفي كلِّ دهرٍ لا يسرك طولُ
تناساني الأصحابُ إلا عصية	ستلحق بالآخرى غداً وتحولُ

ومنها

أقلب طرفي لا أرى غير صاحب	يميلُ مع النعماء حيث تميلُ
أكلُ خليلٍ أنكدٍ غير منصفٍ	وكلَّ زمانٍ بالكرام بخيلُ ؟
نعم ، دعت الدنيا إلى الغدر دعوةً	أجاب إليها عالمٌ وجهولُ
فيا حسرتي من لي بخُلٍّ موافق	أقولُ بشجوى تارةً ويقولُ

ثم يناجي نفسه مخاطباً أمه بقوله :

وإن وراء السرِّ أمّا بكاؤها	على ، وإن طال الزمانُ ، طويلُ
تأسّي كفاك الله — ما تحذرينه	فقد غال هذا الدهر بعدك غولُ

وقصائده إلى أمه العجوز ، قعيدة منبج ، كثيرة اجترأنا منها بالقدر الذي
قدمناه ، ويحدثنا « بروكلمن » أن العالم الألماني « آلفرات » ترجم إحدى هذه
القصائد إلى الألمانية وقد أثبتا في الصحيفة ٤٤ من كتابه « عن الشعر العربي » ..

ولننظر نظرة عجلى إلى قصائده التى أرسلها إلى سيف الدولة وإلى أصحابه ،
فهى وإن كانت لا تعطينا صورة من تلك النفسية المتأللة الصادقة التى نراها فى
قصائده إلى أمه إلا أننا نلمس إلى جانب آلامه البادية صورة ند يخاطب ندًا ؛
ونراه يذكر نفسه مقرونة إلى أعماله وجهاده الخالد ؛ ونراه يهمس فى أذن سيف
الدولة همسات فيها من التقريع والتأنيب ما لا حد له ؛ يذكره بذلك وبمواقفه
العصية التى كان يلتقى فيها كل ألف رومى بسبعين فارساً من كماء العرب ؛ ثم
نلمس نزوات الألم واللوعة تدفعه إلى مخاطبة ابن عمه بقصيدة طويلة نأخذ منها
هذه الأبيات :

فلا كان كلبُ الرومِ أرأفَ منكمُ	وأرغب فى كسب الثناء المخلد
ولا بلغ الأعداء أن يتناهضوا	وتقعد عن هذا العلاء المشيد
أأضحوا على أسراهم لى عوداً	وأنتم على أسراكم غير عود
التي تخلف الأيام مثلى لكم فتى	طويل نجاد السيف رحب المقلد
متى تخلف الأيام مثلى لكم فتى	شديداً على البأساء غير ملهد ^(١)
فإن تفتدونى تفتلوا لعلاكمُ	فتى غير مردود اللسان ولا اليد
يطاعن عن أحسابكم بلسانه	ويضرب عنكم بالحسام المهند

وقد أرسل هذه القصيدة على أثر رجوع الروم إليه وهو فى الأسر
لفك أسراهم على حين تقاعس سيف الدولة بل لم تطاوعه عزة نفسه وإياؤه أن
يرجع إليهم بهذا الأمر !

ويظهر أن الوشاة لعبوا دورهم طيلة غيابه — شأنهم فى كل زمن — فكانوا
يوترون سيف الدولة على أبى فراس الذى وقف شبابه وما يملك من قوة وجهد على
تدعيم ملكه ؛ وتظهرنا قصائده من الأسر أن لسان سيف الدولة قد زلق غير مرة
بكلمات وصلت إلى مسامع ابن عمه من خلص أصدقائه فكتب إليه قصيدة
طويلة لا تقل فى الوخزات عن سابقها ؛ نجتري منها الأبيات الآتية :

(١) غير ملهد لا ذليل ولا ضعيف .

وهبتُ شبّاني ، والشبابُ مضنّةٌ
أبيتُ مُعَنّي من مخافة عتبه
لأبلجَ من أبناء عمّي أروعا
وأصبح محزوناً وأمسي مروعا

ومنها :

تطلبتُ بين الهجر والعتب فرجةً
وصرت إذا ما رمتُ في الخير لذّةً
أما ليلةٌ تمضي ولا بعض ليلة
أما صاحبٌ فردٌ يدوم وفاؤه
أفي كلّ دار لي صديق أوده
إذا خفتُ من أخوالي الروم خطّة
وإن أوجعتني من أعاديّ شيمةً
تنكر سيف الدين ... لما عتبه
فقولا له : من أصدق الود أنسي

وحاولتُ أمراً لا يرام ممّنعاً
تبعتهما بين الهموم تتبعاً
أسرّ بها هذا الفؤاد الموجعاً
فيصفي لمن أصفى ويرعى لمن رعى
إذا ما تفرّقنا حفظتُ وضيعاً
تخوّفت من أعمام العرب أربعا
لقيتُ من الأحباب أهي وأوجعا
وعرضَ بي تحت الكلام وقرّعا
جعلتكُ مما رابني الدهر مفرعا

ومنها :

ولا تقبلنّ القول من كلّ قائلٍ
سأرضيك مرأى لست أرضيك مسمعا

وكتب إلى القاضي أبي حصين بن عبد الملك - وكانت بينهما مودة أكيدة -
- قصيدة طويلة جاء منها قوله :

هل أنت مبلغه عني بأنّ له
وأني منّ صفت منه سرائره
وداً تمكن في قلبي يجايره
وصحّ باطنه منه وظاهره
وما أخوك الذي يدنو به نسب
لكن أخوك الذي تصفو ضمائره

ومثل هذه النبرات كثيرة ، لو شئنا أن نسترسل في عرضها لضاق بنا المجال
وللأنا عدة صفحات .

مصرعه ووفاته

رجع أبو فراس من الأسر وهو أوفر نشاطاً وأقوى عزيمته ، وأكثر آمالاً ، وأثبت جناناً منه قبل أسره ، رجع ونفسه جياشة بمطامع المجد ، ولكن رزاقته كانت تمسك به عن الاندفاع في مجاهر الخطر ، كان يترقب الفرص وما زال حتى توفي ابن عمه سيف الدولة في عام ٣٥٦ هـ أى بعد رجوعه من الأسر بعام واحد ، فنهض بعد مماته نهضة مليئة بعزيمة الشباب يريد التغلب على حمص وإدخالها تحت حوزته ، وحمص وقتئذ في يد أبي المعالي بن سيف الدولة ، وما كادت تبدو منه هذه الرغبة التي يتجلى فيها الانتقام لنفسه من نكد الأيام ولأبيه سعيد من ابن عمه ناصر الدولة ، هذه الرغبة التي دفعت به إلى حيث برىق الملك وصولجان الإمارة — حتى أحسها أبو المعالي فأنفذ إليه من أتباعه من قاتله وما زال حتى تغلب عليه وقتله . وقد اختلفت الروايات في قتله ، فمنها أن أبا المعالي أرسل غلام أبيه « قرعويه » فقتله وضربه ضربات أئمة حتى مات في الطريق ، ومنها أن أبا فراس قتل في قرية تعرف « بصدد » وفي تاريخ ثابت بن سنان الصابئ أن حرباً جرت بين أبي فراس وكان مقبلاً في حمص وبين أبي المعالي الذي استظهر عليه فقتله في الحرب وأخذ رأسه وبقيت جثته مطروحة في البرية إلى أن جاءه بعض الأعراب فكفنه ودفنه . وفي رواية غير التي قدمناها أن « قرعويه » لما قتل أبا فراس لم يعلم به أبو المعالي وأنه لما بلغه الخبر شق عليه . وفي ديوانه الذي اعتمدنا عليه في كثير من الحوادث أن أبا فراس ضرب في هذه الحادثة ضربات فمات في الطريق وأنه أنشد قبل موته الأبيات الآتية :

إذا لم يُعِينِكَ الله فيما تريدُ فليسَ لمخلوقٍ إليه سبيلُ
وإن هولم ينصرَكَ لم تلقِ ناصراً وإن عزَّ أنصارُ وجلَّ قبيلُ
وإن هولم يرشدَكَ في كل مسلك ضللت ولو أن السماك دليلُ

وأنشد أيضاً :

أراني وقوى فرقتنا مذاهب وإن جمعتنا في الأصول المناسبُ

وأعظمُ أعداء الرجال ثقاتها وأهون من عاديتَه من تحاربُ

والقصيدة لا تزيد على سبعة أبيات ، وهي آخر ما قاله من الشعر في رواية أبي عبد الله الحسين بن محمد بن خالويه .

ونضيف إلى ما قدمنا رواية لا نذكر أين عثرنا عليها وهي أنه قد أثقل — بعد المعركة — بالجراح وما زال يشكو حتى حضرته الوفاة في عام ٣٥٧ هـ وأنه كان يخاطب ابنته بهذه الأبيات :

أبنيَّتِي لا تجزعي كل الأنام إلى ذهابٍ
نوحى على بحسرة من خلف سترك والحجاب
قولى إذا كلمتني فعييتُ عن ردِّ الجواب :
زين الشباب أبو فرا س لم يمتنع بالشباب

وإذا كان الشعر هو أصدق خالجة من خوالج النفس فتكون هذه الرواية هي أقرب إلى الحقيقة من كل ما قدمناه . أى أنه رجع إلى بيته بعد صراع طويل قام بينه وبين قرعويه .

وقد وقع نعيه كالصاعقة على صحبه وذويه وعلى أمه العجوز « سخينة » فارتمت مذهولة تبكى شبابه الغض بدموع حرى وبقلب دام ونفس ملتاعة ، وما زالت في ثورة من الدهول وفي بحر من الدموع تلطم خدها وتنوح نوح الحنساء على صخر حتى امتدت يدها بدون وعيها — كما رووا — إلى عينيها فقلعت !

وهكذا ، قضى أبو فراس وهو لدن العود ، غض الإهاب ، لم يمتنع بشبابه الداوى فكان مصرعه شاقاً على صحبه وخلانه ، ولم يترك من تراث المجد غير ذكرى البطولة الخالدة التي تزين مفرقه ، وديوان شعر يضم قصائده التي ينشدها محبو الأدب بلذة وإعجاب ، هذه القصائد المختلفة في الفخر والغزل والاستعطاف وغير ذلك مما جادت به قريحته الوقادة وقلبه الزاخر بحب المجد والحياة .

... لا أقرأ قطعة من شعر أبي فراس إلا ويتمثل أمامي شاب من فرسان العرب الأشداء فيه كل صفات الرجولة والفروسية : شعر فاحم قد انسدلت ضفائره على كتفيه ، ووجه مستدير يفيض بدم الشباب ، وعينان سوداوان يشع منهما النور وينبعث عنهما الذكاء . يتمثل لي في هذه الصورة الحلوة العذبة وقد تمنطق خنجراً من خناجر الروم وامتطى جواداً من كرام الأصائل ، وييده رمع يعلو به على الأرض في سيره وخبیه . نعم ، أتمثله بهذه الصورة الجذابة وقد طبعته الصحراء بشمسها اللاذعة ورمالها الغبراء وفتحت أمام ناظريه مناحي المجد والمغامرة فشغف بها وامتلاً قلبه بحب المفاخر وكأنما فطمت نفسه على المكرمات فكانت حياته رخيصة بين كفيه يلاعبها كما يلاعب الطفل كرتة في سبيل عبثه ولهوه .

ألمح هذا من سجوف القرون السحيقة ولا إخالني إلا صادق النظرة فيما ألمح ، فحياة أبي فراس مليئة بصفحات الفروسية والمغامرة وهو بهما جدّ فخور . ولعل أحب شيء إلى نفسه وإلى سمعك حين يغنيك نغمة من تلك النغمات التي توحىها إليه معركة من المعارك الدامية — هذه المعارك التي سجل فيها أكثر هذه الوقائع والتي كانت الحرب فيها سجلاً بين العرب والروم في هذه الديار وفي نواحيها الشمالية . وهو فياض الشعور حين يصف لك أسره بشعر رقيق يستترل الدموع الحرى من مآقيلك ويهزمك شعاب القلب لوعة وأسى . وهو عذب إليك ، محبب إلى نفسك حين يرسم لك إباءه في الحب وحين يخاطب نفسه وقلبه وعفته بقوله :

ويا قلب ما جرّت عليك النواظرُ	فيا نفس ما لا قيت من لاجع الهوى
هممتُ بأمر همّ لي منك زاجرُ	ويا عفتي ما لي وما لك كلما
لدى ، وربّات الحجال ضرائرُ	كانّ الحجي والصون والعقل والتقى
حبائبُ عندي منذ كنّ أثائرُ	وهنّ وإن جانبتُ ما يبتغيه
وما هدأت عينٌ ولا نام ساهرُ	وكم ليلة خضت الأسنة نحوها
لقد كرمتُ نجوى وعفت ضوائرُ	فلما خلونا — يعلم الله وحده —
وثوبى مما يرجم الناس ظافرُ	وبت يظنّ الناس في ظنونهم

بمثل هذا الشعر الجزل الممزوج بركة المعنى وبفخامة اللفظ يرسم خفقان قلبه
ويصور لوحات حبه . وكم له من وقفات صادقة في تصوير هذا الحب .
وعلى ضوء هذه الصورة التي رسمناها نريد أن نرسم صورة من لوه وعبثه ،
لقد كان أبو فراس يلهو ويعبث . ولكن أى لوه هذا ؟ لقد كانت أجمل ساعات
لوه هي التي يقضيها في الصيد، ونحسب أن هذه الصورة التي سنعرض إليها والتي
تتناول وصف صيده مع صفوة من إخوانه هي من الصور القليلة الجميلة التي
تراها في الشعر العربي . .

* * *

الوقت صحو، والسماء مزدانة بالنجوم، والنسيم يهب فيوقظ الأرواح، وأبو فراس
في قصره مع نفر من صحبه وخلاته يتسامرون ويقصّون أعذب القصص وأروع
الأحاديث ؛ وكل أصدقائه في فجر الشباب ، ولكل واحد قصة من أقاصيص
المجد والحب والمكرمات ، هذا يقص لك وقائع الماضي وعبر الأيام ، وذلك يروي
تنافس القبائل وتطاحن المريع في غاراتها الشعواء ، وآخر يهزأ بهذا التنافس الذي
يقوم على عصيات مجزأة ويود لو تتحقق أحلامه بزوال هذا وبوحدة الجزيرة
العربية والثغور الإسلامية لتكون حصناً يرد عاديات الأيام ، ويعلو غيره في
تفكيره الفلسفي فيود لو زالت الفوارق المذهبية بين الأمم وأصبح العالم في « وحدة
إنسانية مستقلة » فلا تكون أحلامه إلا مبعث ضحك الحاضرين وهزئهم القوي ،
ويضيق آخر بهذه الأحاديث لأن لقلبه قصة يريد أن يبثها لإخوانه الخلتص ليحملوا
عنه بعض ما يضني فؤاده ويستتزل دموعه الحري ، وأبو فراس ينصت إلى الجميع ،
وما هي إلا لمحة حتى يفيض قلبه بأحاديث المجد والمكرمات ؛ وما يكاد صوته
العذب يرن في جوانب القصر حتى ينفذ إلى جوانب القلوب ، يروي لهم مغامراته
ويهزأ بمنافسيه . ومن هم منافسوه ؟

« إلى الله أشكو عصبية من عشيرتي يسيئونني في القول غيباً ومشهداً

... هذا جواب لا سبيل إلى الإفاضة به في هذه الناحية من حياته

وما يكادون يفرغون من أحاديث المجد والحب والشباب حتى يطيب لأبي فراس - وهم في هدنة مع الروم - أن يخرج إلى الصيد مع أصحابه . وكيف يخرجون ؟ هل يكتفى كل واحد بنبلة وكلب ؟ لا . . . إنه ينوى رحلة طويلة مضية ، ولا بد من إعداد كل ما يلزم لهذه الرحلة الطويلة من العدد . إنه لا يكتفى بأن تحمل النبال والغدارات وأن تطلق « السلوقيات » وأن تعلى ظهور الجياد المطهمة ! لا ، إنه لا يكاد ينتبه من نومه عند السحر حتى يصرخ بالخدم أن يختاروا له الخيول المطهمة التي لا يشق لها غبار ، وأن يخصص بعضها لصيد الأرناب وبعضها لصيد الغزلان ، وهويوصي أن ترسل كلاب الصيد على نوبتين : أى أن يكون لإرسالها اثنين ثم يختار خمسة أفهد^(١) وقسما غير قليل من الصقور ذات المخالب الحادة التي تنقض من حلق السماء على الطيور الصغيرة فتوقعها بمناسرها . ولا تكاد تهبأ هذه المعدات حتى يصبح بأصيحابه هيا استعدوا إلى الطراد ولينفض كل واحد منكم آثاره ووصبه وينشدهم :

ما العمرُ ما طالتْ به الدهور العمرُ ما تمَّ به السرورُ
أيام عزى ونفادُ أمرى هى التى أحسبها من عمرى

ولا يكادون يمتطون ظهور خيلهم فى يوم جميل رقّ هواؤه حتى يولوا وجوههم نحو « عين باصر » وهو مكان يبعد عن « منبج » مسيرة يوم ويكثر فيه الصيد :
ثم قصدنا صيدَ « عين باصر » مظنة الصيد لكلّ خاسر
جثناه والشمسُ قبيلَ المغربِ نختال فى ثوب الأصيل المذهبِ

إنهم الآن يستعدون للطرد والصيد ، فى ناحية قريبة منهم يسمعون صباح الدراج^(٢) إنه يغنى لحن حبه ويشلو أعذب النغمات ، إنه ينعم بحريته وبفضائه

(١) الفهد : سبع يصاد به . وهو من هذا النوع المعروف بضيق الخلق وشدة الغضب . له وثبات قوية بعد النوم .

(٢) الدراج : طائر جميل المنظر . ملون الريش وهو يطلق على الذكر والأنثى . والدرجة : طائر باطن جناحيه أسود وظاهرهما على شكل القطا إلا أنه ألطف .

الواسع بدون أن يعلم أن سهام الأجل ترقبه ، وهنا يرق أبو فراس ويصف زقزقة الدراج بقوله :

وأخذ الدراج في الصباحِ مكتنفاً من سائر النواحي
في غفلة عنا وفي ضلالِ ونحنُ قد زرناه بالآجالِ
يطربُ للصبح وليس يسرى أن المنايا في طلوع الفجرِ

ولكنه لا يريد أن يعرف عنه هذا الحثو فهو يمضي في سيره ويبعث أحد أتباعه ليرقب ظيماً في فجوة من الفجوات، وما يكاد الغلام يلمحه عن بعد حتى يصبح بسيدته الذي يتساءل إن كان العيان قد صدق :

سرت إليه فأراني جائمة حسبها يقظى وكانت نائمـه
ثم أخذتُ نبلةً كانت معي ودرتُ دورين ولم أوسـم
حتى تمكنتُ فلم أخطِ الطلبُ لكل حثف سببٌ من السببِ

وهنا تضحج الكلاب في مقاودها وتطلب هذه الصيدبة بعد جهد جهيد، ثم يحب أبو فراس أن يداعب من معه فيفاخر بيازيه^(١) ويعرض بيازى غيره ويعرض لهم البراز فيقدم إليه أغيد^(٢) وسم الطلعة، صبيح الوجه، فيعرض به ويود لو فكر فيم يقدم عليه . ثم يقول له هيا قابلي وراء النهر ، أنت لشطر وأنا لشطر . وهنا تطير دراجة ويرسل الأغيد بازه وتعلو العطعطة والضجيج . ولكن علام ذلك ؟ . لا شيء إلا لأن من آلة الصيد الصباح ! ... ثم تطير « سلوى »^(٢) أمام أبي فراس فتحل بها « قبل العلو البلوى » ! وجميل من أبي فراس حين يفاخر بيازيه ويعرض بيازى الأغيد :

صحت : أهذا الباز أم دجاجه ؟ ليت جناحيه على دراجه !

وهنا تحمر الأوجه ويبدو من « الأغيد » اعتذار كله ضعف ودلال

(١) الباز : الصفر .

(٢) السلوى : طائر أبيض مثل المهاقي واحده « سلواة » .

وبعض الترق فينسب إخفاقه إلى المكان الذي هم فيه ويود لو رجعوا إلى « منبج »
فيخاطب أبا فراس :

اعدل بنا للمنبج الخفيف والموضع المنفرد المكشوف

فيظهر أبو فراس التبرم بهذه الرفقة وبهذا الاعتذار :

نحن جميعاً في مكان واحد فلا تعلل بالكلام البارد

ثم يطلب إليه أن يقص جناحي الباز وأن لا يستصحبه إلى الصيد وأن
يفلته في الدار مع الدباشي ^(١) ومع القماري . يقول له هذا فيخجل ويحقق جناحه
لهذا الفشل وتصطبغ وجنتاه بحمرة الورد . ولكن أبا فراس يريد أن ينقذ الأغيد
من هذا الموقف فما هو السبيل ؟ . . انظر إليه كيف ينقذه ليوقعه في ورطة
أخرى ! . . ويظهر أن ولعه لم يقف عند صيد الطيور بل تعداه إلى صيد
« الغيد » ! ها هو ذا يهبه بازياً ليكون عدته في مثل هذه المواقف ولكيلا يقع في
ورطة ما . ولكن ما ثمن هذه الهبة ؟ تمهل قليلاً فسأجيبك بعد أن أريك كيف
يصف أبو فراس هذا البازي الذي سيبه للأغيد ، إنه وصف دقيق لم يسبقه شاعر
عربي إليه :

جثت بباز حسن وهرج	دون العقاب وفوق الروج ^(٢)
زين لرائيه وفوق الزين	ينظر من نارين في غارين
كان فوق صدره والهادي	آثار متن الدار في الرواد
ذي منسرفحم وعين غائره	وأفخذ مثل الجبال وأفره
خضم قريب الدستان جداً	يلقى الذي يحمل منه كداً

قل لي أي قارئ الكريم لو كنت ولعاً بالصيد ووقعت في ورطة كهذه التي
عرضنا إليها وقدم لك هذا البازي ليكون عدتك في الصيد ولينقذك من ورطات

(١) الدباشي : الدبشي . طائر أدكش يقرر .

(٢) التراجيح : جنس من الطيور تصاد به الجوارح كالصقور ونحوها .

الحجل إزاء أمير عربي كريم فكم تدفع ثمنه ؟ أديناراً . . . عشرة ! أمانة !
 لا . إن أبا فراس يريد أن يهب هذا البازي إلى « أغيده » . . . بقبلة فقط !
 قلتُ فخذهُ هبةً بقبلة فصدّ عني فعدته خجله
 فلم أزل أمسحه حتى انبسط وهشّ للصيد قابلاً ونشط
 وأحب منك أيها القارئ أن تتمعن بشطر البيت الثاني — فلم أزل أمسحه
 حتى انبسط — . . . ففيه كل المعاني التي تفسر لك هذه المغامرة التي أقدم عليها
 أبو فراس ! . . .

* * *

. . . ويستأنفون الصيد مرة ثانية ، في جهة غير الجهة التي أخفق فيها الأغيد
 في « نهر الوادي » حيث الطيور كثيرة بعدد الجراد . . . ويحدثنا هنا كيف أطلق
 شاهينين ^(١) وكيف رميا أربعة طيور : « ثلاثة خضراً وواحداً أبقعاً » ^(٢) وكيف
 ذبحوا هذه الطيور ليأكلوها هنيئاً ويشربوا عليها مريئاً ، ثم يحدثنا كيف أطلقوا
 شاهينين مرة أخرى فرموا أربعة طيور كالمرّة الأولى إلا أنها أكبر منها بعض الشيء .
 يحدثنا عن هذا بشعر سهل رقيق يسيل عنوبة ويفيض بالجزالة ودقة الوصف
 البديع . ثم ينتقل بنا إلى صيد الكراكي ^(٣) الجاثمة بقرب النهر وكيف صاد منها
 عشرة أو أكثر من عشرة فيحدثنا أيضاً كيف أطلق بازيه في هذا الصيد وكيف
 صاح بالطباخ لينزل النهر ويأتيه بما تساقط على ضفتيه . ويأتي الطباخ حاملاً
 الكراكي والحجل والدراج ، ويود هنا لو نزل قليلاً ليسترّيح ولكنه بعد تفكير قليل
 رأى أنه لم يرو أوار ظمئه من الصيد وأن صيد الطيور أقل مما يشبع عبثه وطموه ،
 وأنه لا بد من أن يتحوّل من ضفاف الأنهر ومن قلب الحدائق إلى الصحراء ،
 فيصبح بصحبه أن هيا نلتمس الوحوش والظباء في الصحراء . وما تكاد صيحته

(١) الشاهين : طائر من جنس الصقر .

(٢) طير أبقع : مختلف اللون .

(٣) الكراكي : طائر يقرب من الوز ، أبتز الذئب رمادي اللون وفي خده لمعات سود ،
 قليل اللحم ، صلب العظم ، يأوى الماء أحياناً . جمعه : كراكي .

تلمس أعماق القلوب حتى أطلقوا العنان لحيولهم تنهب الأرض نهياً . وما هي إلا برهة حتى طوّوا القياقي والقفار إلى جزع واد قد سقى أرضه الوسمي فاخضلت وازدهرت بشتى الحشائش والنبات ، واد موحش لم تطرقه رجل الإنسان فهو مرعى خصب للغزلان الشاردة التي كانت ترعى فيه مذعورات ! . وهنا يصف لنا كيف أطلق الصقور والفهود وكيف أن أحد فهوده قد جدل « الكبير الأقربا » وكيف شد على مبطنه ، وكيف أن فهداً آخر قد جدل « عتراً حائلاً » قد رعى حمى الغورين مدة حول كامل ! يحدثنا عن هذا فيرينا كيف رمى الباقي بالصقور . ولا تقرأ وصف هذه المعركة إلا وتحس كأنما تشاهد معركة دامية . ويقف عند هذا الحد موفور الغضب فيريد أن ينهى من رحلته الطويلة التي دامت سبع ليال كاملة وكيف ينهيها قبل أن يصعد الجبال الوعرة الشاهقة ليرى ما في أوكارها ومخابئها من صيد لذيذ ، وقد يكون من الطريف أن ننصت له لنريك كيف ينهى هذه الرحلة اللذيذة التي لم نقرأها مرة إلا وددنا لو تأخر بنا الزمن ألف سنة فقط لنشهد بعض سمره وبعض هذه الرحلات الممتعة ! . .

ثم عدلنا عدلةً إلى الجبل	إلى الأراوى ^(١) والكباش والحجل
فلم نزل بالخيّل والكلاب	نحوزها حوزاً إلى الغياب
ثم انصرفنا والبغال موقرة	في ليلةٍ مثل الصباح مسفرة
حتى أتينا رحلنا بليل	وقد سبقنا بجياد الخيل
ثم نزلنا وطرحنا الصيّد	حتى عددنا مئةً وزيداً
فلم نزل نلقى ونشوى ونصب	حتى طلبتُ صاحباً فام أصب
شرباً كما عن من الزقاق	بغير ترتيبٍ وغير ساق
فلم نزل سبع ليال عدداً	أسعد من راح وأحظى من غداً

وهنا تم الرحلة .

* * *

(١) الأراوى : الوعر .

وأحسب أن لا حاجة إلى أن نزيد شيئاً على هذه الأرجوزة الخالدة التي جادت بها قريحة أبي فراس في سويعات هلوته ومرحه . والتي عرضنا بعض مقطوعاتها ، فهي من فرائد الأراجيز البليغة التي تصف رحلة صيد بهذه الروعة ، والتي يستطيع القارئ أن يلمس فيها « الوحدة » التي نتطلبها في الشعر العربي فلا نجد لها إلا لماماً . وقد يكون سبب ذلك أنها خرجت من قيد « القصيدة » ذات البحر الواحد والقوافي الواحدة إلى الأرجوزة التي لا تخضع لهذه القيود .

الفارابي

ممن ضمهم بلاط سيف الدولة ، إلى ما ضمه من العلماء والأدباء والشعراء والفنانين - الحكيم أبو النصر الفارابي الذي يتفق المؤرخون على اعتباره من أكابر فلاسفة المسلمين ^(١) وفيلسوف الإسلام غير مدافع ^(٢) أو على رأى المستشرق ديتريسي الذي يقول إن الفارابي مؤسس الفلسفة العربية ^(٣) .

ولد سنة مائتين وتسعة وخمسين (٢٥٩ هـ) ^(٤) في وسيج ^(٥) ونسب إلى ولاية فاراب ^(٦) الواقعة وراء نهر سيحون على تخوم بلاد الترك ، ولا يعرف شيء عن طفولته وشبابه ، إنما يقول المؤرخون إنه خرج من بلده وانتقلت به الأسفار حتى وصل إلى بغداد . وكان يتكلم التركية والفارسية ، وفي رواية ، كان يتكلم عدة لغات أخرى عدا العربية التي تعلمها في بغداد ، وتعلم على المعلم المسيحي يوحنا بن حيلان . فأخذ عنه المنطق والرياضيات . . وكان زميله في الدراسة متى بن يونس النصراني المشهور بترجمته للكتب اليونانية . . وفي رواية أن الفارابي تتلمذ عليه أيضاً ^(٧) . . وقد تفتحت مواهب الفارابي وهو شاب فتعلق بالعلوم الفلسفية وامترج امتزاجاً

(١) ابن خلكان يقول إنه أكبر فلاسفة المسلمين ، ولم يكن بينهم من بلغ رتبته في فنونه ، والرئيس ابن سينا ، بكتبه تخرج وبكلامه انتفع في تصانيفه .

(٢) القفطي ص ١٨٢ .

(٣) المستشرق الألماني ديتريسي في مقدمته لرسائل الفارابي (طبع ليون ١٨٩٠ م ص ٣) .

(٤) يقول الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق في بحث نشره عن الفارابي في مجلة المجمع العلمي العربي المجلد ١٢ ص ٣٨٥ عن مولده أيضاً : ولنا نعرف مولد الفارابي إلا بالتقريب استنتاجاً مما ذكره المؤرخون في وفاته فقد ذكر ابن خلكان أنه توفي سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ - ٩٥١) وقد ناهز ثمانين سنة ويكون إذاً مولده حول سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ - ٨٧٣ م) .

(٥) ويقول ابن حوقل إن على الشاطي الغربي من سرداريا كانت توجد مدينة « وسيج » التي ولد بها الفيلسوف أبو النصر الفارابي والمستشرقون يستمدون هذا القول . راجع بحث الأستاذ عبد الرازق في المصدر المتقدم ذكره .

(٦) معجم البلدان ج ٦ ص ٣٢٣ .

(٧) الشيخ مصطفى عبد الرازق مجلة المجمع العلمي العربي المجلد ١٢ ج ٨٥٧ ص ٣٨٧ .

كلياً بفلاسفة اليونانيين ، بأرسطو وأفلاطون ، وما زال في معالجته المواضيع الفلسفية حتى اعتبر إماماً في مباحث ما بعد الطبيعة أو إمام أصحاب المنطق الذين يسلكون في أبحاثهم منهجاً أكثر دقة وصرامة من مناهج المتكلمين ^(١) .

كتب عدة رسائل فلسفية قيمة ، وقد بلغت من العظم حداً جعل المستشرق الألماني شتينشيدر يخصص لها مجلداً ضخماً ^(٢) ومع أن أكثر هذه المصنفات الثمينة قد ضاع فقد بقي منها إلى يومنا هذا أربعون رسالة : إحدى وثلاثون بالعربية وست بالعبرية واثنان باللاتينية ^(٣) وقد اشتملت رسائله مختلف المباحث الفكرية و « كتابه إحصاء العلوم » يدلنا على مدى ثقافته الواسعة وإحاطته العجيبة في مختلف علوم ومعارف جيله ، ومن أشهر كتبه « الجمع بين رأيي الحكيمين : « أفلاطون وأرسطو » و « المدينة الفاضلة » و « إحصاء العلوم » و « شرح كتاب أرسطو في علم الأخلاق » و « شرح مقالة النفس للإسكندر الأفروديسي » و « العقل والمعقول » و « الواحد والواحدة » و « الجوهر والزمان » و « الحلاء والمكان » و « فصوص الحكم » و « صناعة علم الموسيقى » . . . ويعتبر كتابه « المدينة الفاضلة » من أنفس ما كتبه عالم فيلسوف ، فهو تصوير دقيق لآرائه الفلسفية في الله والكون ، في النفس والحياة ، في العالم السماوي والفردوس الأرضي ، وبعبارة أدق « هو مجموع فلسفي مختصر ، يجد فيه المطالع كل ما يحتاج إليه من نظريات الفيض والنفس والإرادة والاختيار والسعادة والوحي » ^(٤) .

ولا يتسع المجال لتلخيص هذا الكتاب « الذي يشرح لنا فيه تصوره للنظام الذي ينبغي أن تقوم عليه « المدينة الفاضلة » التي يكون الحكم فيها للفلاسفة كما هو الشأن في « جمهورية أفلاطون » ^(٥) » والذي تراءت له « السعادة ممكنة على

(١) ت . ج . دي بور الأستاذ بجامعة أمستردام في كتابة « تاريخ الفلسفة في الإسلام » نقله إلى العربية الأستاذ محمد أبو ريذة ص ١٢٨ .

(٢) إحصاء العلوم لناشره عثمان محمد أمين ص ٢٠ .

(٣) تاريخ الأدب العربي تأليف المستشرق الألماني الكبير بروكلمان ج ١ ص ١١٠ - ٢١٣

(٤) من أفلاطون إلى ابن سينا للدكتور جميل صليبا ص ٤١ .

(٥) كارا دي نو في دائرة المعارف الإسلامية - مادة الفارابي .

وجه الأرض ، إذا تعاون أفراد المجتمع على نيلها بأعمالهم الفاضلة ^(١) ، ولا لتلخيص مذهبه الفلسفي المنبث في جميع تصانيفه وهو مذهب الأفلاطونية الحديثة مطبوعاً بالطابع الإسلامي — ذلك المذهب الذي بدأ بترتيبه فيلسوف العرب الكندي والذي أكمله الرئيس ابن سينا ^(٢) — نعم ، لا يتسع المجال لكل ذلك فلندخل من هذا الإلماع السريع عن حياته الفلسفية إلى مناسباته مع سيف الدولة .

* * *

ترك الفارابي بغداد إلى حلب حين شاهد تقلص ملك العباسيين وازدهار دولة الحمدانيين ، وقد لا نعلم بالضبط ، ما هي الخوافز التي حفزت الفارابي لهجرة بغداد . . . أهى اضطراب الحالة السياسية فيها كما ذهب إليه بعض الذين عرضوا لتاريخ حياته ؟ أم هي نزعة التجوال في بلاد الله ؟ أم درس طباع البشر في مختلف المدن ليزداد خبرة في شرح مبادئه الفلسفية التي دوتها في كتابه « المدينة الفاضلة » ولا سيما أن كتابه هذا قد بدأ بتأليفه في بغداد ، وكتب قسماً منه في دمشق ، وأتمه في مصر ؟ وبدون أن نفترض افتراضات مجردة نتساءل : أترأه كان يبحث عن المدينة الملائمة ليطبق عليها آراءه الفلسفية فاختار مدينة حلب ؟ لا أميل إلى هذا الافتراض ، ولكن حوادث التاريخ تنبئنا ، أن ازدهار الحركة العقلية في عاصمة الحمدانيين ، أيام سيف الدولة ، كانت من العوامل التي حفزته ليحط رحاله في ربوعها ، وينعم بطيب هوائها . وجمال أرضها وربوعها . دخل الفارابي مدينة حلب ، في أطمار الفلاسفة الزاهدين ، لا يعتر إلا بما

(١) الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٨٧ مصر ١٣٢٣ هـ ويقول الدكتور جميل صليبا في كتابه من أفلاطون إلى ابن سينا ص ٤٥ ، إن كل مدينة يمكن أن تنال بها السعادة ، ولكن أكل اجتماع إنساني ، كما يرى الفارابي ، هو الاجتماع الذي يشمل جميع أمم الأرض ، وأحسن دولة . تنال بها السعادة هي الدولة الكبرى ، ففيلسوفنا الكبير تنبأ ، منذ ألف عام ، باجتماع الأمم كلها ، واتصالها بعضها ببعض واتحادها ، فكأنه رجل من رجال القرن العشرين ، يؤمن بالسلام ويثق برسالة جامعة الأمم .

(٢) راجع مقال كارا دى فو في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة — الفارابي .

في صدره من علم ومعرفة ، وما في قلبه من آراء وخیالات ، وما في ضميره من هواجس وأحلام .

دخل عاصمة الحمدانيين غريباً لا يعرفه أحد ، أو لم يشأ أن يعلن عن نفسه فما كاد يستقر قليلاً ، وينفض عنه غبار السفر حتى قصد توأ بلاط الأمير . . . وكان يغص " كعاداته بالأدباء والعلماء . . . فدخله غير مرتاع ولا وجل . . . وخلافاً لترعة التواضع التي امتاز بها العلماء فقد قعد إلى حيث مجلس سيف الدولة ، وأثار هذا الفضول كل من في مجلس الأمير فتساءلوا من " يكون هذا الوقح ؟ وكان الفارابي أراد بهذه الطريقة أن يفهمهم من هو ؟ وما مكانته ؟ وأن ما في صدره من علم وفلسفة ، وما يتميز به من أدب ومعرفة يجب أن يكون مقره الصدر لا الأعتاب ! . . .

أخذ الأدباء والشعراء يتهامون ، وكأنهم شعروا بوطأة هذا الدخيل على مجلسهم أو وطأة هذا المتطفل الذي يريد أن يقاسمهم عطايا الأمير . . . قالوا : أترأه مجنوناً أم شاعراً ؟ أيكون مخبولاً أم مشعوذاً ؟ ولم يمهلهم الفارابي ، فسرعان ما كشف عن نفسه مبدداً حيرتهم .

قال ابن خلكان يصف قصة دخوله بلاط الأمير :

. . . لما قدم الفارابي على سيف الدولة وجده في مجلسه مع العلماء ، فزاحمه على مجلسه ، فهدده سيف الدولة ثم عفا عنه ، فأخذ الفارابي يتكلم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فن ، فلم يزل كلامه يعلو ، وكلامهم يسفل حتى صمت الكل ، وبقي يتكلم وحده ، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله ، فصرفهم سيف الدولة وخلا به ^(١) .

لقد كانت أحاديثه الطلية وسعة معلوماته ، ثم قدرته على مناظرة من ضمه بلاط سيف الدولة - من الظواهر التي جعلت الأمير يولييه كل عطف ، وما كان لسيف الدولة أن تغيب عنه مزايا هذا الرجل . . . فسرعان ما أنزله من مجلسه أرفع

(١) ابن خلكان ص ١٠٠ .

مكان ، ومن نفسه أسى مترلة . . كان يخلو به ويتحدث إليه في فلسفة الحياة طويلا . ولا نعلم ماذا كان رأى الفارابي في غزوات الأمير وحروبه ؟ هل كان يقرها أم كان ينكرها ؟ هل كان يريد أن تقف المطامع الإنسانية عند حد ، وأن تعيش البشرية في جو من الطمأنينة والسلام بدلاً من الحصومات والقتال ؟ لا شك أن الفارابي كان يصدر في آرائه عن فلسفة إنسانية سامية . ولا شك أن الأمير الحمداني كان يجادله جداله العنيف في آرائه ، كان يناقشه في فكرة الدولة التي عرض إليها الفارابي في كتابه « المدينة الفاضلة » . . وليس في كتب الأدب ولا في كتب التاريخ نصوص تكشف عن مثل هذه المناقشات الطريفة بين الفيلسوف والأمير ولكن مما لا ريب فيه أن حب سيف الدولة للفارابي كان يفوق حبه جميع من ضمهم مجلسه من الشعراء والأدباء والعلماء والفنانين . إن الفارابي لم يمدح سيف الدولة ، ومع رغبة الأمير في سماع الأماديح من أفواه الشعراء فقد كان ميله إلى سماع آيات الحكمة أقوى . . وهذا يدلنا على ثقافة الأمير وواسع معارفه . . لقد اتخذته صديقاً يأنس إليه في مداهم الأحداث ، ويخلو إليه في سويغات الراحة والاستجمام . . وودّ أن يجري عليه النعم الكثيرة من بيت المال ولكن الفارابي الذي عاش حياته في « عالم العقل ابتغاء الخلود »^(١) قد اقتصر على أربعة دراهم في اليوم ، لأنه كان يعيش عيشة زاهدة ، بعيداً عن زخارف الدنيا وأضاليل الحياة . . لا يرى « إلا عذد مجتمع ماء أو مشتبك رياض » يكتب في الفلسفة وفي المنطق ، ويتأمل أسرار الطبيعة التي أبدعها الخالق الحكيم .

وقد عبر عن فلسفته في الحياة بقوله :

بزجاجتين قطعتُ عمرى	وعليهما عوّلتُ أمسى
فزجاجة ملئتُ بحبر	وزجاجة ملئتُ بنحمر
فبذى أدونَ حكمتى	وبذى أزيل هموم صبرى

لقد رافقت سيرة الفارابي — وهو في بلاط سيف الدولة — الكثير من القصص

(١) الأستاذ ج. دي بور في كتابه تاريخ الفلسفة في الإسلام النسخة العربية ص ١٥٤ .

وهي على غرابتها تدل على علو مكانته وعلى فرط شذوذه معاً ، ويروى المؤرخون القصة التالية كلون من ألوان شذوذه : . . . في مقابلته الأولى لسيف الدولة — تلك المواجهة الغربية التي تلقاها الأمير وجميع من ضمهم مجلسه بالوجوم والاستغراب والتي انتهت بالترحاب وتقدير مكانته . سأله الأمير : هل لك أن تأكل . قال : لا . . . فسأله : هل تشرب ؟ قال : لا . . . فقال : هل تسمع ؟ قال نعم . . . فأمر سيف الدولة بإحضار القيان . . . فحضر كل ماهر في هذه الصناعة عليم بأنواع الملاحى . . . فلم يحرك أحد منهم آله إلا وعابه أبو النصر وقال له : أخطأت . فقال له سيف الدولة : وهل تحسن في هذه الصناعة شيئاً ؟ فقال : نعم ، ثم أخرج من وسطه خريطة ، ففتحها وأخرج منها عيداناً ، وركبها ثم لعب بها ، فضحك منها كل من كان في المجلس ، ثم فكها وركبها تركيباً آخر . . . ثم ضرب بها فبكى كل من كان في المجلس . . . ثم فكها وغيّر تركيبها . . . وضرب ضرباً آخر فنام كل من في المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج . . . وهذه القصة مخترعة بدون شك ، وأكثر من عرض إلى حياة الفارابي يجعل هذه القصة وقصة معرفته سبعين لغة من الأساطير . . . وإذا أنكرنا نحن هذه القصة على ضوء التحقيق التاريخي كما أنكرها الكثيرون فإننا لا نستطيع أن ننكر هيكلها . . . فقد كان عالماً في فن الموسيقى ، وكان موسيقاراً بارعاً ، ويعزى إليه اختراع القانون أو اختراع آلة موسيقية شبيهة بها . . . وله في الموسيقى أكثر من مؤلف واحد وتحفظ دار الكتب المصرية بنسخة مخطوطة لمؤلفه « صناعة علم الموسيقى » ^(١) وهي نسخة غير كاملة وقد جمع المستشرق ديرلانجه جميع رسائله في فن الموسيقى من مختلف مكاتب الشرق والغرب : من الأسكوريال ومن ميلانو ومن لندن ومن بيروت ^(٢) وضمها في كتاب ضخيم بلغت صفحاته السبعمائة ويحتفظ الموسيقار الحلبي الشيخ علي درويش بنسخة من هذا المخطوط النفيس الذي يقول عنه إنه المرجع الوحيد

(١) مخطوطات دار الكتب المصرية تحت رقم ٥١٢ فنون جميلة .

(٢) ترجع مخطوطة جامعة ليدن إلى سنة ٩٤٣ هـ ومخطوطة مكتبة ميلانو إلى سنة ٧٤٨ هـ أما مخطوطة الأسكوريال فهي بدون تاريخ وكذلك مخطوطة بيروت فهي بدون تاريخ وغير كاملة .

لمعرفة أصول الموسيقى العربية القديمة ، وقد أعلمني أن نسخة مصر قد احتوت على المدخل فقط في حين أن نسخة ديرلانجه تحتوي على ستة كتب :

الأول :	في المدخل	الثاني :	في صناعة الموسيقى
الثالث :	في العود	الرابع :	في الطنبور البغدادى والحراسانى
الخامس :	في الناي	السادس :	في الإيقاع

وقيمة هذه النسخة أن أصولها منقول من نفس النسخة التي خطها الفارابي بيده - وهي النسخة التي جمعها ديرلانجه من مختلف مكاتب الشرق والغرب ومكث اثنتين وعشرين سنة في تونس الخضراء يضبط أصول الموسيقى العربية القديمة على الشيخ على الدرويش الحلبي^(١) الذي استدعاه إلى تونس على حسابه وظل يعمل معه أربع سنوات كاملة، ومن المؤسف أن يترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية وأن تظل نسخته العربية مخطوطة دون طبع .

وليس علينا بعد أن عرفنا قدرة الفارابي في فن الموسيقى وفي نسبة اختراعه تلك الآلة الموسيقية التي كان يوقع عليها فتحدث في النفس انفعالاً يضحك السامع ويبيكه - ليس علينا إذا أخذنا بهيكل القصة وطرحنا شكلها بعد أن عرفنا أن الفارابي هو الفيلسوف المسلم الوحيد الذي كتب في الموسيقى العربية كتاباً علمياً نفيساً حفز أحد كبار المستشرقين بعد ألف سنة - أن يشتغل به ربع قرن ثم يذيع ترجمته في اللغة الفرنسية .

لقد مجد سيف الدولة في الفارابي شخصيته الفلسفية وشخصيته العلمية معاً ، كما مجد الفارابي في سيف الدولة صفاته الفذة كأمر شجاع جمع إلى صفات البطولة صفات السلطان الذي يفنى ذاتيته في سعادة قومه . . ولا نعلم إذا كان

(١) جمع الشيخ على الدرويش الموسيقار الحلبي جميع الموشحات العربية المستعملة الآن قديماً في مصر وسورية والعراق والمغرب ودونها على النوطه وأشرف المستشرق بارون ديرلانجه على تدوينها وهي في أربعة مجلدات ضخمة بلغ عددها ١٥٠٠ موشح وهي أصول الموسيقى العربية التي كادت تنقرض لولا وجود هذا الموسيقار الحلبي . . وقد ضبطت مع إيقاعها وساعده المرحوم أحمد شوقي وأحمد رامى بتصحيح الكلام إلى اللغة الفصحى .

الفارابي الفيلسوف رأى في الأمير الحمداني هذه الصفات التي حددها للملك
 الفاضل ! ولا نعلم إذا كان التمس من هذا الحشد الأدبي الذي ضمه بلاط سيف
 الدولة - وسيلة لقلب نظام الحكم وتطبيق آرائه الفلسفية في حلب كما فكر أفلاطون
 في تطبيق مبادئه الجمهورية في أثينا وإسبارطة ، ولكن الشيء الواضح أن الفارابي
 أنس بقلبا سيف الدولة كما أنس الأمير بقلبا الفيلسوف الذي لم تمنعه شيخوخته ،
 وهو في الثمانين من عمره ، أن يصحبه في إحدى غزواته إلى دمشق ، وكأنما هذا السفر
 الطويل قد أنهك قوى الشيخ الجليل ، فام يكذ يصل إلى دمشق حتى وافته منيته ،
 فحزن عليه الأمير الحمداني حزناً عميقاً ، وصلى عليه في نفر من خاصته ،
 ورجع وهو يذكر خلو بلاطه من أكبر فيلسوف إسلامي ، ويذكر مصاب العلم
 والمنطق بفقد الرجل الذي استطاع أن يرتفع بمواهبه الفذة إلى مصاف الخالدين من
 مفكري العالم .

ابن نباتة الخطيب

« الخطابة ضرب من الكلام يراد به التأثير في الجمهور من طريق السمع والبصر معا ، وهي فطرية في الإنسان كالغناء والنطق ، ولهذا تجد آثارها عند الأقدمين في كتب الهند المقدسة وكتب مصر وفارس والصين . ولا ريب أن الأعمال العظيمة التي خطت على جبين الدهر من بطولة وكرم ومجد كان الدافع إليها خطب الأفراد الذين امتازوا بسرعة الخاطر وقوة العارضة وجرأة الفكر وذلاقة اللسان ، فمن أبطال أوميروس إلى الإسكندر وقيصر ، إلى بطرس الناسك وتوما الإكويني ، إلى لوثر وكلفن ، إلى ميرابو ودانتون وروبسبير ، إلى دزرائيلي وغلادستون وتيارس وغامبتا ، إلى جوريس بالأمس وموسوليني اليوم لا تزال البلاغة أداة الإقناع والعامل الأكبر في إنهاض الهمم وتنبيه العزائم وإذكاء الشعور . بها آثار سولون حماسة الأثينيين فخاضوا غمرات الموت لاسترجاع « سلامين » ، وبها كان شيشرون يقود الشعب الروماني المعلق بشفتيه من دار القضاء إلى السوق ومن السوق إلى دار القضاء . وبها أسكت أبو بكر أهل المدينة وأخذ هياجهم بعد موت النبي ، وبها اندلعت نيران الثورة الفرنسية فغيرت شكل الاجتماع ، ولولاها لما سحرت الأديان عقول البشر ولا كان لها أبطال وشهداء في بدو ولا حضر^(١) . هذا هو تأثير الخطابة في الثورات والانقلابات ، وفي الحروب والغزوات ، وبدهى أن لا يهمل سيف الدولة هذا العامل الكبير في حروبه مع البيزنطيين وفي إثارة الجمهور وتسييره في الاتجاه الذي خطه لإنقاذ الوطن من أخطر حرب بيزنطية ، لقد كان بلاطه يغص بالشعراء والأدباء والخطباء ، فمن هو الخطيب الذلق اللسان الذي استطاع أن يقوم بهذه المهمة وأن ينال إعجاب سيف الدولة الخبير بأسرار البلاغة وأفانين الكلام ؟ لقد حظى بهذا الشرف الرفيع ابن نباتة الخطيب . . .

(١) الخطابة للدكتور نقولا فياض ص ٥ .

وكما كان المتنبي شاعر سيف الدولة كان ابن نباتة خطيبه المصقع الذى أثار حماسة الناس فى سبيل الجهاد وإعلاء كلمة الله والوطن ، وابن نباتة هذا هو خير ابن نباتة الشاعر المصرى وصاحب الديوان الموسوم باسمه ، لأن الذين اشتهروا بابن نباتة ثلاثة :

الأول : ابن نباتة الخطيب وهو هذا الذى نلم بسيرته .

والثانى : محمد بن محمد بن محمد نباتة المصرى الشاعر المتوفى سنة ٧٦٨ هـ وصاحب كتاب « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيلون » .

والثالث : هو عبد العزيز ابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ والذى عاصر سيف الدولة ومدحه بعدة قصائد .

والذى يعنينا الآن ابن نباتة الخطيب فمن هو؟

يقول ابن خلكان : « كان إماماً فى علوم الأدب ورزق السعادة فى خطبه التى وقع الإجماع على أنه ما عمل مثلها ، وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته ، وهو من أهل « ميفارقين » ، وكان خطيب حلب وبها اجتمع بأبى الطيب المتنبي فى خدمة سيف الدولة ابن حمدان . وقالوا إنه سمع عليه بعض ديوانه ، وكان سيف الدولة كثير الغزوات فلهذا أكثر من خطب الجهاد ليحضر الناس عاياه ويحشهم على نصره سيف الدولة .

ولد ابن نباتة الخطيب ، على ما رواه ابن الأزرقي الفاروقى فى تاريخه ، سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وتوفى سنة أربع وسبعين وثلاثمائة بميفارقين ودفن فيها ، أى أنه مات وهو فى اكتمال شبابه . ويقول ابن خلكان أيضاً إنه أنشأ بعض الخطب وهو ابن ست عشرة سنة وهى الخطب التى خطب بها سنة ٣٥١ هـ أى فى السنة التى اشتد فيها القتال بين سيف الدولة ونيسفور فوكاس القائد البيزنطى الكبير . .

وقد ترك ابن نباتة مجموعة ضخمة من الخطب فى شتى الأغراض ، أغلبها فى شئون دينية بحتة حتى خطب الجهاد ، فهى ذات لون من الحماسة الدينية ،

وكان في موضوعه سيد من كتب وأبلغ من خطب ، حتى احتذى طريقته كثيرون وأخذ عنه غير واحد من كبار الأدباء والشعراء كالشريف الرضى وأخيه المرتضى ، وحظى ديوانه - أى ديوان خطبه - بعدة شروح لكثير من أئمة الأدب كالعكبرى وعبد اللطيف البغدادى والشيخ طاهر الجزائري وغيرهم من فحول الأدباء والكتاب .

هذا موجز سيرة ابن الخطيب ، والذي يهمننا منها خطب الجهاد التى كان يرسلها صوتاً مدوياً من الأعماق ، ولا شك أن وقعها كان ذا تأثير مباشر فى نفوس مستمعيها فقد كان البيزنطيون على أبواب حلب ، وسيف الدولة لا تغمض له عين ، وهو مهياً كل يوم لجهاد جديد ، وكان طبيعياً أن يتأثر ابن نباتة الخطيب بهذا الموقف الحاسم الذى وقفه سيف الدولة وأن تنعكس هذه الأصداة فى خطبه ، ويضيق بنا المجال لو أردنا أن نلم بكل خطب الجهاد التى ألقاها فحسبنا أن نشير إلى بعضها أو إلى فقرات منها لنعطى القارئ صورة من الحماسة التى كان يضطرم بها قلب ابن نباتة الخطيب وهى لا تقل عن حماسة المتنبي حين كان يصف معارك أميره الحمدانى .

قال ابن نباتة الخطيب فى إحدى خطبه :

أيها الناس :

والله ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا
ولا قعدوا عن صون دمارهم إلا اضمحلوا

وهو إذ يثير الناس ويدعوهم إلى الجهاد يريدهم أن يغالبوا أهواءهم أولاً فيصبح بهم أن « قدموا مجاهدة القلوب قبل مشاهدة الحروب ، ومغالبة الأهواء قبل محاربة الأعداء » .

أى يريد خطيب سيف الدولة أن يذهب الجندى إلى ساحات القتال وقد اطرح من ذهنه لوثات الحياة وأعباءها ونذر نفسه لأنبيل غاية وأمجد مكرومة ،

وتغلب على التزوات التي تحول دون استشهادهم وهو يرسم للمجاهد خطة السير أو طريق المجد والفخار فمن اجتازه بصبر وإيمان فتح أمامه باب الجنة الموصد ونقش اسمه في لوحة الشهداء :

أيها المؤمنون :

« إن للجنة باباً حدوده تطهير الأعمال ، وتشبيده إتفاق الأموال ، وساحته زحف الرجال إلى الرجال ، وطريقه غممة الأبطال ، ومفتاحه الثبات في معترك القتال ، ومدخله من مشرعة الصوارم والنبال » ، وهكذا ، يضرب على هذه النعمة التي تهز النفوس هزاً عنيفاً وتدنيها من مثاليها العليا ، وهو إذ يثير العاطفة الدينية لا يهمل العاطفة الوطنية وله في هذه الميادين آيات دونها هذه الآيات التي يرسلها القادة والزعماء الوطنيون في هذا العصر الذي يتميز بالروح القومية والتزعة الوطنية ، ففي موقف من مواقف الحماسة يخاطب الجماهير بقوله :

« كم تسمعون الذكر فلا تعون ، وإلى كم تُقرعون بالزجر فلا تقلعون ، كأن أسماعكم تمجّ ودائع الوعظ ، وعدوكم يعمل في دياركم عمله ، ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أمله ، صرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه ، وندبكم الرحمن إلى حقه فخالفتموه ، وهذه البهائم تناضل عن ذمارها ، وهذه الطير تموت حمية دون أوكارها . »

ثم يحرضهم على القتال بشجاعة لأن الحياة ألعوبة ، والخوف لا يدفع عن الإنسان الموت ، فلماذا الهلع والجزع ؟ وعلام التراجع والاضطراب ؟ وكيف يتوانى الإنسان عن الجهاد طلباً لطول العمر وهرباً من الموت المقدور ، فيصرخ فيهم :

الجهاد	الجهاد	أيها	المؤمنون
والظفر	الظفر	أيها	الصابرون
والجنة	الجنة	أيها	الراغبون
والنار	النار	أيها	الهاربون

ثم يحذروهم من الخوف مهما بلغ جيش العدو من القوة فيقول :
« لا يهولنكم عدو الله ولو طبقت الغبراء جنوده وشرقت الفضاء بنوده » .

بهذا الأسلوب الحماسي كان يثير شعور الجمهور ويلهب عاطفته وحينما دوى في المدينة نبال الزحفة الكبرى التي أعدها القائد البيزنطي واضطراب الناس عام ٣٥١ هـ ألقى خطبة صبت فيها كل بلاغته ووصف هول القتال أبلغ وصف ومن يمعن بها يحسب أن كلماتها قدت من نيران المعارك وصيغت من لظى الحرب وهيئها المندلع ، ولا شك أن تأثيرها كان جده قويا في وعي الجمهور الذي خيل إليه أنه في قلب المعركة لا أمام خطيب يزجي الكلام المسجع أو شاعر يرسل الكلام المقفى وإلى القارئ نبذة من هذه الخطبة التي تدل على براعة ابن نباتة اللغوية وعلى تدفق شعوره في تصوير رغبات سيف الدولة في إيقاد نيران المعارك الحامية في وجه البيزنطيين .

« عباد الله :

... استشعروا الثبات في مختلف الأرواح عند هيئة الصوارم وشفشفة اللهازم^(١) وهيمنة الغماغم وزمزمة الهماهم^(٢) وافتضاض الغلاصم عند ارفضاض الجماجم^(٣) وكر الخيل في هبوات^(٤) كالليل ولمع البواتر في نغم كالدياجر ، واعتناق القساطل عند اصطفاق الجحافل ، هنالك يشترى الله من المؤمنين أنفسهم بأوفر الأثمان وتفتح للصابرين أبواب الجنان ... إلخ .
ولا شك أن القارئ يسمع من هذه الكلمات التي لا تسوغها أذواقنا في هذا العصر رنين المعارك التي أثارها سيف الدولة في ذلك العصر الغابر .

(١) الهيمنة : حكاية أصوات السيوف عند وقعها . والشفشفة تصويت الرماح . واللهازم : جمع لمزم القاطع من السيوف .
(٢) الهيمنة : الحديث على الهدوء . والغماغم : الأصوات المختلفة .
(٣) الغلاصم : جمع غلصمة : طرف الحلقوم .
(٤) الغبار .

لقد ألقى ابن نباتة الخطيب خطبته هذه التي نقلنا فقرات منها ونبا الزحف الكبير قد رنّ صدهاء في العاصمة الحمدانية حتى إذا اجتاز القائد البيزنطي الثغور واجتاح المدن واقترب من أبواب حلب وقف ابن نباتة يحلر الناس من التضعضع ويصف هذه الزحفة ويطلب من الجند ومن جميع الحلبيين أن يبذلوا دماءهم لأن السيادة العربية قد أوشكت أن تتلاشى بعد أن أصبح العدو على الأبواب فيخاطبهم بقوله :

« . . . وقد أقامكم العز من أوطانكم على شفا ، لا ترقبون إلا يد غاشم تخطفكم أو ريح عدو هاجم تنسفكم ، كالغنم بغير راع فهي شريدة طريدة بكل قاع ، والعدو يتملك بلادكم قاطناً ، ويفاك عرى أمصاركم عروة عروة ، ويدك ذرى دياركم ذروة ذروة وأنتم من روح الله آيسون كأنكم النساء وهم الرجال . . . »

ويطول بنا المجال لو أردنا أن نشير إلى كل خطبة أو إلى بعضها فحسبنا ما قدمناه . . . وهكذا فقد كان للخطابة كما كان للشعر ولسائر صنوف الأدب - هذا المركز السامي في بلاط سيف الدولة ، واستطاع الأمير الحمداني أن يوجه الأدب هذه الوجهات القومية وأن يوقظ في قلوب بطانته - وكلهم من رجالات الفكر - هذا الشعور العميق الذي أحس به . فقام رجل كابن نباتة عرف بتزعته الدينية يدافع عن كيان الوطن بهذا اللون من الأدب الحماسي المثير .

الصنوبرى

ما فتق قلبى ، وشحن فهمى ، وصقل ذهنى ، وأرهن لسانى وبلغ بى هذا
المبلغ ، إلا تلك الطرائف الشامية . واللطائف الحلبية التى علقت بحفظى ؛
وامتزجت بأجزاء نفسى .

أبو بكر الخوارزمى

* * *

وأهل الشام فى الأدب القديم تغلب عليهم رقة الطبع ؛ ولم شغف
بصور الجمال ونزعهم الغزلية فيها لين يندر مثله فى مصر والعراق ؛
وهذا الذى استوحيناه مما قرأنا لشعراء الشام فى المعانى الحسية والوجدانية.
زكى مبارك

من شعراء العرب الذين استهوتهم الطبيعة فعشقوها وهاموا بها ، ونعموا
بمباهجها وفتنوا بروائعها ، واندمجوا بأفائها وظلالها ، وطربوا لأغاريد أطيارها ،
وسكروا من عرفها وعبقها وأريج أزهارها وخصوها بشعر يفيض بالحب
والوجد والشوق — الشاعر الحلبى أبو بكر الذى رأى النور فى أنطاكية — فى تلك
البقعة الغالية التى اقتطعها الأتراك ظلماً من جسم الوطن السورى — تلك الروضة
المعطار التى تحاكى غوطة دمشق بكثرة بساطتها ، ووفرة أثمارها ، وفيض خيراتها
بل تفوقها بروعة مناظرها وسحر شلالاتها .

فقد اكتحلت عينا الشاعر ، وهو فى المهد بجمال مناظر أنطاكية ،
ورضع الحليب مع عطر أزهارها فنشأ وقد أغرم بالطبيعة إغراماً ، وما كاد
يتزعرع ويندوق حلاوة الأدب حتى انتقل إلى حلب يعيش مع عشرات الشعراء
فى ظلال الأمير الحمدانى سيف الدولة .

* * *

والصنوبرى نسبة إلى الصنوبر ، وقد رد بعض المؤرخين هذه النسبة إلى
«الصين فقالوا أبا بكر الصينى» ، ولست من هذا رأى ، فى شعره إشارات

صريحة تناقض ما ذهبوا إليه ، فقد سئل الشاعر عن السبب الذي من أجله نسب جده إلى الصنوبر حتى صار معروفاً به فقال :

كان جدى الحسن بن مرار صاحب بيت حكمة فى عهد المأمون ، فجرت بين يديه مناظرة فاستحسن كلامه وحدة مزاجه فقال له : إنك « لصنوبرى الشكل » يريد بذلك الذكاء وحدة المزاج ، وقد كان الشاعر يأنس بأحراج الصنوبر ، وكانت مدينة حاب فى عهده مزدانة بهذه الأحراج المحضوذة ، وله فى وصفها مقاطع جميلة ، وقد ذكر الشاعر نسبته إلى الصنوبر بقطعة من شعره حيث قال :

إذا عَزِينَا إلى الصَّنُوبِرِ لم	نَعَزَ إلى خامل من الحشْبِ
لا بل إلى باسق الفروع علا	مناسباً فى أرومة الحسبِ
مثل خيام الحرير تحملها	أعمدةٌ تحتها من الذهبِ
كأنَّ ما فى ذُرَاه من ثمرٍ	طيرٌ وقوعٌ على ذرا القُضْبِ
باقٍ على الصيف ، والشتاء إذا	شابت رؤوس النبات لم يشب

إلى أن يقول :

يا شَجْراً حُبُّه حدانى أن أف يديه بأبى محبةً وأبى
فالحمد لله إنَّ ذا لقبٌ يزيدُ فى حسنه على النسبِ

ولاحاجة للتدليل بعد هذه القطعة الشعرية على خطأ القول بأن شاعرنا يتنسب إلى الصين وأنه « صينى » لا « صنوبرى » كما ذهب إليه بعض المؤرخين !

* * *

عاش الصنوبرى فى ظلال أمير حلب . وقد كان — على كثرة ما ضم بلاط الأمير الحمدانى من أساطين رجال الفكر والأدب — من أصنى المقربين إليه ، فاتخذته نديماً من أخلص ندمائه ، وأميناً لمكتبته قصره ، وكان الوحيد بين مئات الشعراء الذى ترفع عن المدح فى سبيل المال على كثرة ما منحه الشعراء من مختلف

الأقطار العربية استدراراً لعطفه ، وطمعاً بهباته وأعطياته . وإن دل هذا على شيء فعلى أنفة هذا الشاعر وكبريائه ، وعلى ما امتاز به من نبيل النفس وصفاء الطبع ، وازدراؤه للمادة ، وبعده عن ملق الشعراء وهذا الرياء الذى كانوا يعيشون فى سجنه — ولعل هذه الصفات هى التى أدنته من قلب أميره وجعلته من خلّص أصدقائه دون أن يطالبه بالثمن .

* * *

لقد شغل الصنوبرى بأفانين الطبيعة عن أكاذيب البشر ، وبروائع الأزهار عن وهج الدينار ، وترك لزملائه الشعراء أن يعيشوا فى جو من الرياء والتلف طمعاً بالدنانير التى كان ينثرها الأمير الحمدانى فوق رؤوسهم بسخاء فيهرعون إلى بلاطه ليمرغوا وجوههم على أعتابه . . أما هو فقد كان فى شغل عن هذا الزيف ، ولئن أشار بعض مؤرخى الأدب إلى أن الصنوبرى لم يخرج عن سنة الشعراء فى عصره ، فمدح وهجا وسر وشجا كما قال ابن شرف القيروانى ، إشارة إلى مدحه سيف الدولة وأمير الزاب^(١) الذى وصله بألف دينار فديحه مديح الإعجاب لا التملق ، وصدى حبه العميق لمدوحه وتأثره بأعماله الضخمة . . نعم ، فقد شغل الصنوبرى بوصف الطبيعة عن مخازى التملق وخسيس الرياء . . كان يقضى أيامه بين الكتب والرياض . يقرأ ويتأمل صنع المبدع الخلاق ، ثم ينظم قلائده الحسان فى وصف الطبيعة الجميلة الخلابة ، وقد أحب سيف الدولة فى الشاعر إباءه وعذوبة روحه وتعاقه بالجمال فاتخذة كما قلنا نديمه وصفيه ، وأفسح له المجال أن يحيا هذه الحياة الهائلة فى ظلال الرياض يستجلى فتنة الطبيعة بشتى مباحجها ومختلف صورها ليسمعه هذه النبرات التى فاض قلبه بحبها ، وسكبها قطرات من حسه فى تصويرها .

* * *

حب الصنوبرى للطبيعة ، ووصفه لأفانيتها هو الذى ميزه على الكثيرين

(١) الزاب : من أعمال إفريقية وأميرها أبو على جعفر بن على مؤسس مدينة المسبلة .

من شعراء العرب ، فعرف عند أئمة الأدب بهذه الظاهرة فقالوا : « روضيات الصنوبرى » كما قالوا « خمریات أبی نواس » و « تشبیہات ابن المعتز » و « زہدیات أبی العتاهیه » و « مدائح البحترى » .

وقال ابن رشيق في العمدة : « لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه ، ويسهل عليه تناولها كأبي نواس في الخمر ، وأبي تمام في التصنع ، والبحترى في الوصف ، وابن المعتز في التشبيه ، وديك الجن في المراثي ، والصنوبرى في النور والطير ، وأبي الطيب في الأمثال وذم الزمن وأهله » ! وإن دل هذا على شيء فعلى ما امتاز به الصنوبرى من قدرة على وصف الطبيعة التي أحبها حباً ملاك عليه كل مشاعره . . .

* * *

شاعرنا هذا الذي عاش في كنف الطبيعة لم يكن يجد نشوته إلا في فصل الربيع — فصل الحب والأزهار . . فالدنيا عنده الربيع ، ولا شيء غير الربيع فلا فاكهة الصيف ، ولا نخل الخريف ، ولا غيث الشتاء الذي يروى ظمأ الأرض — لا شيء من كل هذا إلا الربيع :

إن كان في الصيف ريحانٌ وفاكهةٌ	فالأرضُ مستوقدٌ والجوُ تنورُ
وإن يكن في الخريف النخلُ محترقاً	فالأرضُ عريانةٌ والجوُ مقررُ
وإن يكن في الشتاء الغيثُ متصلاً	فالأرضُ محصورةٌ والجوُ مأسورُ
ما الدهرُ إلا الربيعُ المستنير إذا	جاء الربيعُ أذاك النورُ والنورُ
والأرضُ ياقوتةٌ والجوُ لؤلؤةٌ	والنبتُ فيروزجُ والماءُ بلورُ
تبارك الله ما أحلى الربيعَ فلا	تغررُ فقائسه بالصيف مغرورُ
من شَم طيب جنيت الربيع يقل	لا المسكُ مسكٌ ولا الكافورُ كافورُ

نعم ، لم يكن شاعرنا يجد نشوته إلا في فصل الربيع حين يتأمل يقظة الطبيعة ونشوتها الحاملة ، حين يقضى هذه الساعات الجميلة في الغياض يصف وردها وزنابقها ؛ ويتغزل بسوسنها وأقحوانها ، ويتأمل خزامها وينفسجها

فيخلق من هذه العوالم المزدهرة عالماً جميلاً لا تشوبه الكدورة التي تشوب عالمنا .
وقد ودَّ الشاعر ؛ وهو إنسانى النزعة ، لو خلا عالم الطبيعة مما يموج به عالم
الإنسان ... لقد ودَّ الشاعر ذلك . . ولكن هيهات ! فالحب ، والغيرة ، والخيلاء ،
والزهو ، والبغض ، والحسد ، والتنافس الذى يموج به عالم الإنسان يموج به عالم
الطبيعة ، إى والله . . فالغيرة التي تعصف بقلوب النساء حين تتميز إحداهن على
لداها — حين تتميز بجمالها ورشاقها وغنجها هي هي عند الورد والرجس . .
هذا ما يؤكد لنا الشاعر فى قطعة من شعره . .

لقد خلق من هذه « الغيرة » معركة رشيقة من معارك الزهر ، معركة لا حول
فيها ولا ذعر ، وإن وصفت المعارك بالأهوال التي تشيب لها رؤوس الأطفال ،
يصف لنا الشاعر هذه المعركة بأسلوبه اليقظ أجمل وصف ، ولا ضير علينا أن
نرقب معه غمار هذه المعركة ننع فيها بعقب الزهر وعذوبة الشعر . . .

ها نحن أولاء فى روضة من هذه الرياض الجميلة التي كان يستعجل محاسنها
ويقضى أجمل أيامه فى ظلال أفياها ، ولتكن هذه الروضة حديقته الغناء . . وقد
كان للصنوبرى كما تقول كتب الأدب حديقة من أجمل حدائق حلب ، وصفها
صديقه الشاعر كشاجم بقوله :

فألهتك بساتينُ لك ذات النور والزهر
وما شيدت للخلو ة من دار ومن قصر
وما جمعت من غرس ومن فسلى ومن بذر
ونارنج وريحانٍ جنى طيب النشر

نعم ، لندخل قصره الفخم الذى بناه فى قلب الحديقة وقد ازدانت
بالغروس والرياحين وبأشجار الليمون والنارنج ، وبالحوخ والتفاح ، وبشتى الأشجار
والأزهار ، ولنقض معه لحظات ، إنه من عشاق الورد ، وللورد عنده المقام
الأفضل ، هو كشاعر محب للطبيعة يهوى شتى أصناف الزهور ، ولكن
حبه للورد أثار « الغيرة » فى قلوب حبيباته الأخريات حين رأينه يفضل الورد

عليهن — على النرجس والأقحوان ، وعلى السوسن والبنفسج وشقائق النعمان :

زعم الورد أنه أبهى	من جميع الأنوار والريحان
فأجابته أعين النرجس الغض	بذل من قولها وهوان
أبما أحسن؟ التورد أم مة	لمة ريم مريضة الأجفان
أم فإذا يرجو بحمرته الور	د إذا لم يكن له عينان
فزها الورد ثم قال مجيباً	بقياس مستحسن وبيان
إن ورد الخلود أحسن من	ين بها صفرة من اليرقان

فهو إذ يفاضل بين الورد والنرجس يصرع النرجس من حيث يريد الدفاع عنه والتدليل على محاسنه ، والواقع أن لكل زهرة عند شاعرنا مكانتها المحببة فهو محب واثق يرعى جميع حبيباته بفيض حبه ، وكأنه يقول في أعماق نفسه ، قوله ابن أبي ربيعة : إننى شاعر موكل بالجمال أتبعه ، فلا قدرة لى أن أغضبكن أيتها الحبيبات الأثيرات إلى قلبي جميعاً ، ولكن هذا لا يمنع أن أخص إحداكن بحب أكثر ووجد أوفر . .

وفى هذه المعركة التى خلقها خصب خياله يصف لنا صراع الحب وضرام الغيرة بين الزهور ، فى هذه المعركة الرشيقة التى تقوم بين الورد والنرجس — الورد الذى يزهو بجماله وروائه ، والنرجس الذى لا يقل عنه زهواً وخيلاء . . . وكل زهرة من زهرات حديقته تعتد بحسنها وجمالها — وكل واحدة تريد أن تحتل مكانتها من قلب الشاعر وأن تكون المليكة المزهوة فى حديقته ، وكما كان يتنافس الشعراء للحظوة الكبرى عند الأمير الحمدانى ، فقد كانت الأزاهير تتنافس لتكون كل واحدة مليكة فى حديقة الشاعر . . . ووقع التنافس ؛ ووقعت الغيرة ، وبدأ التراشق بالسهام ، وأخذت كل زهرة تدل بحسنها وجمالها وفتنتها ، وكان يلاحظ الشاعر على كل زهرة أعراض الغيرة من اصفرار إلى تبه إلى حسد إلى بكاء إلى أنين . . . ووقف يرقب من شرفة قصره أثر هذه المعركة . . . وكيف استطاع الورد أن يؤلب معه الأقحوان والبنفسج والسوسن والياسمين وشتى أصناف

الزهر للقضاء على « النرجس » مليك الزهور ، وكاد النرجس يتلاشى ويختر صريعاً في هذه المعركة لولا موقف الشاعر الذى حال دون القضاء عليه فى جلسة رقيقة الحواشى غنت فيها الأطيّار واهترت الأوتار .

نحجل الوردُ حين لاحظته النّر	جسُ من حسنه وغارَ البهارُ
فعلتُ ذاك حمرةً وعلتُ ذا	صفرةً واعتري البهارَ اصفرارُ
وغدا الأقحوانُ يضحكُ عجباً	عن ثنايا لثامهنّ بهارُ
ثمّ نمّ النّامُ واستمع السو	سنُ لما أذيعت الأسرارُ
عندها أبرز الشقيقُ خدوداً	صار فيها من لطمه آثارُ
سكبت فوقها دموعُ من الطل	كما تُسكب الدموعُ الغزارُ
فاكتسى البنفسج الغض أثواب	حداد قد خانها الاضطبار
وأضرّ السّقامُ بالياسمين الـ	غضّ حتى آذى به الإضرار
ثمّ نادى الخيرى ^(١) فى سائر الزه	ر فوافاهُ جمحفلُ جرّارُ
فاستجاسوا على محاربة النرجس	بالحرم الذى لا يبار
فأتوا فى جواشنٍ سابغات	تحت سجفٍ من العجاج يثارُ
ثمّ لما رأيت ذاك النرجس الغضّ (م)	ضعيفاً ما إن لديه انتصارُ
لم أزلُ أعمل التّاطف للور	د حذاراً أن يغلبَ النّوارُ
فجمعناهمُ لدى مجلس فيـ	ه تغنّى الأطيّار والأوتارُ
لو ترى ذا وذا لقلتُ خدودُ	تدمن الاّحظ حولها الأبصارُ

وهكذا ، فقد خلق لنا الشاعر فى هذه القطعة التصويرية ، معركة رشيقة من معارك الزهر ، شهدها خلص أصدقائه ، وفى طليعتهم الأمير سيف الدولة الذى كثيراً ما كان يترك بلاطه وأماديح الشعراء ليقضى ساعات جميلة فى حديقة صفيّة ونديمه ، يستمع فيها إلى عذب نكاته ورقيق شعره وهما يتعاطيان

(١) المنشور الأصفر .

الكؤوس الصافية . نعم ، كان يجد سيف الدولة في هذه النغمات ، وفي تلك الجلسات الماتعة بعض سلوته من عناء الحروب وهول المعارك ، لذلك فقد أعفاه من قصائد المديح وتركه يمدح الطبيعة بشتى ظواهرها ومختلف ألوانها ، وإذا كان القدماء اعتبروه سيد من وصف الروض وتغنى به ، فقد اعتبره المحدثون ، وفي طليعتهم آدم متر ، أول شاعر للطبيعة في الأدب العربي ، ويضيق المجال لو رحنا نورد وصفه لشتى ألوان الزهر ومباهج الأرض وفتون السماء والضياء والهواء وكل ما يزين هذه الدنيا بالألوان والأعراف .

... وكما وصف الصنوبري خضرة الأشجار وعطر الأزهار فقد وصف جمال الديار وفيض الأنهار ، فقد تغنى بذكر حلب ودمشق كما تغنى بجمال دجلة والفرات وبردى ووصف « قويق » وصفاً يدلنا على أن نهر حلب لم يكن قبل ألف سنة أحسن منه الآن بفروق ضئيلة .

كان الصنوبري كثير التجوال ، ينتقل من بلدة إلى ثانية فيقضى فيها أجمل أيامه وقد أعنى نفسه من مواضع الحياة وعنت الأيام ، ومن هذه القيود المرهقة التي تقيد حرية الإنسان ، فكان يأنس بهذه الحياة الناعمة في ظلال الأفياء ، وقد أشار صاحب تزيين الأسواق إلى هذه النزعة عند شاعرنا فقال :

... كان الصنوبري كثير التجوال في هذه البلاد يوماً تراه بحزوى ويوماً بالعراق ، يألف الرياحين النضرة والحدائق الملتفة ، يميل إلى الغناء والمداعبة ، ومعاشرة أهل الأدب فأكسبه ذلك ظرفاً في شمائله وخفة في روحه ، وصفاء في ذهنه ، ورقة في طبعه ، ودقة في خياله ، وشحذ ذلك قريحته فاستخرج دقائق المعاني والتشبيهات البديعة ، وسهل له حزونها ، فأثانا بالسهل الممتنع في وصفه للرياحين والغياض والأنهار والأزهار ، ووافانا بجملة مستكثرة في هذا الباب لا تجدها في شعر غيره وصار هو المشار إليه في هذا النوع وهو الإمام فيه . نعم ، كان شاعرنا يقوم برحلات متتابعة ، ينتقل فيها من بلد إلى بلد ، في هذه الربوع السورية التي خصتها الطبيعة بأجمل روائعها من حلب إلى الرها إلى الرقة يقضى أياماً وأسابيع على ضفاف الفرات يستمتع بجمال هذا النهر وبنسماته العليقة ، ثم يعود

. إلى حلب فلا يلبث فيها طويلاً حتى يغادرها إلى دمشق ينعم بغوطتها وبرداها
فيخصها بالشعر الجميل ، فقد وصف الصنوبرى طبيعة دمشق وأيامه فيها أبرع
وصف ، ودل في وصفه هذا على أنه لم يعرف من الحياة إلا مباهجها وجمال
ألوانها ونضرة طبيعتها ونغمات أطيارها وعذوبة مائها ، وكما رأى جمال الدنيا في
الربيع ، فقد رأى هذا الجمال — أى جمال الدنيا — في دمشق التى خصها
بالكثير من شعره ، ومن أقواله فيها :

أمرٌ بدير مرّان فأجيا	وأجعلُ بيتَ لهوى بيت « لها »
ويبردُ غلتي بردَى فسقياً	لأيام على بردَى ورعيّا
ولى في باب جيرون ظباءٌ	أعاطيها الهوى ظيباً فظيبا
ونعم الدّار « داريتا » ففيها	خلا لى العيش حتى سار أريا
صفتُ دنيا دمشقَ لقاطنيها	ولست ترى بغير دمشق دنيا
تفيض جداولُ البلّور فيها	خلالَ حدائق ينبتن وشيا
مظلة فواكهها بأبهى الـ	مناظر في نواصرها وأهيا
فمن تفاحةٍ لم تعدُ خدّاً	ومن رمانةٍ لم تعدُ ثديا

فإذا ما تنعم من مباهج دمشق وعاد منها . هفت نفسه إلى الرقة ، مصيف
هارون الرشيد .. ها هوذا في طريقه إليها ينعم بجمال حدائقها ويمتّع ناظره
بجمال فرائها ويأنس بدير من أجمل أديرتها — دير طابت فيه الأشربة
وصفت فيه الحياة « دير زكى » الواقع بين الفرات والبليخ ، فهو يذكره ويذكر
جمال موقعه وطيب أيامه هناك فيقول :

معاهدُ بل مآلفُ باقياتُ	بأكرم معهدَيْن ومألفينِ
تضاحكها الفراتُ بكل فنّ	فتضحكُ عن نضار أولجينِ
كأن الروض من حمر وصفر	إذا اعتنقا عناق متيسمينِ
وقت ذاك البليخ يدُ الليالى	وذاك النيل من متجاورينِ

ثم يخاطب مكان نزهته في الدير بقوله :

أيا متزهي في دير زكى	ألم تلك نزهتى بك نزهتين
أردد بين ورد نذاك طرفاً	تردد بين ورد الوجنتين
ومبتسم كنهى أقدحوان	حلاه الطل بين شقيقتين
وياسفن الفرات بحيث تهوى	هوى الطير بين الجلهتين
تطارده مقبلات مدبرات	على عجل تطارد عسكريين
ترانا واصليك كما عهدنا	بوصل لا تنغصه بينين
ألا يا صاحبي خذا عناني	هواي ، سلمت من صاحبين
لقد غصبتني الخمسون فتكى	وقامت بين الذاتي وبيني
كان اللهو عندي كابن أمي	فصرنا بعد ذاك كعائتين

ومع ذلك فقد أعنى شاعرنا نفسه من لوم اللائمين ، وقدح القادحين ، فهو صاحب مذهب في الحياة ، يريد أن ينعم بمباهجها ولذاتها قبل أن يلفه العدم بدثاره الجون ، يريد أن يقتل سأم الحياة باللهو والشراب ، وما هو ذا ينادى صاحبه بقوله :

يا نديمي أما تحن إلى القصه	ف فهذا أوان يبدو الحنين
لو على الدير عجمت يوماً لألهة	لك فنون وأطربتك فنون
لائمي في صبايتي قدك مهلاً	لا تلمني إن الملام جنون

فهو مفتون بهذه الغياض التي تحيط بهذا الدير الجميل الذي يجد فيه كل ما تشبهه النفس وتسرب به العين ويحقق له القلب :

حبذا المرج ، حبذا العمر ، لا بل	حبذا الدير ، حبذا السرّوتان
قد تجلى الربيع من حال الزه	ر وصاغ الحمام طيب الأغاني
زيتت أوجه الرياض فأضحت	وهنى تزهي على الوجوه الحسان

أخضر اللون كالزبرجد ، في أحمر صافي الأديم كالعقيان
وبهار مثل الزناير محفو في بزهر الخيري والحوذان
اسقياني بكل لون من الرا ح على كل هذه الألوان

يا لهذا الشاعر الذي أسكرته الطبيعة فهام بها هيام المجانين ، فلا يكاد يفيق
من غيبوبته ، حتى تطلب نفسه الحمرة على شتى ألوانها - حمرة مختلفة الألوان
يحاكى كل لون منها لون هذه الأزاهير :

اسقياني بكل لون من الرا ح على كل هذه الألوان

ويعاوده الحنين إلى حلب ، بعد أن يقضى فترة من الزمن في تلك الجنان
المزدهرة فيذكر أيامه في بطياس والصالحية - وهما قريتان قريبتان من حلب -
ويحن إلى أيامه الجميلة فيهما فينشد :

إني طربتُ إلى زيتون بطياس	بالصالحية ذات الورد والآس
من ينسّ عهدهما يوماً فلست له	وإن تطاولت الأيامُ بالناس
وقائل لي أفق يوماً فقلتُ له	من سكرة الحب أم من سكرة الطاس

وبدهى أن لا ينسى الشاعر حلب ومغانيها ، فكما وصف دمشق وبغداد
وأيامه في الرقة والرها ، وعلى ضفاف بردى والفرات والبلخ وفي هذه القرى الجميلة
المنتشرة هنا وهناك ، فقد وصف حلب ومغانيها وخصّ نهرها بشعر تجرى فيه
الأحاسيس المتباينة ، فهو يصف نهر قويق ويقسو عليه ، يذكره مداعباً
وممازحاً . . وأى حلي يستطيع أن يفاخر بنهره بعد أن يرى النيل ودجلة والفرات
مثلاً . . . نعم ، فحين يذكر الحلي نهره تفيض في نفسه اللوعة والألم ، فلكل
بلدة من بلاد الله نهرها الجميل العذب الرقاق الذي يروي أرضها وسهولها ويسقي
حدائقها وبساتينها ، ويزيد في جمالها ونضارتها ، ويفيض عليها الحصب
والنماء ، فلمدشق برداها الذي يصفق بالرحيق السلسل كما يقول الشاعر القديم ،
ولمصر نيلها الجميل الذي يعد من أطول أنهار المعمور وأعذبها والذي كتبت بحقه

الكتب والمجلدات ودرس تاريخه كما يدرس تاريخ الأمم والحضارات لما له من أثر في حياة مصر منذ أقدم الأزمنة حتى عبده الفراعنة وألهوه ، ولبغداد دجلتها وفراتها ، إلحلب ، فقد حرمها الله من هذه النعمة الجميلة ، فكان لقلّة المياه أثره في ييوسة الطباع ، ولئن خص الله هذه المدينة الجميلة ، بجودة المناخ وجمال الهواء ، فقد حرمها من أجمل نعمة – حرمها من وفرة المياه ومن نهر جميل تسرّبه الأعين – فالواقع ، أن لنا نهراً هو وصمة هذه المدينة ، يأخذ في الشتاء شكل الأنهر الصغيرة وقد يفيض فيطغى على الشوارع ، وقد يثور فيقتلع الدور الصغيرة وينقلب نفعه ضرراً . . .

ولكن لا يلبث أن يهدأ ويرجع إلى حالته المزرية ، فلا هو بالنهر الصغير ، ولا هو بالساقية الحية . . . بل يصبح ماذا ؟ . . . مجرى من مجارى الوحول والمياه الآسنة ، وبالرغم مما هو عليه من ضآلة المياه وقلتها فالأتراك قد حولوا مجراه إلى أراضيهم فغصبونا أقدس حقوقنا الطبيعية . . . وإقراراً للواقع نقول إن نهراً منذ القديم مجرى لمياه قليلة تجف في الصيف وتزداد في الشتاء وكان تغنى الشعراء به لوناً من الحسرة والأنين ، وصفوا اصفرار لونه واربداد وجهه ، أى أنه اليوم كما كان قبل ألف سنة ، وهذا ما يؤكد الصنوبرى بقوله :

قويق من الصفراء ركّب جسمه رُباه بهذا شهّد وحدائقه
إذا جدّ جدّ الصيف غادر جسمه ضيّلاً ولكن الشتاء يوافقه

ويصوره في قطعة ثانية تصويراً رائعاً بقوله :

قويق إذا شمّ ريح الشتاء أظهر تيهاً وكبراً عجيباً
وناسب دجلة والنيل والفرات بهاء وحسناً وطيباً
إذا أقبل الصيف أبصرته ذليلاً حقيراً حزينا كئيباً
إذا ما الضفادع نادينه قويق قويق أبى أن يجيباً
فياوين منه تقايا كسّين من طحلب الصيف ثوباً قشيباً

وتمشي الجردة فيه فلا تكاد قوائمها أن تغيبا

ثم يتلمس الشاعر بلخفاف النهر ونضوب مائه عشرات الأعذار في قصيدة طويلة مطلعها « قويق له عهد علينا وميثاق » حيث يقول :

يهاب قويق أن يمل فأنما	يقيم زماناً ثم يمضي فنشتاق
وقالوا أليس الصيف يبلى لباسه	فقلت الفتي في الصيف يقنعه طاق
وما الصبح إلا آيب ثم غائب	تواريه آفاق وتبديه آفاق
وما البدر إلا زائد ثم ناقص	له في تمام الشهر حبس وإطلاق

ثم يقول :

فلو دام في الحب الوصال ولم يكن فراق ولا هجر ، لما اشتاق مشتاق

وهذه نهاية البراعة في الاعتذار لحالة نهر صغير قضى شطراً كبيراً من حياته يستمتع بجماله حين تفيض مياهه في الشتاء :

هو الماء إن يوصف بكُنْه صفاته	فللماء إغضاء لديه وإطراق
ففي اللون بآور ، وفي اللمع لؤلؤ	وفي الطيب قنديد وفي النفع درياق
إذا عبثت أيدي النسيم بوجهه	وقد لاح وجهه منه أبْيَض براق
فطوراً عليه منه زرق حقيقه	وطرا عليه جوشن منه رقرق
وكم بعده لينوفر مشوف	بأرؤس تبر والزبرجد أعناق
له ورق يعلو على الماء مطبق	كأطباق مدهون يلهن أطباق
وقد عابه قوم وكلاتهم له	على ما تعاطوه من العيب عشاق

وأشهد أني في حالة نضوبه وجفافه ، لست من عشاقه :

وكما خص الصنوبري نهر حلب بأكثر من قصيدة فقد خص حلب ، وطنه الجميل ، بالقصائد الكبيرة والمقطوعات الصغيرة وحسبنا الإلماع إلى قصيدته الكبرى التي يقول في مطلعها :

أحببنا العيسَ أحببناها وسلا الدار سلاها
وسلا أين ظباءُ ال لدار أم أين مهاها

في هذه القصيدة لا يترك ناحية من نواحي حلب ، إلا وقد وصفها وصف
المحب الوامق - ذكر تلك المواقع والأحياء التي عرفها حلب قبل ألف سنة والتي
لا تزال تحتفظ بأسمائها إلى يومنا هذا ، فذكر باتقوسا وباب الله وبعاذين
والقناة ومجاري برك حيلان والراموسة والسليمانية والجوشن ثم وصف جامعها الكبير
والمثدنة وقبة الجامع فقال :

قبة أبدع بانيها بناءً إذ بناها
ضاهت الوشي نقوشا فحكته وحكاها
لو رآها مبتنى قبة كسرى ما ابتناها
فبذا الجامع سرو يتباها من تباها

فأين أشجار السرو هذه وأين الحدائق المحيطة بالجامع ؟ لقد طغت المادة
على الروح واستحالت الحدائق حيوانات مختلفة المهن حتى مهنة الحدادة التي
يفسد ضجيجها على المصلين صلواتهم وتهجداتهم ؟ ...
ثم يعود الصنوبري فيذكر مقاصف حلب ومنتزهاتها ودورها وكل تراويقها
ومحاسنها فيقول :

أنا أحمى حلباً ذا رأ وأحمى من حماها
أى حسن ما حوته حلباً أو ما حواها
سروها الداني كما تدنو فتاة من فتاها
أسها الثاني القدود ال هيف لما أن ثناها

وبعد أن يتغزل بنخلها وزيتونها وشي أثمارها ولا ينسى طيورها من القمري إلى
الدراج إلى الحباري إلى القطا يقول :

بين أفنان تناجي طائريها طائراها

وكریم من أوها	حلب أكرم مأوى
بسط نور ما طواها	بسط الغيث عايبها
دع فيها إذ كساها	وكساها حلاًلاً أب
سن والورد سداها	حلاًلاً لخمئها السو
لا تحرم جناها	اجن خيرياتها بالاحظ
هل كالدع مع نداها	وعيون النرجس المذ
كاللظى الحمر لظاها	ونحدود من شقيق
ت سنا الدر سناها	وثنايبا أقحوانا

ثم يختتم قصيدته . بعد أن يعدد جميع زهورها ويصفها هذا الوصف الشعرى
الجميل ، بقوله :

فاخرى يا حلب المد	ن يزد جاهك جاها
إنه ، إن تكن المد	ن رخاخا كنت شاها

ويضيق المجال ، لورحنا نورد مقطوعات من شعر الصنوبرى فى بلدته حلب
وما خصها الله من محاسن وتزاويق ، فحسبنا هذه الصور التى ترينا هذا الشاعر
الذى عاش حياته فى كنف الطبيعة ، يصف أزهارها وأطيافها ، أرضها وسماها ،
ربيعها وشتاءها ، وكل ظاهرة من ظواهر الحياة فيها حتى أصبح بحق شاعر
الطبيعة فى الأدب العربى وصاحب مدرسة تأثره كثيرون من شعراء العربية ورأوه
أستاذهم الأكبر فى رسم مباهج الأرض وجمال الطبيعة الفتان .

نصوص

رأينا من فائدة القارئ أن نتبع هذه الرسالة بنشر نصوص جغرافية وتاريخية عن حروب سيف الدولة مع البيزنطيين كما كتبها مؤرخو العرب القدماء لتكون مادة خصبة لمن يريد أن يتوسع بدراسة هذا العصر .

الشام

وصف جغرافى للبلاد التى خضعت لسيف الدولة
وللمحدود العربية - البيزنطية

أحوال الشام :

أما الشام فإن غربها بحر الروم ، وشرقها البادية من أيلة^(١) إلى الفرات ، ثم من الفرات إلى حد الروم ، وشمالها بلاد الروم أيضاً ، وجنوبها حد مصر وتيه بنى إسرائيل ، وآخر حدودها مما يلي مصر رفح ، ومما يلي الروم الثغور المعروفة ، كانت قديماً بالجزيرة وهى ملطية والحدّث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة وأذنة وطرسوس .

قد جمعت الثغور إلى الشام وبعض الثغور يعرف بثغور الشام وبعضها يعرف بثغور الجزيرة وكلها من الشام ، وذلك أن كل ما كان وراء الفرات فن الشام ، وإنما سمى من ملطية إلى مرعش ثغور الجزيرة لأن أهل الجزيرة بها كانوا يرابطون ويغزون منها ، لا لأنها من الجزيرة ؛ وكور الشام إنما هى جند فلسطين وجند الأردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين والعواصم ، وبين ثغور الشام وثغور الجزيرة جبل اللكام وهو الفاصل بين الثغرين ، وجبل اللكام جبل داخل فى بلد الروم ويقال إنه ينتهى إلى حد مائى فرسخ ويظهر فى الإسلام بين مرعش والهارونية وعين زربة فيسمى اللكام إلى أن يجاوز اللاذقية ثم يسمى جبل بهرة وتنوخ إلى حمص ثم يسمى جبل لبنان ثم يمتد على الشام حتى ينتهى إلى بحر القلزم من جهة ويتصل بالمقطم من أخرى .

* * *

أما جند حمص فإن مدينتها حمص وهى مدينة فى مستواة خصبة صحيحة

(١) أيلة : على خليج العقبة ، فى أقصى شمال الحجاز .

الهواء من أصبح بلدان الإسلام . . . ودخلها الروم في وقتنا هذا وأتوا على سوادها وأخربوها . وجميع طرق حمص من أسواقها وسككها مفروشة بالحجارة والبلاط . وأما أنطرسوس فحصن على البحر ثغر لأهل حمص فيه مصحف عثمان بن عفان ، وعليه سور من حجارة يمنع أهلها من بادرة ، ولقد نجوا من الروم في حيننا هذا عند قصد تقفور ، ساحل الشام . وأما شيزر وحماة فإنهما مدينتان صغيرتان نزهتان كثيرتا المياه والشجر والزرع والفواكه .

وأما جند قنسرين فمدينتها حلب وكانت عامرة جداً ، غاصة بأهلها ، كثيرة الخيرات على طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات ، فافتحتها الروم وكان لها سور من حجار لم يغن عنهم من العدو شيئاً فخرب جامعها وسبي ذراري أهلها وأحرقها ، وكان بها قلعة غير طائلة ولا حسنة العمارة ، فلجأ إليها قوم من أهلها فنجوا ، وهلك بها من المتاع والجهاز للغرباء وأهل البلد ، وسبي بها وقتل من أهل سوادها ما في إعادته إرماض لمن سمعه ووهن على الإسلام وأهله ، وكان لها أسواق حسنة وحمامات وفنادق ومحال وعراص فسيحة وهي الآن كالمتماسكة ولها واد يعرف بأبي الحسن قويق وشرب أهلها منه وفيه قليل طفس ، ولم تنزل أسعارهم في الأغذية وجميع المأكول قديماً واسعة رخيصة . . . وعليهم الآن للروم في كل سنة قانون يؤدونه وضريبة تستخرج من كل دار وضبعة معلومة وكأنهم معهم في هدنة وليست وإن كانت أحوالها متماسكة وأمورها راحية بحال جزء من عشرين جزءاً مما كانت عليه في قديم أوقاتها وسالف أيامها .

وقنسرين مدينة نسبت الكورة إليها وهي من أضيق تلك النواحي بناء وإن كانت نزهة الظاهر مغوثة في موضعها بما كان بها من الرخص فاكسحتها الروم فكأنها لم تكن إلا بقايا دمن فديتها من دمن . . . ومعرة النعمان مدينة هي وما حولها من القرى أعداء ليس بنواحيها ماء جار ولا عين ، وكذلك جميع جند قنسرين شربهم من السماء وهي مدينة كثيرة الخير والسعة والتين والفسق وما شاكل ذلك من الكروم . . . وأما الحناصرة فهي حصن يحاذي قنسرين إلى ناحية البادية وعلى شفيرها وسيفها كان يسكنه عمر بن عبد العزيز صالحه في قلدوها ، مغوثة

للمجتازين عليها في وقتنا لأن الطريق انقطع من بطن الشام بإتيان الروم عليه وهلاك ولائه فلجأ الناس إلى طريق البادية بالأدلاء والخفراء .

والعواصم اسم الناحية وليس بمدينة تسمى بذلك وقصبتها أنطاكية ، وهي بعد دمشق أنزه بلد بالشام ، وعليها إلى هذه الغاية سور من صخر يحيط بها ويجبل مشرف عليها لهم فيه مزارع وأجنة وأرجية وما يستقل به أهلها من مرافقها وكان لهم ضبياع وقرى ونواح خصبة حسنة استولى عليها العدو فملكها وكانت قد اختلت قبيل افتتاحها في أيدي المسلمين وهي أيضاً في أيدي الروم أشدّ اختلالاً وفتحها الروم في أول سنة تسع وخمسين وثلاثمائة .

ومدينة بالس مدينة على شط الفرات من غربيه صغيرة ، وهي أول مدن الشام من العراق ، وكان الطريق إليها عامراً ، ومنها سابل ، وكانت فرضة لأهل الشام على الفرات وعلى القرب منها مدينة منبج خصيبة كثيرة الأسواق ، قديمة الآثار ، عظيمة الأسوار في برية الغالب عليها وعلى مزارعها الإغذاء^(١) ، وهي حصينة عليها سور أزلي رومي . وبقربها أيضاً مدينة سنجة وهي مدينة صغيرة بقربها قنطرة حجارة تعرف بقنطرة سنجة^(٢) ليس في الإسلام قنطرة أحسن منها ويقال إنها من عجائب الزمان . ومدينة سميساط على الفرات وكذلك جسر منبج وهما مدينتان لهما زرع سقى ومباخس وماؤهما من الفرات .

وكانت مدينة ملطية مدينة كبيرة من أكبر الثغور وأكثرها سلاحاً ورجالاً دون جبل اللكام إلى ما يلي الجزيرة ويحف بها جبال كثيرة فيها الجوز والكروم واللوز وسائر الثمار الشتوية والصيفية مباحة لا مالك لها وهي من أقوى بلاد الروم في هذا الوقت يسكنها الأرمن وفتحت في سنة تسع عشرة وثلاثمائة . وكانت المدينة المعروفة بحصن منصور صغيرة حصينة فيها منبر وبها رستاق وقرى برسمها أعداء فاستأثر القضاء بهلاكها على أيدي الروم وبني حمدان .

(١) غذا المكان : طاب ، وكان بعيداً من الماء والوخم .

(٢) جسر سنجة الروماني على مصب نهر الفرات اسمه « كوك صو » وكان يقول القدماء عجائب

الدنيا أربع : قنطرة سنجة ومنارة الإسكندرية وكنيسة الرها ومسجد دمشق .

وَالْحَدَّثَ وَمَرَعَشَ مَدِينَتَانِ صَغِيرَتَانِ افْتَتَحَهَا الرُّومُ مِنْ قَبْلِ يَوْمِنَا هَذَا فَأَعَادَهَا سَيْفُ الدَّوْلَةِ عَلِيٌّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَعَادَ الرُّومُ فَاَنْتَزَعُوهَا ثَانِيَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ لهُمَا زُرُوعٌ وَأَشْجَارٌ كَثِيرَةٌ وَفَوَاكِهِ ، وَكَانَتَا تُغْرِيَنِ يَرَابِطَ فِيهِمَا الْمُسْلِمُونَ وَيَجَاهِدُونَ فَفَسَدَتِ النِّيَّاتُ وَافْتَتَحَتِ الْأَعْمَالُ وَارْتَفَعَتِ الْبَرَكَاتُ وَفَسَدَتِ الْمَذَاهِبُ وَلَجَّ الْمُلُوكُ فِي الظُّلْمِ وَالْاِسْتِثَارِ بِالْأَمْوَالِ وَالْعَامَةِ فِي الْإِصْرَارِ عَلَى الْمَعَاصِي وَالطُّغْيَانِ فَهَلَكَ الْعِبَادُ وَتَلَاشَتْ الْبِلَادُ وَانْقَطَعَتِ الْجِهَادُ .

وَكَانَتِ الْهَارُونِيَّةُ مِنْ غَرْبِيِّ جَبَلِ الْكُكَّامِ فِي بَعْضِ شُعَابِهِ حَصْنًا صَغِيرًا بَنَاهُ هَارُونُ الرَّشِيدُ أَدْرَكَتْهُ عَامَرًا حَسَنًا فَأَهْلَكَتْهُ الرُّومُ . وَكَانَتِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةُ ^(١) أَيْضًا حَصْنًا عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ الرُّومِ ذَا نَخِيلٍ وَزُرْعٍ وَغَلَّةٍ وَخَصْبٍ كَثِيرٍ فَأَتَى عَلَيْهِ الْعَدُو . وَكَذَلِكَ حَصْنُ التِّيْنَاتِ حَصْنٌ كَانَ عَلَى شَطِّ الْبَحْرِ فِيهِ مَقْطَعٌ لَخَشْبِ الصَّنُوبِرِ الَّذِي كَانَ يَنْقَلُ إِلَى الشَّامِ وَمِصْرَ وَالثُّغُورِ وَكَانَ فِيهِ رِجَالٌ فَتَاكَ أَجْلَادُ لَهُمْ عِلْمٌ بِمَضَارِ بِلَدِ الرُّومِ وَمَعْرِفَةٌ بِمَخَائِصِهِمْ . وَكَانَتِ الْكَنِيسَةُ حَصْنًا فِيهِ مَنْبَرٌ وَهُوَ تُغْرَى فِي مَعْزَلٍ مِنْ سَاحِلِ الْبَحْرِ يَقَارِبُ حَصْنَ الْمُثَقَبِ الَّذِي اسْتَحْدَثَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَعَمْرُهُ وَكَانَ فِيهِ مَنْبَرُهُ وَمَصْحَفُهُ بِنَظْمِهِ وَكَانَ فِيهِ قَوْمٌ سَرَاةٌ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ — اعْتَرَلُوا الدُّنْيَا وَرَفَضُوا الْمَكَاسِبَ وَكَانَ لَهُمْ مَا يَقِيمُ بِهِمْ مِنَ الْمُبَاحِ . وَكَانَتِ عَيْنُ زُرْبَةِ بِلْدَاءٍ يُشَبِّهُ مَدْنَ الْغُورِ وَبِهَا نَخِيلٌ وَخَصْبٌ وَاسِعَةٌ الثَّمَارِ وَالزُّرْعِ وَالْمَرْعَى وَهِيَ الْمَدِينَةُ الَّتِي كَانَ وَصِيفُ الْخَادِمِ هَمَّ بِالْدُخُولِ مِنْهَا إِلَى بِلَدِ الرُّومِ فَأَدْرَكَهُ الْمُعْتَصِدُ بِهَا وَكَانَتِ حَسَنَةُ الدَّخْلِ وَالْخَارِجِ ، نَزْهَةٌ دَاخِلُ سُورِهَا جَلِيلَةٌ فِي جَمِيعِ أُمُورِهَا . وَكَانَتِ الْمَصِيبَةُ مَدِينَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا تَسْمَى الْمَصِيبَةُ وَالْأُخْرَى تَسْمَى كَفْرِيَا عَلَى جَانِبِي جِيحَانٍ وَبَيْنَهُمَا قَنْطَرَةٌ حَجَارَةٌ وَكَانَتَا حَصِيَّتَيْنِ جَدًّا عَلَى شَرَفٍ مِنَ الْأَرْضِ يَنْظُرُ مِنْهَا الْجَالِسُ فِي مَسْجِدٍ جَامِعِهَا نَحْوَ الْبَحْرِ أَرْبَعَةَ فَرَاسِخٍ كَالْبَقْعَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ خُضْرَةٌ نَضْرَةٌ جَلِيلَةٌ الْأَهْلِ ، نَفِيسَةٌ الْقَدْرِ ، كَثِيرَةٌ الْأَسْوَاقِ ، حَسَنَةُ الْأَحْوَالِ . وَجِيحَانُ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ بِلَدِ الرُّومِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَصِيبَةِ ثُمَّ إِلَى

(١) يَرِيدُ الْإِسْكََنْدَرِيَّةَ .

رستاق يعرف بالملون فيقع في بحر الروم وكان كثير الضياع غزير الكراع .
 وكانت أذنة مدينة كأحد جانبي المصبصة على نهر سيحان في غربي النهر .
 وسيحان دون جيحان في الكبر ، عليه قنطرة عجيبة البناء طويلة جداً ويخرج
 هذا النهر من بلد الروم أيضاً . وكانت جليلة الأهل ، حسنة المحل ، في كل
 أصل وفصل ، وعلى أصل طريق طرسوس .

فأما مدينة طرسوس فالمدينة المشهورة المستغنى شهرتها عن تحديدتها كبيرة
 عليها سوران من حجارة كانت تشتمل على خيل ورجال وعدة وعتاد وكراع
 وكانت من العمارة والحصب بالغاية إلى رخص عام على مر الأيام وتعاقب الأعوام
 وكان بينها وبين حد الروم جبال متشعبة من اللكام كالحاجز بين العاملين ،
 ورأيت غير عاقل ميمز سيد حصيف مبرز يشار إليه بالدراسة والفهم واليقظة
 والعلم يذكر أن بها مائة ألف فارس وكان ذلك عن قريب عهد من الأيام التي
 أدركتها وشاهدتها وكان السبب في ذلك أنه ليس من مدينة عظيمة من حد
 سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والجبال وطبرستان والجزيرة وأذربيجان والعراق
 والحجاز واليمن والشامات ومصر والمغرب إلا وبها لأهلها دار يتزها غزاة تلك البلدة
 ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلوات وترد عليهم الأموال والصدقات
 العظيمة الجسيمة ، إلى ما كان السلاطين يتكلفونه وأرباب النعم يعانونه وينفلونه
 متطوعين متبرعين ، ولم يكن في ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس إلا وله عليه وقف
 من ضيعة ذات مزارع وغللات أو مسقف من فنادق فهلكوا فكأنهم لم يسكنوها
 حتى لظننتم كما قال الله تعالى : «هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً» .
 وكانت أولاس حصناً على ساحل البحر فيه قوم متعبدون وكان في آخر ما على
 بحر الروم من العمارة فكانت مما بدأ به العدو . وبغرس كان فيه منبر على
 طريق الثغور وكانت فيها دار لزبيدة ولم يكن بالشام دار ضيافة غيرها كبيرة .
 فأما المسافات بالشام فإن طولها من حد ملطية إلى رفح والطريق من ملطية على
 منبج وبينهما ٤ أيام ومن منبج إلى حلب يومان ومن حلب إلى حمص ٥
 أيام ومن حمص إلى دمشق ٥ أيام . . . وعرضها في بعض المواضع أكبر من

بعض وذلك أن أعرضها طرفاها وأحد طرفيها من الفرات من جسر منبج على منبج ثم على قورس في حد قنسرين ثم على العواصم في حد أنطاكية ثم يقطع جبل اللكام إلى بياس ثم إلى التينات ثم إلى المثقب ثم على المصيصة ثم على أذنة ثم على طرسوس وذلك نحو ١٠ مراحل . وإن سلكت من بالس إلى حلب ثم أنطاكية ثم إلى الإسكندرية ^(١) ثم إلى بياس حتى تنتهي إلى طرسوس فالمسافة أيضاً نحو ١٠ مراحل غير أن السمت المستقيم هو الطريق الطويل . . .

وجند قنسرين مدينتها ، غير أن دار الإمارة والأسواق ومجمع ناسها والعمارات بحلب ، فمن حلب إلى بالس يومان ، ومن حلب إلى الأثارب يوم ، ومن حلب إلى قورس يوم ، ومن حلب إلى منبج يومان ، ومن حلب إلى الخناصره يومان . والعواصم قصبتها أنطاكية وكان منها إلى أذنة ٣ مراحل ومنها إلى بغراس يوم ، وإلى الأثارب يومان وإلى حمص ٤ مراحل ومنها إلى مرعش يومان ، وإلى الحدث ٣ مراحل . وأما الثغور فإنه لا قصبة لها وكل مدينة قائمة بنفسها . ومنبج مدينة قريبة من الثغور ومن منبج إلى الفرات مرحلة خفيفة ومن منبج إلى قورس مرحلتان ومن منبج إلى ملطية ٤ أيام ومن منبج إلى سميساط يومان ومن منبج إلى الحدث يومان ومن سميساط إلى شمشاط مرحلتان ومن سميساط إلى حصن منصور يوم ومن حصن منصور إلى ملطية يومان ومن حصن منصور إلى زبطرة يوم ، ومن حصن منصور إلى الحدث يوم ، ومن ملطية إلى مرعش ٣ مراحل كبار ومن مرعش إلى الحدث يوم فهذه مسافات الثغور بالجزيرة . وأما الثغور الشامية فمن الإسكندرية ^(٢) إلى بياس مرحلة خفيفة ، ومن بياس إلى المصيصة مرحلتان ومن المصيصة إلى عين زربة مرحلة ومن المصيصة إلى أذنة مرحلة ومن أذنة إلى طرسوس مرحلة ، ومن طرسوس إلى أولاس على بحر الروم يومان ، ومن طرسوس إلى الجوزات مرحلتان ومن طرسوس إلى بيكاس على بحر الروم فرسخان ، ومن بياس إلى الكنيسة والهارونية أقل من يوم ، ومن الهارونية إلى مرعش من ثغور الجزيرة مرحلة فهذه جملة مسافات الثغور .

(ابن حوقل (١٠٨ - ١٢٧)

(١) ، (٢) يريد الإسكندرية .

الجزيرة

وأما الجزيرة التي بين دجلة والفرات وتشتمل على ديار ربيعة ومضر فمخرج الفرات من داخل بلد الروم على ما سلكته من ملطية على يومين ، ويجرى بينها وبين المدينة المعروفة بسميساط ، وكانت للمسلمين ، ويمر عليها وعلى جسر منبج وبالس إلى الرقة وقرقيسيا والرحبة وهيت والأنبار. وينقطع حد الفرات مما يلي الجزيرة ثم يعود حد الجزيرة في سمت الشمال إلى تكريت وهي مدينة على دجلة حتى تنتهي عليها مصعداً إلى السن مما يلي الجزيرة وإلى الحديثة والموصل ويصعد دجلة إلى جزيرة ابن عمر ثم يتجاوز إلى آمد فينقطع حيثئذ حد الجزيرة وتصد دجلة على أقل من يومين في حد أرمينية ثم يعود الحد مغرباً إلى سميساط ثم ينتهي إلى مخرج ماء الفرات في حد الإسلام من حيث ابتدائه ومخرج دجلة وإن كان في بلد الروم فطالما كان في يد الإسلام وعلى يسار دجلة وغربي الفرات مدن وقرى تنسب إلى الجزيرة وهي خارجة منها وبأثنت عنها سأذكرها بما يدل على حالها إن شاء الله تعالى .

وأما حدودها ومسافاتها فمن مخرج الفرات في حد ملطية إلى سميساط يومان ، ومن سميساط إلى جسر منبج ٤ أيام ، ومن الجسر إلى بالس ٤ أيام ، ومن بالس إلى الرقة يومان ، ومن الرقة إلى الأنبار ٢٠ يوماً ، ومن الأنبار إلى تكريت يومان في نفس البرية ، ومن تكريت إلى الموصل ٦ أيام ، ومن الموصل إلى آمد ١٤ يوماً ، ومن آمد إلى سميساط ٣ أيام ، ومن سميساط إلى ملطية ٣ أيام . ومن الموصل إلى بلد مرحلة ، ومن بلد إلى نصيبين ٥ مراحل ... ومن نصيبين إلى رأس عين ٣ مراحل ، ومن رأس عين إلى الرقة ٤ أيام ، ومن رأس عين إلى حرّان ٣ أيام ، ومن حرّان إلى جسر منبج يومان ، ومن حرّان إلى الرها يوم ، ومن الرها إلى سميساط يوم ، ومن حرّان إلى الرقة ٣ أيام .

ومدينة آمد على جبل من غربي دجلة مطل عليها نحو مائة قامة وعليها سور

أسود من حجارة الأرحية ويسمى ذلك السور ميموناً من شدة سواده وذلك أنه من حجارة أرحية الجزيرة وليس لهذه الحجارة على وجه الأرض نظير ، ومنها ما يساوى الخمسين ديناراً وأقل وأكثر بالعراق وهي كثيرة الشجر ولها مزارع — بداخل سورها ومياه وطواحين على عيون تنبع منها وكان لها ضياع ورساتيق وقصور ومزارع برسمها هلكت لضعفهم واقتدار الروم عليهم وقلة المغيث الناصر . . . وأجل مدينة لدير مضر الرقة . . . وفي غربي الفرات بين الرقة وبالس أرض صفين ، وبها قبر عمار بن ياسر (رضه) وأكثر أصحاب أمير المؤمنين علي عليه السلام . .

ومدينة حرّان تليها في الكبر وهي مدينة الصابئين وبها سدنهم ولهم بها تل عليه مصلّى الصابئين يعظمونه وينسبونه إلى إبراهيم ، وهي من بين تلك المدن قليلة الماء والشجر ، وكانت زروعها مباحس ، وكان لها غير رستاق عظيم وكورة جليلة فافتتح الروم أكثرها وأناخت بنو نمر وبنو عقيل بعقوقها وبقعتها فلم تبق بها باقية ولا في رساتيقها ثاغية ولا راغية . وهي مدينة في بقعة يحفّ بها جبل مسيرة يومين في مثلها مستواة ، ومدينة الرها في شمال هذه البقعة ، وكانت وسطة من المدن والغالب على أهلها النصارى ، وبها زيادة على ثلاث مائة بيعة ودير وصوامع فيها رهبانهم ولهم فيها بيعة ليس للنصرانية أعظم ولا أبدع صنعة منها ، ولها مياه وبساتين وزروع كثيرة ، نومة وهي أصغر من كفرثوثا ، وكان بها منديل لعيسى ابن مريم (عم) فخرج ملك الروم في بعض خرجاته ونزل بهم وحاصرهم وطالبهم به فسلموه إليه على هدنة وافقوه على مدتها . وجسر منبج — وسميساط مدينتان نزهتان ذواتا مياه وبساتين ومباحس وأشجار وهما عن قرب من الفرات في حال اختلال ورزوح حال .

غزوات سيف الدولة الأولى ضد البيزنطيين

[٣٢٦ هـ ٩٣٧ - ٩٣٨ م]

[٣٢٨ هـ ٩٣٩ - ٩٤٠ م]

من جملة غزوات سيف الدولة غزاة سنة ست وعشرين ، خرج في ذى القعدة منها حتى صار إلى حصن دادم ، ووجه الحسن بن علي القوأس في سرية إلى حصن التل ، وسار سيف الدولة إلى حصن زياد فسار وفتح وأقام عليه سبعة أيام ، ووافاه الدمستق في مائتي ألف فانكفاً راجعاً يطلب شمشاط وخيول الروم تسايه ، فنزل ضيعة تعرف بالمقدمية وهم بمناجزة الروم ، ثم تطير باسمها فلما كان يوم النحر وصل إلى موضع بين حصني سلام وزياد فتفادل بأسمائهما ووقف ، وأقبلت عساكر الروم وانقطع عنها موكب قد أجاروه في نحو عشرين ألف بطريق ، ووقع القتال وحمل سيف الدولة في غلمانها وغلामه يماك وعبد الأعلى بن مسلم فهزم الله الروم وأسر منهم سبعين بطريقاً ولم يزل القتال والأسر فيهم إلى الليل ، وأخذ سرير الدمستق وكرسیه .

* * *

وفي سنة ثمان وعشرين خرج سيف الدولة من نصيبين غازياً فنزل منازل كرد يريد مدينة قاليقلا وكان الروم قد بنوا حذاءها مدينة سموها هفجيج فلما علم الروم بمسيره أخبروا المدينة التي بنوها وهربوا ، ففي ذلك يقول النامي :

ونادى الهدى مستصرخاً فأجبت به بقاليقلا إذ أنت بالحيل سهُما
ولم تتد هفجيج أيدي بُنائها أبدتهم تحت السنايك رغما
لئن حسنت عنراء والبحر خلدوها لقد وجدت فيه ثكولا وأيما

قال ولما هدم الروم المدينة وهربوا رجع سيف الدولة فأقام بأرزن حتى انحسر الثلج وأمكن الغزو ، ثم خرج إلى خلاط ودخل بلد الروم بعد أن جاءه ملك

أرمينية وخزران وما وطئ بساط ملك قط فأحسن إليه وخلع عليه وتسلم منه حصوناً كانت ضرراً على المسلمين وردّه إلى بلده سالماً بعد أن استخلفه على الطاعة وحماية السبل . ووردت عليه كتب ملوك أرمينية وخزران بالطاعة والانقياد ثم سار إلى ابن طرنيق وأناخ على مدينة موش فخرّبها وهدم بيعة جلييلة القدر عند النصرانية ، ودخل إلى بلد الروم فهدم حصوناً كثيرة وفتح قلاعاً منيعة ووطئ مواطئ لم يطاها أحد من المسلمين قبله ، وورد إليه كتاب ملك الروم بما أحفظه فأجابه عنه جواباً شديداً وأنفذه إليه . فقال الملك لرسول سيف الدولة : يكاتبني هذه المكاتبه كأنه قد نزل على قلونية استعظماً لذلك . فاتصل قوله بسيف الدولة فعزم على قصد قلونية أو يفتحها الله على يديه فكأنه رأى في بعض أصحابه استعظماً للأمر فقال : لست أقنع عن قصد هذه المدينة فإما الظفر وإما الشهادة فسار حتى نزل عليها وأحرق رسايقها وسلب ضياعها وكتب إلى الدمستق وهو إلى الملك كتاباً من قلونية فاستعظم الروم هذا الفعل وخافوه خوفاً عظيماً لأنه بلد ماوطئه أحد من المسلمين . ثم رجع سيف الدولة منها فساوره الدمستق فأوقع به سيف الدولة وقتل من الروم مقتلة لا يحصوها إلا الله تعالى .

ابن ظافر (١ : ٢ - ٣)

رواية أخرى

لحملة سنة ٣٢٨ هـ (٩٣٩ - ٩٤٠ م)

قيل وفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة سار سيف الدولة من ميافارقين إلى أرمينية ونزل بطيطوانة ^(١) على البحيرة واستدعى بابن جاجيق بن الديراني ^(٢) وأحمد بن عبد الرحمن أبي المعز صاحب خلاط وذات الجوز وأرجيش وبركري

(١) وهي طاوان Tadvan على الشاطئ الغربي لبحيرة « وان » على مسافة ٢٠ كيلومتراً جنوبي خلاط .

(٢) ملك واسهورك : المتوفى ٩٤٣ م . Gagi K.B. al-Dayrani

وعبد الحميد صاحب منازجرد ودشت الورك والهرك وأشوط بن جرجور بطريق البطارقة ^(١) بأرمينية وحضروا لديه وأخذ من ابن الديراني حصن شهران والحامد وبلدانها وما جاورها وأخذ من أحمد بن عبد الرحمن بدليس وما جاورها ، وأخذ من أشوط بلد السناسنة ^(٢) وفتحها وملك قلعة قلب وحصن سليمان وأعمالها ، ورد ملوك أرمينية فوصلوا تحت حكمه وفي خدمته وسار إلى بلد ابن المرزبان وبلد الخالدية فنهب وسبي منه خلقاً عظيماً وفتح حصونهم أجمع وذلك في مدة خمسين يوماً وعاد .
(ابن الأزرقي ج ١ ص ١١١ - ١١٢)

الحرب بين العرب والبيزنطيين خلال غياب سيف الدولة

٣٣٠ - ٣٣٣ هـ ٩٤١ - ٩٤٤ م

في سنة ثلاثين وثلاثمائة في ربيع الآخر وصل الروم إلى قريب حلب ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا نحو خمسة عشر ألف إنسان ، وفيها دخل الثملي من ناحية طرسوس إلى بلاد الروم فقتل وسبي وغنم وعاد سالماً وقد أسر عدة من بطارقهم المشهورين .
في سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وافت جيوش الروم إلى ديار بكر وسبوا من أهلها جماعة كثيرة وفتحوا أرزن وأخربوا عامة بلدها وبلغوا قرب نصيبين والتمسوا من أهل الرها أن يدفعوا إليهم الأيقونة المنديل الذي في كنيسة الرها الذي كان سيدنا يسوع المسيح مسح به وجهه فصارت صورة وجهه فيه وبذل الروم لهم أنهم إذا سلموهم هذا المنديل أطلقوا من الأسرى المسلمين الذين في أيديهم عدداً

(١) هو نفس ابن طورنيق الذي ذكره ابن ظافر . وكان بطريق البطارقة لقب يطلق إذ ذاك على ملك الملوك في أرمينية .

(٢) بلاد السناسنة . وفي التعبير العامي في حلب يطلق على الأرمن الذين يتولون مهنة خبز الخبز في الأفران « الصواصنة » ، وكانت هذه المهنة قديماً خاصة بهم ، والسناسنة منطقة جبلية في جبال طوروس جنوبي طاروق ، تقطنها عشيرة أرمينية من الصواصنة .

ذكروه لهم . فكاتبوا المتقى بذلك وعرض الوزير أبو الحسين بن مقله على المتقى
الوارد في هذا المعنى واستأذنه فيما يعمل . فأمره بإحضار القضاة والفقهاء واستبيانهم
في ذلك والعمل بما يقولون ، واستحضرهم الوزير أبو الحسين بن مقله واستحضر
علي بن عيسى والوجه من أهل المملكة وعرفهم ما ورد في هذا المعنى وسألهم عما
عندهم فيه وجرى في ذلك خطب طويل ذكر فيه بعض من حضر حال هذا
المنديل وأنه منذ الدهر الطويل في هذه البيعة لم يلتمسه ملك من ملوك الروم ، وأن
في دفعه غضاضة على الإسلام . والمسلمون أحق بمنديل عيسى عليه السلام وفيه
صورته . فقال علي بن عيسى : إن خلاص المسلمين من الأسر وإخراجهم من
دار الكفر مما يقاسونه من الضر والضرر أوجب وأحق . ووافقته جماعة من
حضر على قوله وأشار هو وغيره من قضاة المسلمين بتسليم الأسارى منهم وتسليم
المنديل إليهم إذ لا طاقة للسلطان بهم ولا له حيلة في استنقاذ الأسارى من
أيديهم . وعمل في ذلك محضراً وأخذ في ذلك خطوط الجماعة الذين حضروا
وعرض على المتقى وأمر بكتب الجواب بالعمل بذلك ، واستقر الأمر بين أهل
الرها وبين الروم على أن يدفعوا إليهم مائتي نفس من المسلمين ممن كانوا أسروهم ،
وشرط أهل الرها عليهم ألا يعبروا فيما بعد على بلدهم وعقدوا بينهم هدنة مؤبدة .
وتسلم الروم المنديل وحملوه إلى القسطنطينية ودخل به إليها في اليوم الخامس عشر
من آب ، وخرج أصطفان والبطريك ثاؤفيلقطس أخوه وقسطنطين أولاد رومانوس
الملك إلى باب الذهب مستقبليين له ، ومشى أهل الدولة بأجمعهم بين يديه
بالشمع الكثير وحمل إلى الكنيسة العظمى أجبا صوفيا ومنها إلى البلاط وذلك في
السنة الرابعة والعشرين منذ ملك رومانوس الشيخ مع قسطنطين بن لاون . ولم
تزل هذه الهدنة مستمرة بين الروم وبين أهل الرها إلى أن نقضها سيف الدولة في
سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة فإنه ألزم أهل الرها الغزو معه في سنة غزاة المصبيصة
فهلك فيها كثير منهم .

وعاد الروم إلى ديار بكر في هذه السنة وفتحوا مدينة دارا يوم الخميس
لعشر خلون من شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة ، ورجعوا دفعة أخرى

ودخلوا رأس عين يوم الثلاثاء لاثني عشر ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وأقاموا فيها يومين وسبوا من أهلها زهاء ألف نفس وانصرفوا.

(يحيى بن سعيد)

٧٣٠ - ٧٣٣ - (٣٢ - ٣٥)

أحداث سنة ٣٣٣ هـ - ٩٤٤ م

فيها غزا سيف الدولة بلاد الروم وردّ سالمًا بعد أن بدع في العدو، وسبب هذه الغزاة أنه بلغ الدمستق ما فيه سيف الدولة من الشغل بحرب أضداده ^(١) فسار في جيش عظيم وأوقع بأهل بغراس ومرعش وقتل وأسر، فأسرع سيف الدولة إلى مضيق وشعاب فأوقع بجيش الدمستق وبينهم واستنقذ الأسارى والغنيمة وأنهزم الروم أقبح هزيمة. ثم بلغ سيف الدولة أن مدينة للروم تهدم بعض سورها وذلك في الشتاء فاغتم سيف الدولة الفرصة وبادر فأناخ عليها وقتل وسبي لكن أصيب بعض جيشه.

(الذهبي ١ - ١٦٠)

أحداث سنة ٣٣٦ - ٣٣٨ هـ

٩٤٧ - ٩٤٩ م

نزل سيف الدولة على حصن برزويه وحاصره في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وفيه يومئذ أبو تغلب الكردي ونزل لاون بن بردس الدمستق الفوقاس على الحدث وحاصره ووافى نكير الحدث إلى سيف الدولة يستعينون به فأقسم أنه لا رحل عن حصن برزويه أو يفتحه، وفتح لاون حصن الحدث بالأمان وأخرب سوره وفتح سيف الدولة حصن برزويه في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وسار إلى ميفارقين

(١) بينا كان سيف الدولة مشغولا بالحرب الداخلية كان البيزنطيون يواصلون زحفهم.

واستخلف بحلب محمد بن ناصر الدولة ونزل لاون على بوقا وخرج محمد بن ناصر الدولة للقائه من حلب فأوقع لاون لمحمد وبلحماة من أصحابه وقتل منهم زهاء أربع مائة رجل وأمر خلقاً كثيراً وذلك في سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة .
وفي شهر ربيع الأول من هذه السنة فتح الروم مدينة قاليقلا وملكوها وهدموا سورها وأعطوا أهلها الأمان وانصرفوا عنها .

(يحيى بن سعيد ٧٦٧ - ٧٦٨)

أحداث سنة ٣٣٩ هـ - ٩٥٠ م

وفيها غزا سيف الدولة . . . فسار في ربيع الأول ووافاه عسكر طرسوس في أربعة آلاف عليهم القاضي أبو حصين فسار إلى قيسارية ثم إلى القبدق ووغل في بلاد الروم وفتح عدة حصون وسبي وقتل ، ثم سار إلى سمندو ثم إلى خرشنة يقتل ويسبي ، ثم إلى بلد صاريحة وبينها وبين قسطنطينية سبعة أيام ، فلما نزل عليها واقع الدمستق مقدمته فظهرت عليه فلجأ إلى الحصن وخاف على نفسه ، ثم جمع والتقى سيف الدولة فهزمه الله أقبح هزيمة وأسرت بطارقه وكانت غزاة مشهورة ، وغنم المسلمون ما لا يوصف وبقوا في الغزو أشهراً ، ثم إن الطرسوسيين قفلوا ورجع العربان ورجع سيف الدولة في مضيق صعب فأخذت الروم عليه الدروب وحالوا بينه وبين المقدمة وقطعوا الشجر وسدوا به الطرق ودهدوها الصخور في المضائق على الناس والروم وراء الناس مع الدمستق يقتلون ويأسرون ولا منفذ لسيف الدولة ولكن معه أربعمائة أسير من وجوه الروم فضرب أعناقهم وعقر جماله وكثيراً من دوابه ، وحرق الثقل وقاتل قتال الموت ونجا نفر يسير ، واستباح الدمستق أكثر الجيش وأسّر أمراء وقضاة ووصل سيف الدولة إلى حلب ولم يكد ، ثم مالت الروم فعاثوا وسبوا وتزلزل الناس ثم لطف الله تعالى وأرسل الدمستق إلى سيف الدولة يطلب الهدنة فلم يجب سيف الدولة وبعث يتهده ثم جهز جيشاً ، فدخلوا بلاد الروم من ناحية حرّان فغنموا وأسروا خلقاً وغزا أهل طرسوس أيضاً في البحر والبر

ثم سار سيف الدولة من حلب إلى آمد فحارب الروم وخرّب الضياع وانصرف سالماً . وأما الروم فإنهم احتالوا على أخذ آمد وسعى لهم في ذلك نصراني على أن ينقب لهم نقباً من مسافة أربعة أميال حتى وصل إلى سورها ففعل ذلك وكان نقباً واسعاً فوصل إلى البلد من تحت السور ، ثم عرف به أهلها فقتلوا النصراني وأحكموا ما نقبه وسدوه ، ومعنى الدمستق نائب البلاد في شرق قسطنطينية .

(الذهبي ١ - ١٦٣)

* * *

قال أبو الطيب : وقد ركب سيف الدولة في بلد الروم من منزل يعرف بالسنبوس في جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وثلثمائة وأصبح وقد صف الجيش يريد سمندو وكان أبو الطيب متقدماً فالتفت فرأى سيف الدولة خارجاً من الصفوف يدير رحماً فعرفه فردّ الفرس إليه فسايره وأنشده :

لهذا اليوم بعد غد أريجُ	ونارُ في العلو لها أجيجُ
عرفتك والصفوفُ معباتُ	وأنت بغير سيفك لا تعيجُ
رضينا والدمستق غيرُ راضٍ	بما حكم القواضبُ والوشيجُ
فإن يقدمُ فقد زرنا سمندو	وإن يحجم فوعدنا الخليجُ

ومر سيف الدولة في هذه الغزاة بسمندو وعبر آلس وهو نهر عظيم ونزل على صارخة فأحرق ربضها وكنائسها وربض خرشنة وما حولها فأكثر القتل وأقام أياماً ، ثم رحل حتى عبر آلس راجعاً ، فلما أمسى ترك السواد وأكثر الجيش وسرى حتى جاز خرشنة وانتهى إلى بطن اللقان في غد ظهراً ، فلقى الدمستق به ، وكان الدمستق في ألف من الخيل ، فلما نظر إلى أوائل خيل المسلمين ظنّها سرية فثبت لها وقاتل حتى هزمهم ، وأشرف عليه سيف الدولة ، فانهزم الدمستق فقتل من فرسانه خلق كثير وأمر من بطارفته وزراورته وجوه رجاله نيف على ثمانين ،

وأفلت الدمستق وعاد سيف الدولة إلى عسكره وسواده ، فقفل غانماً ، فلما وصل إلى عقبة تعرف بمقطعة الأنفار صافته العدو على رأسها وأخذ ساقة الناس يحميهم ، فلما انحدر بعد عبور الناس وكبه العدو ، فجرح من الفرسان جماعة ، وتزل سيف الدولة على برّدى وهذا نهر ، وضبط العدو « عقبة الشير » وهي عقبة صعبة طويلة فلم يقدر على صعودها لضيقها وكثرة العدو بها ، فعدل متياسراً في طريق وصفه له بعض الأدلة وأخذ ساقة الناس ، وكانت الإبل كثيرة مثقلة معية ، وجاءه العدو آخر النهار من خلفه فقاتله إلى العشاء وأظلم الليل وتسلس أصحاب سيف الدولة سوادهم فلما خف عنه أصحابه سار حتى لحق السواد تحت عقبة قريبة من بحيرة الحدّث فوقف وقد أخذ العدو الجبلين من الجانبين وجعل سيف الدولة يستنفر الناس ولا ينفر أحد منهم ومن نجا من العقبة نهراً لم يرجع ، ومن بقي تحتها لم يكن فيه نصرة ، وتخاذل الناس ، وكانوا قد ملّوا السفر فأمر سيف الدولة بقتل البطارقة والزراورة وكل من كان في السلاسل وكان فيها ميات ، وانصرف سيف الدولة واجتاز أبو الطيب آخر الليل بجماعة من المسلمين بعضهم نيام بين القتلى من التعب ، وبعضهم يحركونهم فيجهزون على من ترك فلذلك قال :

وجدتموهم نياماً في دمائكم كأن قتلاكم إياهم فجعوا

أحداث سنة ٣٤٠ هـ - ٩٥١ م

توقف سيف الدولة في الغزاة الصائفة في جمادى الأولى من سنة أربعين وثلاثمائة ببقعة عربسوس على إحراق القرى ، ثم أصبح صافاً يريد سمندو ، وقد اتصل أن العدو جامع معدّ في أربعين ألفاً فهيب جيش سيف الدولة الإقدام عليها وأحب سيف الدولة المسير إليها فاعترضه أبو الطيب فأنشده ، فلما بلغ قوله :

وإن كنت سيف الدولة العضبى فيهم فدعنا نكنّ قبل الضراب القنا اللدنا

قال له سيف الدولة : قل هؤلاء ... وأوماً بيده إلى من حوله من العرب والعجم
يقولون كما تقول حتى لا ننثنى عن الجيش فما تجمل أحد منهم بكلام. والقصيدة.
نزور دياراً ما نحب لها مغنى ونسأل فيها غير ساكنها إلا ذناً
وقال أيضاً يمدحه ويذكر هذه الغزاة وأنه لم يتم قصد خرشنة بسبب الثلج
وهجوم الشتاء :

عواذل ذات الخال في حواسد وإن ضجيع الخود منى لماجد

بناء قلعة رعبان ومرعش

رعبان مدينة بالشغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة في العواصم ،
وهي قلعة تحت جبل خربتها الزلزلة سنة أربعين وثلاثمائة فأنفذ سيف الدولة أبا فراس
ابن حمدان في قطعة من الجيش ، فأعاد عمارتها في سبعة وثلاثين يوماً فقال أحد
شعرائه يمدحه :

أرضيت ربك وابن عمك والقنا وبذلت نفساً لم تزل بذأها
ونزلت رعباناً بما أوليتها تشى عليك سهوها وجبالها
(ياقوت ٢ - ٧٩١)

أول الشغور مما يلي جبل اللكام مرعش . . . أخربتها الروم سنة سبع وثلاثين
فبناها سيف الدولة بن حمدان في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة وجاء الدمستق لينزع
من بنائها فقصده سيف الدولة فولى هارباً وتم سيف الدولة عمارتها .
(ابن الشحنة ١٩١ - ١٩٢)

من حلب إلى ديار مضر

فيها رحل سيف الدولة من حلب إلى ديار مضر لاضطراب البلاد بها فتنزل
حران ، فأخذ رهائن بني عقيل وقشير وعجلان ، وحدث له بها رأى في الغزو ،
فعبّر الفرات إلى دلوكة إلى قنطرة صنجة ، درب القلة ، فشن الغارة على أرض

عرفة ، وملطية وعاد ليعبر الفرات من درب موزار ، فوجد العدو قد ضبطه عليه فرجع وتبعه العدو فعطف عليه فقتل كثيراً من الأرمن ورجع إلى ملطية وعبر قباقيب وهو نهر حتى ورد المخاض على الفرات تحت حصن يعرف بالمنشار ، فعبّر إلى نهر هتريط ، وسُمنين ، ونزل بحصن الران ورحل إلى سميساط فورد عليه بها من خبره أن العدو في بلد المسلمين فأسرع إلى دُلوك ، وعبرها فأدركه راجعاً على جيحان فهزمه وأسر قسطنطين بن الدمستق ، وجرح الدمستق في وجهه وكان الإيقاع به يوم الاثنين لعشر خلون من ربيع الأول فقال أبو الطيب يصف ما كان في جمادى الآخرة من هذه السنة :

ليالى بعد الظاعنين شكول	طوال وليل العاشقين طويل...
رمى الدرب بالجرّد الجياد إلى العدي	وما علموا أن السهام خيول
شوائل تشوال العقارب بالقنا	لها مراح من تحته وصهيل
وما هي إلا خطرة عرضت له	بحران لبثها قنا ونصول
فلما تجلّى من دلوك وصنجة	علت كل طود راية ورعيل
وأمسى السبايا يتحببن بركة	كان جيوب الثاكلات ذبول
وعادت فظنوها بموزار قفلا	وليس لها إلا الدخول قفول
فخاضت نجيع القوم خوضاً كأنه	بكل نجيع لم تخضه كفيل
تسايرها النيران في كل منزل	به القوم صرعى والديار طلّول
وكرّت فرّت في دماء ملطية	ملطية أم للبنين ثكول
وأضعفن ما كلفته من قباقيب	فأضحى كأن الماء فيه عليل
ورعن بنا قلب الفرات كأنما	تخرّ عليه بالرجال سيول
يطارد فيه موجه كل سابع	سواء عليه غمرة ومسيل
نراه كأن الماء مرّ بجسمه	وأقبل رأس وحده وتليل
وفي بطن هتريط وسمنين للظبي	وصم القنا من أبدن بدليل
طلعن عليهم طلعة يعرفونها	لها غرر ما تنقضي وحجول
تمل الحصون الشم طول نزالنا	فتلقى إلينا أهلها وتزول

وبتن بحصن الران رزحى من الوجى
 وفى كل نفس ما خلاه ملالة
 ودون سميساط المطامير والملا
 لبسن الدجى فيها إلى أرض مرعش
 فلما رآوه وحده قبل جيشه
 وأن رماح الخط عنه قصيرة
 فودع قتلاهم وشيع فلتهم
 على قلب قسطنطين منه تعجب
 لعلك يوماً يا دمستق عائد
 أتسلم للخطية ابنك هارباً
 بوجهك ما أنساكه من مرشة
 وكل عزيزي للأمير ذليل
 وفى كل سيف ما خلاه فلول
 وأودية مجهولة وهجول
 وللروم خطب في البلاد جليل
 دروا أن كل العالمين فضول
 وأن حديد الهند عنه كليل
 بضرب حزون البيض فيه سهول
 وإن كان في ساقيه منه كبول
 فكم هارب مما إليه يثول
 ويسكن في الدنيا إليك خليل
 نصيرك منها رنة وعويل

غزوة ملاطية وشاطي الفرات

وقال ابن شداد في الأعلام الخطيرة : وفى سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة غزا
 سيف الدولة ملطية وشاطي الفرات وقتل من الروم وسبي وأسر قسطنطين ابن
 الدمستق ولم يزل عنده إلى أن مات في أسره . وكان كتب إلى أبيه الدمستق
 بإكرام سيف الدولة ، وهو الذى كان يخدمه في مرضه ، فرأى منه الشفقة واللفظ
 الذى فعله ، وقيل إن قسطنطين المأسور كان في غاية الحسن ، فبذل أبوه فيه
 ثمانمائة ألف دينار وثلاثة آلاف أسير فاشتط سيف الدولة فسير الدمستق إلى
 عطار نصراني بحلب وأمره أن يسقى ولده سمًا ، ففعل ومات وعدت هذه من
 غلطات سيف الدولة .

بناء قلعة الحدث

أحداث سنة ٣٤٣ هـ - ٩٥٤ م

سار سيف الدولة نحو ثغر الحدث لبنائها ، وقد كان أهلها أسلموها إلى الدمستق بالأمان سنة سبع وثلاثين فنزل سيف الدولة يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة ، سنة ثلاث وأربعين وبدأ يومه فحط الأساس وحفر أوله بيده ، ابتغاء ما عند الله تعالى ذكره ، فلما كان في يوم الجمعة نازله ابن الفقاس دمستق النصرانية في نحو خمسين ألف فارس وراجل من جموع الروم والروس والصقلب والبلغر والخزرية ، ووقعت المصافة يوم الاثنين انسلاخ جمادى الآخرة من أول النهار إلى وقت العصر ، وإن سيف الدولة حمل عليه بنفسه في خمسمائة من غلمان وأصناف رجاله ، فقصد موكبه وهزمه ، وأظفروه الله تعالى به ، وقتل نحو ثلاثة آلاف رجل من مقاتلته وأسر خلقاً من اسخلايته وأراخيته فقتل أكثرهم واستبقى بعضهم وأسر تودس الأعور بطريق سمندوا ولقمندوا وهو صهر الدمستق ، واسر ابن ابنة الدمستق وأقام على الحدث إلى أن بناها ووضع آخر شرافة منها بيده في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب فقال أبو الطيب وأنشدها إياه بعد الوقعة بالحدث :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

أحداث سنة ٣٤٤ هـ - ٩٥٥ م

ورد على سيف الدولة الخبر آخر النهار يوم الثلاثاء لست خلون من جمادى الأول سنة أربع وأربعين وثلاثمائة بأن الدمستق وجيوش النصرانية قد نازلت ثغر الحدث في يوم الأحد ونصبت مكاييد الحصون عليه ، وقدّرت أنها فرصة لما

تداخلها من القلق والانزعاج والوصم في تمام بنائه على يد سيف الدولة ولأن ملكهم ألزمهم قصدها وأنجدهم بأصناف الكفر من البلغرة والروس والصقلب وغيرهم ، وأنفذ معهم العدد. فركب سيف الدولة لوقته نافرأً ، وانتقل إلى غير الموضع الذي كان فيه ونظر فيما يجب النظر فيه في ليلته ، وسار عن حلب غداة يوم الأربعاء لسبع خلون فنزل رعبان وأخبار الحدث مستعجمة عليه لضبطهم الطرق وتقديرهم أن يتخفى عليه خبرهم فلما أسحر لبس سلاحه وأمر أصحابه بمثل ذلك وسار زحفاً. فلما قرب من الحدث عادت إليه الطلائع بأن عدو الله لما أشرفت عليه خيول سيف الدولة على عقبة تسمى العبراني رحل ولم يستقر به دار وامتنع أهل الحدث من البدار بالخبر خوفاً من كمين يعترض للرسل ، فنزل سيف الدولة بظاهرها وذكر خليفته بها أنهم نازلوه وحاصروه فلم يخله الله عز وجل من نصرة عليهم إلا في نقوب نقيبها في فصيل كان قديماً للمدينة وأتتهم طلائعهم بخبر سيف الدولة في إشرافه على ثغر رعبان فوقعت الضجة فيهم وظهر الاضطراب وولّى كل فريق على وجهه ، وخرج أهل الحدث فأوقعوا ببعضهم وأخذوا آلة حربهم فأعدوها في حصنهم فقال أبو الطيب :

ذى المعالي فليعلّون من تعالى	هكذا هكذا وإلا فلألا ..
لا ألوم ابن لاون ملك الرو	م وإن كان ما تمنى محالا
أقلقته بنية بين أذنب	ه وبان بغى السماء فبالا
كلما رام حطها اتسع البند	ى فغطى جبينه والقذالا
يجمع الروم والصقالب والبله	ار فيها وتجمع الآجالا
قصدوا هدم سورها فبنوه	وأثوا كى يقصّروه فطالا
واستجروا مكاييد الحرب حتى	تركوها لها عليهم وبالا
إن دون التى على الدرب والأح	دب والنهر مغلطاً مزبالا
غضب الدهر والملوك عليها	فبناها في وجنة الأرض خالا
فهي تمشى مشى العروس اختيالاً	وتثنى على الزمان دلالة ...

أحداث سنة ٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م

سنة خمس وأربعين وثلثمائة ، فيها غزا الأمير سيف الدولة ووطئ من أرض الروم موطناً لم يطأه المسلمون منذ ثلاثين سنة ، وكان قد أخذ معه سفناً مملوكة وأطوافاً تعبر عليها نهر أرسناس وقصد مدينة تل بطريق فأحرقها وبلغ من الروم مبلغاً عظيماً وقتل منهم نحو أربعة آلاف رجل وغنم ما يفوت الإحصاء من الدواب والديباج وعاد سالماً إلى آمد فدخلها وأنشد في ذلك أبو الطيب قصيدته التي أولها :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثاني
(ابن ظافر ١ - ٨)

* * *

غزا سيف الدولة إلى بطن هتريط في سنة خمس وأربعين وثلثمائة ونزل شاطئ نهر أرسناس وعبر إلى الجانب الآخر في الزواريق وكان يأنس بن الشمشقيق في تل بطريق ، فكبسه سيف الدولة فانهزم ابن الشمشقيق ، وفتح سيف الدولة تل بطريق ، وانثنى سيف الدولة قافلاً إلى الدرب الذي يقال له درب الحياطين وألقى الدمستق وابن الشمشقيق قد أخذوا الدرب وأشحناه بالرجال ، فانتشب القتال بينهم ، واستظهر سيف الدولة عليهما ، وكان سيف الدولة قد خلف بدلولك أبا العشائر الحسين بن علي بن الحسين بن حمدان ، ورسم له التزول على حصن عرمدا وبناء وخرج لاون البطريق ابن الدمستق ، ولقبه أبو العشائر فأسره لاون وحمله إلى القسطنطينية ومات في الأسر . . . وغزا سيف الدولة في سنة خمس وأربعين وثلثمائة ، وأنفذ سريره إلى سمندو فوجدوا إستراتيغوس بن البلنطس ، وأسروه وقتل وأحرق وأسر وعاد وقصد سيف الدولة حصن زياد وحاصره واتصل به أن الدمستق متوجه إلى الشام فتسرع إلى لقائه ودفعه .

يحيى بن سعيد

٧٧٢ - ٧٧٤ (٧٤ - ٧٦)

* * *

في هذه السنة في رجب سار سيف الدولة في جيوش إلى بلاد الروم وغزاها حتى بلغ خرشنة وصارخة وفتح عدة حصون وسبي وأسر وأحرق وخرّب وأكثر القتل فيهم ورجع إلى أذنة فأقام بها حتى جاءه رئيس طرسوس فخلع عليه وأعطاه شيئاً كثيراً وعاد إلى حلب ، فلما سمع الروم بما فعل جمعوا وساروا إلى ميفارقين وأحرقوا سوادها ونهبوه وخرّبوا وسبوا أهله ونهبوا أموالهم وعادوا . .

وفيها في جمادى الآخرة سار الروم في البحر فأوقعوا بأهل طرسوس وقتلوا منهم ألفاً وثمانمائة رجل وأحرقوا القرى التي حولها .

(ابن الأثير ١٧١ - ١٧٢)

آخر قصائد المتنبي في غزوات سيف الدولة

قال وقد تحدث بحضرة سيف الدولة أن البطريق أقسم عند ملكه أنه يعارض
سيف الدولة في الدرب وسأله أن ينجده ببطارقه وعِدَّده وعَدَّده وفعل فخاب ظنه :
أنشد إياها سنة خمس وأربعين وثلثمائة وهي آخر ما أنشده بحلب :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندمُ	ماذا يزيدك في إقدامك القسمُ
وفي اليمين على ما أنت واعده	ما دل أنك في الميعاد منهمُ
آلى الفتى ابن شمشقيق فأحتشه	فتى من الضرب تُنسى عنده الكلمُ
وفاعل ما اشتى يغنيه عن حليفٍ	على الفعال حضور الفعل والكرمُ
كل السيوف إذا طال الضراب بها	يمسها غير سيف الدولة السامُ
لو كلت الحيل حتى لا تحمله	تحملته إلى أعدائه الهممُ
أين البطاريقُ والحلف الذى حلفوا	بمفرق الملك والزعم الذى زعموا
ولتى صوارمه إكذاب قولهمُ	فهن ألسنة أذواها القممُ

إلى آخر القصيدة وهي مشهورة . . .

أحداث سنة ٣٤٦ - ٣٤٨ هـ : ٩٥٧ - ٩٦٠ م

نزل الدمستق على حصن الحدث وفتح صليحا في شهر ربيع الأول سنة
ست وأربعين وثلثمائة وآمن أهله وانصرفوا إلى حلب وأخرب الدمستق حصن
الحدث وسار يأنس بن الشمشقيق إلى ناحية آمد وأرزن ومياقارقين ونزل على
حصن يقال له اليماني من عمل آمد في سنة سبع وأربعين وثلثمائة وسير إليه سيف الدولة
غلامه نجا الكاسكى في عشرة آلاف والتقاها ابن الشمشقيق وانهزم نجا
وقتل الروم من عسكره زهاء خمسة آلاف وأسروا نحو ثلاثة آلاف واستولوا على

جميع سواد نجا وسار أيضاً بسيل الباركومنس ^(١) ويأنس بن الشمشقيق ونزلا على سميساط وفتحها في بعض يوم ورحلا عنها إلى رعبان وحاصراها فصار سيف الدولة وتبعه ابن الشمشقيق فأوقع بعسكره وقتل وأسرف في أهله وأصحابه ووجوه غلمانته ما يكثر عدده وذلك في شعبان سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، وأدخل إلى القسطنطينية من الأسرى ألفاً وسبعمائة فارس وطوف بهم وهم ركاب خيولهم ولا بسون سلاحهم . وغارت الروم على قورس ^(٢) وسبوا خلقاً من أهلها وأسرى إليهم سيف الدولة واستخلص الأسرى .

وفي هذه السنة مات قسطنطين بن لاون ملك الروم في تشرين الثاني سنة ألف ومائتين وإحدى وسبعين وهو شعبان سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة وكان جملة ما ملك منذ مات عمه الإسكندر وإلى أن شاركه في الملك رومانوس الشيخ وولده وصفا له وانفرد به إلى أن مات ثمان وأربعين سنة منها مدة ملكه مع أمه زوى سبع سنين ومع رومانوس حميه ست وعشرين سنة وملك منفرداً خمس عشرة سنة وملك بعده ابنه رومانوس وذلك في خمس عشرة سنة من خلافة المطيع . وصير لاون بن بردس الفقاس دمستق على المشرق وصير نقفور أخاه دمستق على المغرب وسار لاون إلى نحو طرسوس وسبي وقتل وفتح الهارونية في أول شوال سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ... وورد لاون الدمستق إلى ناحية ديار بكر في سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة وتوجه سيف الدولة من حلب إلى هناك ورحل الدمستق إلى ناحية الشام وقتل من أهله عدداً متوافراً وأخرب حصوناً كثيرة وأسرى محمد بن ناصر الدولة .

(يحيى بن سعيد ٧٧٤ - ٧٧٩)

غزوة سنة ٣٤٩ هـ - ٩٤٠ م

في هذه السنة غزا سيف الدولة بلاد الروم في جمع كثير فأثر فيها آثاراً كثيرة وأحرق وفتح عدة حصون وأخذ من السبي والأسرى شيئاً كثيراً ، وبلغ إلى

(١) Basile le Parakinaumène

(٢) بن نهر عفرين وكلس .

خرشنة ثم إن الروم أخذوا عليه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس : إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه والرأى أن ترجع معنا ، فلم يقبل منهم وكان معجباً برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحداً لئلا يقال إنه أصاب برأى غيره ، وعاد في الدرب الذى دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليه قتلاً وأسرأ ، وتخلص هو في ثلثمائة رجل بعد جهد ومشقة ، وهذا من سوء رأى كل من يجهل آراء الناس العقلاء والله أعلم بالصواب .

(ابن الأثير ١٧٣)

* * *

سار نجسا ، من حضرة سيف الدولة في جيش كثيف فنزل على حصن ذى القرنين محاصراً لأهله ووافى ميخائيل بطريق بطن هتريط وترنيق وغيرهم في جمع عظيم قيل إنهم في عشرة أمثال المسلمين فلقبهم ، فقتل أكثرهم وهزم باقيهم وأسر ترنيق وغيره والتجأ جماعة منهم إلى جبل ليس له طريق فمضى إليهم وطلعه وقتلهم فيه ورى أكثرهم نفسه وطلب بعضهم الأمان فلم يؤمنهم نجسا ونظروا غرة فخرجوا هاربين وركبوا عليهم فقتلوا منهم وأسروا مائة وخمسين ونجا الباقون .

(ابن ظافر ج ١ ص ٨ - ٩)

أحداث سنة ٣٥٠ هـ - ٩٦١ م

فيها سار نجسا غلام سيف الدولة إلى هتريط فلقبه عبد الله المملطى والروم فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وانصرف سالماً ومعه من السبي ستائة رأس ومائتا فرس ، ثم سار إلى بلد ابن مسلمة فسبي وقتل وانصرف فأخذ عليه الروم الدرب فقتل كل من معه من الأسارى واستقبل هو ومن معه ، وقاتل على الدرب حتى ملكه ، وهزم من عليه وخرج ومن معه سالمين ، ثم سار إلى قاليقلا ، فأسر خمسمائة فارس وسبي وأخذ من الأبقار والأغنام ما أعجز المسلمين سوقه ورجع إلى حلب . . .

(ابن ظافر ١ - ٩)

استيلاء الروم على قصر سيف الدولة ونهب أثاثه

ملك الروم دار سيف الدولة بظاهر حلب ، وضرعها ستة آلاف ذراع ، وأخذ له منها ما لا يحصى من الأموال ، شرح ذلك : ثلاثمائة بدرة ، مائة عين ، ومائتين ورق ، وثلاثمائة حمل من البز الفاخر ، ومن الديباج الفاخر مما كان ادخره من عهد رومانوس ، خمسون حملاً من أواني الذهب والفضة ، ما لا يحصى ، ومن الخيل ثمانمائة رأس ، ومن السلاح والمناطق والتجافيف والسيوف مائة حمل ، ومن الجمال نحو ألفي جمل ، ونقل سقوف الدار معه لأنها كانت مذهبة .

(ابن ظافر ١ - ١٠)

مرض سيف الدولة وتمرد غلامه « نجا »

مرض سيف الدولة مرضاً شديداً من استرخاء عرض له ، وآيس الناس منه وأشرف على الموت وأخذ نجا قطعة من عسكره وسار إلى حرّان وصادر أهلها وتوجه إلى ميفارقين وكانت حرمة سيف الدولة أم أبي المعالي بها فلم تمكنه من الدخول وأمرت بغلق الأبواب في وجهه . وأظهر الخلاف على مولاه والخروج عن طاعته وسار إلى خلاط وملكها وأوقع بأبي الورد صاحبها وهو رجل من العرب في يده بعض بلدان أرمينية وقتله وملك قلاعه وبلاده وسار إلى منازکرد - وملكها ورجع إلى ميفارقين وحاصر حرمة مولاه وقاتلها وشتمها أقبح شتيمة وكتب سيف الدولة إلى القواد الذين معه يأمرهم بقتله فعصى عليه أهل منازکرد فسار إلى أخلاط وعصى عليه غلامه المقيم فيها ودفعه عن ما كان له فيها من الأموال التي غنمها

وطالبه الجند بأرزاقهم فلم يكن معه ما يعطيهم فشعثوا عليه وتفرقوا عنه . . . وسار سيف الدولة إلى ميفارقين وأرسل إلى نجا يأمره بالمسير إليه وآمنه على نفسه وماله وسار نجا إليه فصطح عنه وأقام عنده وشرب بين يديه فلما سكر شتم الغلمان وغلظ عليهم في القول فاغتاظوا عليه وكانت حرمة سيف الدولة أشد غيظاً عليه لحصاره لها وشتمه إياها فصاح سيف الدولة على نجا وأمر أن يقام من بين يديه فوثب الغلمان إليه بالسيوف فقتلوه .

(يحيى بن سعيد ٧٩٢ - ٧٩٥)

دخول البيزنطيين حلب

(واقعة حلب من تاريخ علي بن محمد الشمشاطي) قال : في ذي القعدة (١) أقبلت الروم فخرجوا من الدروب فخرج سيف الدولة من حلب فتقدم إلى عزاز في أربعة آلاف فارس وراجل . ثم تيقن أنه لا طاقة له ببقاء الروم لكثرتهم ، فرد إلى حلب وخيم بظاهرها ليكون المصاف هناك . ثم جاءه الخبر بأن الروم مالوا نحو العمق فجهز فتاه نجا في ثلاثة آلاف لقصدتهم . ثم لم يصبر سيف الدولة فسار بعد الظهر بنفسه . ونادى في الرعية : من لحق بالأمير فله دينار . فلما سار فرسخاً لقيه بعض العرب فأخبره أن الروم لم يبرحوا من جبرين ، وأنهم على أن يصبحوا حلب فرد إلى حلب ونزل على نهر قويق ، ثم تحول من الغد فتزل على باب اليهود وبذل خزائن السلاح للرعية . وأشرف العدو في ثلاثين ألف فارس فوق القتال في أماكن شتى فلما كان العصر وافي ساقه العدو في أربعين ألف راجل بالرماح وفيهم ابن الشمشقيق وامتد الجيوش على النهر وأحاطوا بسيف الدولة فحمل عليهم ، فلما سارهم لوى رأس فرسه وقصد ناحية بالس وساق وراءه ابن الشمشقيق في عشرين ألفاً . فانكفا أصحابه وانهزمت الرعية الذين كانوا على النهر عند ما انصرف سلطانهم وأظلمهم السيف ، وازدحموا في الأبواب وتعلق طائفة من السور بالحبال . فقتل منهم فوق الثلاثمائة وقتل من الكبار أبو طالب بن داود بن

حمدان وابنه داود بن علي وأسر كاتب سيف الدولة الفياضي وأبو نصر إلى ابن حسين بن حمدان ، وكان عسكر الملاحين ثمانين ألف فارس والسواد فلا يحصى ثم تقدم من الغد منتصر حاجب الدمستق إلى السور فقال : أخرجوا إلينا شيخين تعتمدون عليهما . فخرج شيخان إلى الدمستق فقربهما وقال : إني أحبيت أن أحقن دماءكم فتخيروا إما أن تستروا البلد أو تخرجوا عنه بأهلكم . وإنما كان ذلك حيلة منه فاستأذناه في مشاورة الناس ، فلما كان من الغد أتى الحاجب فقال : لتخرج إلينا عشرة منكم لتعرف ما عمل عليه أهل البلد . وكان رأى أهل البلد على الخروج بالأمان ، فخرج العشرة وطلبوا الأمان وتدخل الروم . فقال الدمستق : صح ما بلغني عنكم . قالوا : ما هو . قال : بلغني أنكم قد أقمت مقاتلتكم في الأزقة مختمين ، فإذا خرج الحرم والصبيان ودخل أصحابي للنهب اغتالوهم . فقالوا : ليس في البلد من يقاتل . قال : فاحلفوا . فحلفوا له . وإنما أراد أن يعرف صورة البلد ، فحينئذ تقدم بجيوشه إلى قبالة السور ولبأ الناس إلى القلعة . ونصبت الروم سلام على باب أربعين وعند باب اليهود وصعدوا فلم يروا مقاتلة . فنزلوا البلد ووضعوا السيف وفتحوا الأبواب وقضى الأمر وعم القتل والسبي والحريق طول النهار ، ومن الغد ، وبقي السيف يعمل بها ستة أيام إلى يوم الأحد لثلاث بقين من ذي القعدة فزحف الدمستق وابن شمشقيق على القلعة ودام القتال إلى الظهر فقتل ابن الشمشقيق من عظمائهم ونحو مائة وخمسين من الروم ، وانصرف الدمستق إلى مخيمه ونودي : من كان معه أسير فليقتله . فقتلوا خلقاً كثيراً ثم عاد إلى القلعة فإذا طلائع قد أقبلت من نحو قنسرين وكانت نجدة لهم فتوهم الدمستق أنهم نجدة لسيف الدولة فترحل خائفاً .

رواية ابن مسكويه

في هذه السنة ورد الخبر بأن الدمستق ورد إلى حلب وملكها وكان الدمستق وإفاهما معه ابن أخت الملك ولم يعلم سيف الدولة ولا أحد بخبره لأنها كانت كبسة

فلما علم سيف الدولة به أعجله الأمر فخرج نحوه وحاربه قليلا فقتل أكثر من معه ، وقتل جميع ولد داود بن حمدان وابن الحسين بن حمدان ، فانهزم سيف الدولة في نفر يسير وظفر الدمستق بداره وهي خارج مدينة حلب فوجد لسيف الدولة من الورق ثلاثمائة وتسعون بدرة فأخذها ، ووجد له ألف وأربعمائة بغل فتسلمها ، ووجد له من خزائن السلاح ما لا يحصى كثرة فقبض جميعها ، وأحرق الدار والربض ، وقاتل أهل حلب من وراء السور فقتل من الروم جماعة بالحجارة وسقطت ثلثة من السور على قوم من أهل حلب فقتلهم ، وطمع الروم في تلك الثلثة فأكبوا عليها ، ودفعهم أهل البلد عنها فلما جنهم الليل اجتمع المسلمون عليها فبنوها وأصبحوا ، وقد فرغوا وعلوا عليها ، وكبروا وبعد الروم قليلا إلى جبل هناك يعرف بجبل جوشن . وذهب رجال الشرطة بحلب إلى منازل الناس وخانات التجار ينهبونها ، وقيل للناس : الحقوا بمنازلكم فإنها قد نُهبت . فنزّلوا عن السور وأخلوه ، ومضوا إلى منازلهم مبادرين ليدفعوا عنها ، فلما رأى الروم السور خاليا وطالت المدة ، وتجاسر الروم ، صعدوا وأشرفوا على البلد ورأوا الفتنة فيه والنهب ، فنزلوا وفتحوا الأبواب ودخلوا فوضعوا السيف في الناس ، فقتلوا كل من لقيهم ، ولم يرفعوا السيف إلى أن كلوا وضجروا . وكان في البلد من أسارى الروم ألف ومائتا رجل فتخلصوا وحملوا السلاح على المسلمين ، وكان سيف الدولة قد أعدّ من الروم سبعمائة رجل ليفادى بهم ، فأخذهم الدمستق وسبي من البلد من المسلمين والمسلمات بضعة عشر ألف صبي وصبية ، وأخذ من خزائن سيف الدولة وأمتعة التجار ما لا يحصى ولا يوصف كثرة ، فلما لم يبق معه شيء يحمل عليه ، أحرق الباقي بالنار وعمد إلى الحباب التي يحرز فيها الزيت فصب فيها الماء حتى فاض الزيت على وجه الأرض وأخرب المساجد وأقام فيها تسعة أيام .

وكان بذل لأهل البلد قبل أن يفتحه الأمان على أن يسلموا إليه ثلاثة آلاف صبي وصبية ويحملوا إليه مالا وأمتعة حدّدها ، وينصرف عنهم . فلم يستجيبوا له إلى ذلك . وذكر أن عدة رجاله كانت مائتي ألف رجل ، وأن عدة أصحاب

الجواشن فيهم ثلاثون ألف رجل ، وفيهم ثلاثون ألف صانع للهدم ولتطويق الثلج ، وأربعة آلاف بغل عليها حسك الحديد يطرحه حول عسكره بالليل وخركاهاات عليها لبود مغربية . فمن صعد قلعة حلب تخلص بمشاشته . فلما كان بعد تسعة أيام أراد الدمستق أن ينصرف بما فاز به وحصل في يده . فقال له ابن أخت الملك : هذا بلد قد حصل في أيدينا وليس بإزائنا من يدفعنا عنه ، ومن كان فيه من العلوية وبني هاشم والوزراء والكتاب ومن لهم أموال مقيمون في القلعة ، فبأى سبب ننصرف عنه قبل فتح القلعة فقال له الدمستق : قد وصلنا إلى ما لم نكن نقتدره ولا يقتدره الملك ، وقتلنا وسبينا وأسروا وأحرقنا وهدمنا وخلصنا أسراء ، وأخذنا من أردنا أن نفاذي به بلا فدية ، وغنمنا غنيمة ما سمع بمثلها ، ومن حصل في القلعة فهم عراة ، وإذا نزلوا هلكوا لأنهم لا يجدون قوتاً والرأى أن ننصرف عنهم ، فإن طلب النهايات والغايات ردىء ، فأقام ابن أخت الملك على أمره ولح وقال : لا أنصرف أو أفتح القلعة . فلما ألح قال له الدمستق : فانزل عليها وحاصرها فإن الصورة والضرورة تقود من فيها إلى فتحها . فقال : لا أفتحها إلا بالسيف . فقال له : شأنك وما تريد . فإني مقيم في عسكرى على باب المدينة ففى الغد ترجل وأخذ سيفاً ودرقة وصعد راجلاً والمسلك إلى باب القلعة ضيق لا يحمل أن يسلكه أكثر من واحد ، فصعد وتبعه أصحابه واحداً واحداً . وقد كان حصل في القلعة الجماعة من الديلم فتركوه حتى إذا قرب فتحوا الباب وأرسلوا عليه حجراً فوقع عليه وانقلب ، ثم وثب وهو مدوخ فرماه واحد من الديلم بنخشب فأنفذ صدره وركب رأسه فأخذه أصحابه وانصرفوا إلى الدمستق فلما رآه مقتولاً أحضر من كان أسر من المسلمين فضرب أعناقهم بأجمعهم . وسار إلى بلد الروم بما معه ولم يعرض لسواد حلب والقرى التى حولها وقال لأهلها : هذا البلد قد صار لنا فلا تقصروا في العمارة فلإنا بعد قليل نعود إليكم .

المراجع

- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب : لابن الشحنة ، طبعة ، بيروت ١٩٠٩
 نهر الذهب في تاريخ حلب : للشيخ كامل الغزي
 محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، الدولة العباسية : لمحمد الحصري
 تاريخ العالم الإسلامي : لعمر رضا كحالة
 تاريخ الموصل : للقاس سليمان صائغ الموصل ، المطبعة السلفية مصر ١٩٢٣
 معجم البلدان : لياقوت الحموي ، طبعة مصر ١٩٠٦
 أمراء الشعر العربي في العصر العباسي : لأنيس المقدسي ، طبعة بيروت ١٩٣٢
 ديوان المتنبي : شرح البازجي ، طبعة بيروت سنة ١٨٨٧
 ديوان أبي فراس ، طبعة بيروت سنة ١٩١٠
 مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام : لمحمد عبد الله عنان ، طبعة مصر ١٩٢٩
 يتيمة الدهر : للشعالبي ، طبعة مصر سنة ١٩٣٤
 تاريخ أبي الفدا المؤيد ، الطبعة الأولى
 كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك : للمقريزي ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤
 تاريخ الإسلام السياسي : للدكتور حسن إبراهيم حسن ، طبعة مصر
 دائرة المعارف الإسلامية ،
 دائرة معارف القرن العشرين : لمحمد فريد وجدي
 خطط الشام : لمحمد كرد علي ، طبعة دمشق ١٩٢٦
 تاريخ الكامل : لابن الأثير
 تاريخ ابن خلدون
 تجارب الأمم : لابن مسكويه ، طبعة مصر ١٩١٤

النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، مطبعة مصر ١٩٣٣

Encyclopédie de l'Islam.

Paul Bourain — Alep, Autrefois et aujourd'hui, Alep 1930.

André Devens — Le Roman de l'Emir Séif, Paris 1935.

Marius Canard — Sayf al daula, Alger 1934.

« بيوك تاريخ عموى » : لأحمد رفيق ، الجزء الرابع ، القسم الخاص بالبيزنطيين ، وقد اعتمد المؤلف على مصادر بيزنطية قديمة وعلى ما كتبه شلمبرجر ، ورامبو وشارل وغيرهم من كبار مؤرخى الألمان والفرنسيين عن البيزنطيين .

من رسائل بعض رجالات الفكر عن هذا الكتاب

. . . قرأت كتابك في « سيف الدولة وعصر الحمدانيين » بكثير
من اللذة .

وأحر بك ، وأنت الحلبي القحّ ، والعربي الصادق ، والصحفي
الأديب ، أن تكون الأسبق إلى تكريس كتاب حياة الرجل الذي شرف
حلب والعرب والأدب ببطولته النادرة ، ودفاعه المستميت عن بلاده ،
وعطفه المخلص على أبناء الفكر والقيم .

كنت ، حين مطالعتي كتابك ، في جملة الذين ما عرفوا إلا القليل
عن سيف الدولة ، وذلك في سياق درسهم للمتنبي ، فما كان سيف الدولة
عندي غير كوكب متألق يدور في فلك الشاعر ، أما أنت فقد أظهرته لي
فلكاً تدور فيه كواكب ، فكأنك بكتابك عنه ، أعدت له حقوقاً
هضمتها ألف سنة ، فبيته حقيقاً بالتجلة والإكرام لأنه سيف الدولة
لا لأنه نصير المتنبي ، وأنت في ذلك على صواب أكيد .

أرجو أن تكون في خير وعافية ، وعليك أطيب السلام من المخلص
بسكتنا
ميخائيل نعيمة

. . . وقد عجبت من قول الدكتور أدهم « إن أسلوب الكتاب تنقصه
الدقة التعبيرية وشيء من صقل الألفاظ » ويشهد الله أنني ما لمست من
آثارك الماضية ما لمست اليوم في أثرك هذا من دقة التعبير وجمال الألفاظ
وحسن التسلسل والتصوير . . .
حيم دموس

إننا لا نستطيع إلا أن نعجب بخيال المؤلف الذي صور لنا عصرًا في
كتاب واحد تصويراً موفقاً ، إذ وفق بين المواد التي اختارها وبين الأسلوب
الذي اتخذها . أما روح الكتاب فهي عربية نبيلة يتمثل فيها ذوق الأدب
مضافاً إليه رغبة العالم المحقق . . .
الدكتور عمر فروخ

الفهرس

صفحة	
٥	الإهداء
٩	المقدمة للدكتور إسماعيل أحمد أدهم
٢٥	توطئة
٣١	الحمدانيون
	من هم ؟ كيف نشأوا ؟ كيف فرضوا أنفسهم على التاريخ ؟ ما هي الأحداث التي مرت بهم ؟ في عهد من من الخلفاء كانوا ؟ انهيار الإمبراطورية العربية بتغلب الأعاجم . الخليفة المعتضد وابنه المكتفي واعتمادهما على الحمدانيين في تأديب القرامطة والخارجين والأكراد الهذليين . ناصر الدولة . المقتدر . خيرات الموصل . دكتاتورية ابن رائق . مكيدة القائد التركي توزن مع الخليفة المتقي . ظهور سيف الدولة
٤٧	الدولة الحمدانية
	أكانت دولة بالاصطلاح الدولي المعروف ؟ معنى الدولة . دويلات بعد الحرب . دولة حمدانية في أرض الشهباء . حدودها
٥٣	حلب
	لمحة عن تاريخها القوي في عهد الحشيين . اختلاف اسمها . دخولها في حوزة العرب . قصورها . وجه الشبه بينها وبين القسطنطينية في عهد الحمدانيين . ازدهارها الأدبي . نضالها القوي . غفوتها الطويلة أيام الفاطميين وفي عهد العثمانيين . مركزها الجغرافي ونشاطها التجاري . ثروتها . عماراتها . أسوارها . قلعتها التاريخية
٦٣	دخول سيف الدولة إلى حلب
	حالة حلب قبل دخول سيف الدولة إليها . تراحم الأعاجم على ولايتها . عشرون ألف دينار ثمن وساطة الولاية . حلب في حوزة الإخشيديين . طمع البيزنطيين بها . إعلان الأمير الحمداني إمارته على حلب . غزواته الأولى مع الروم . عودته للقضاء على المنازعات الداخلية ومقاتلته كافور . سفره دمشق وطلب ضمها إلى الدولة الحمدانية . الصلح بينه وبين الإخشيديين . استيلائه على دمشق . افتتاحه بفوطها الفيحاء . خوف الإخشيديين من مطامع سيف الدولة . اتصاهم بكافور . عودة كافور

صفحة

- وقتاله مع سيف الدولة . حكم الإخشيديين في دمشق . عودة سيف الدولة إلى حلب .
بناء قصره في أرض الحلبة . عطفه على الأدباء . تقديره الشعراء
- ٨٠ **سيف الدولة : حروبه وغزواته**
- ١ - شخصية سيف الدولة . مصادر البحث . قصر الروم . تحقيق معنى الدمنة .
اضطراب الرواية العربية . المعارك الأولى . مديح الشعراء
- ٢ - حماية الثغور . استئناف المعارك . المتنبى في ساحة الجهاد . ظفر تلو ظفر .
أول الكسار . نجات سيف الدولة
- ٣ - الدولة الرومانية الشرقية . لمحة سريعة عن الأدوار التي تتابعت من عهد
قسطنطين الكبير إلى محمد الفاتح . الأسرة المكدونية . ملوك بيزانس وحياتهم الخاصة .
الحب والمآسى في زوايا القصور . الصراع بين الكنيسة والقصر . الجيش البيزنطى في
القرن العاشر . نظرة عامة
- ٤ - هجوم نيسفور فوكاس للانتقام من سيف الدولة
- ٥ - دخول نيسفور إلى حلب . إغارته على سيف الدولة وتهديمه قصر الحلبة .
دفاع الحلبيين عن أرض الوطن . هدم القصور وحرق الجوامع ونهب الكتب
- ١١٩ **آخر أيام سيف الدولة**
- ١٢٧ **الحمدانيون وبنو بويه**
- بنو بويه . انتزاعهم السلطة من العرب . إهانتهم الخلفية العربى . استشارهم
بالأموال . عدم نجاتهم الحمدانيين حين اشراكهم بحروب بيزنطية
- ٨١٣٣ **ملاحم من شخصيات عاصرت سيف الدولة**
- ١٣٥ **المتنبى**
- ١٤١ **أبو فراس الحمداني**
- ١٦٥ **الفارابى**
- ١٧٣ **ابن نباتة الخطيب**
- ١٧٩ **الصنوبرى**
- ١٩٥ **نصوص**
- الشام : وصف جغرافى لبلاد التي خضعت لسيف الدولة والحدود العربية
البيزنطية
- ١٩٧

٢٠٣	الجزيرة
٢٠٥	غزوات سيف الدولة الأولى ضد البيزنطيين
٢٠٦	رواية أخرى لحملة سنة ٣٢٨ هـ
٢٠٧	الحرب بين العرب والبيزنطيين خلال غياب سيف الدولة.
٢٠٩	أحداث سنة ٣٣٣ هـ
٢٠٩	أحداث سنة ٣٣٦ هـ
٢١٠	أحداث سنة ٣٣٩ هـ
٢١٢	أحداث سنة ٣٤٠ هـ
٢١٣	بناء قلعة رعبان ومرعش
٢١٣	من حلب إلى ديار مصر
٢١٦	بناء قلعة الحدث
٢١٦	أحداث سنة ٣٤٤ هـ
٢١٨	أحداث سنة ٣٤٥ هـ
٢٢٠	آخر قصائد المتنبي في غزوات سيف الدولة
٢٢٠	أحداث سنة ٣٤٦ هـ
٢٢١	غزوة سنة ٣٤٩ هـ
٢٢٢	أحداث سنة ٣٥٠ هـ
٢٢٣	استيلاء الروم على قصر سيف الدولة ونهب أثاثه
٢٢٣	مرض سيف الدولة وتمرد غلامه «نجا»
٢٢٤	دخول البيزنطيين حلب
٢٢٥	رواية ابن مسكويه
٢٢٨	المراجع

سيف الدولة وعصر الحمدانيين

قصة الحمدانيين وما كان لهم من شأن عظيم في تاريخ العرب السياسى والأدبى والعقلى ، وقصة الصراع بينهم وبين بنى بويه ، بجانب دراسات عن الشعراء والأدباء والعلماء الذين عاشوا فى ظلال الدولة الحمدانية كالمتنبى وأبى فراس والصنوبرى والفارابى ، إلى لمحات واسعة عن الدولة البيزنطية منذ عهد قسطنطين الكبير إلى محمد الفاتح . . .

إنه كتاب يجلو سيرة بطل من أبطال العروبة والإسلام أقام فى بلاد الشام دولة شامخة حمتها من الغزوات البيزنطية وعاش فى كفاح دامٍ من أجل حرية العرب وسيادتهم . . .

مكتبة الدراسات التاريخية

* صدر منها :

للدكتور محمد فؤاد شكرى

مصر والسودان

للدكتور خليل صابات

تاريخ الطباعة فى الشرق العربى

لمحمود كامل المحامى

الدولة العربية الكبرى

تأليف سير هارولد إدريس بل ترجمة زكى على

الهيلينية فى مصر من الإسكندر إلى الفتح العربى

للدكتور على حسنى الخربوطلى

تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى

للأستاذ سامى الكيالى

سيف الدولة وعصر الحمدانيين

* يصدر قريباً :

للدكتور إحسان عباس

العرب فى صقلية

دار المعارف للطباعة والنشر

Bibliotheca Alexandrina



0273105

